كلية الدراسات الإسلامية والعربية دبي

الندوة العلمية الدولية التاسعة

حماية الوطن في السنة النبوية

مقصد شرعي وضرورة مجتمعية

مُلخَّصات البُحوث

12-2019/03/14 م

في هذا اليوم الأغرِّ الذي تنطلق فيه فعاليات الندوة العلمية الدولية التاسعة، يسرّ الأمانة العامة لندوة الحديث الشريف أن تزفَّ إلى القارئ كتاباً يضمُّ بين عِطْفيه ملخصاتٍ لستة وثلاثين بحثاً مرشَّحاً من قبل لجنة التحكيم، وهذه مسرّةٌ تناسبُ الافتتاح، وغنيمةٌ تليق بالبحثِ في موضوع حماية الوطن في السنة النبوية.

ومن المصادفات الجميلةِ أن الأمانة العامة حين اضطلعت بترتيب الجلسات العلمية بحسب عدد الأبحاث، صادف أن يكون عددها كعدد هذه الندوة؛ إذ أشرفت على شوطها التَّاسعِ في مَسارٍ حَفِيلٍ يكاد يستوفي العَقْدَيْنِ من الزَّمن.

لقد اجتهد الباحثون، على تفاوت تخصُّصاتهم وإمكاناتهم البحثيّة، في استجلاء صورةٍ وضيئةٍ لعناية السُّنَّة النَّبَويَّة بحماية الوطن، وترسيخ دعائم استقراره، ومن أبرز المحاور الموضوعيَّة لهذه العناية: أُسُسُ حماية الوطن، ومُقوِّماتها، ومجالاتها، ومبادئها، ومقاصدها، فضلاً عما عُنِيَتْ به الجهودُ البحثيَّة، من تأصيلٍ لسُبُلِ دَرْءِ الأخطار المحدِقة بالأمن الدَّاخليِّ والخارجيِّ، ممَّا أسفر - في نهايةِ المطاف - عن حقيقةٍ شرعيّةٍ لا تُخَالجها شائبةٌ من الشَّكّ، وهي أن حماية الوطن في السنة النبوية مَقْصِدٌ شرعيٌّ وضَرُورَةٌ مُجْتمعيّةٌ.

والملحوظُ أن البحوث المرشَّحةَ أحسنت استثمار النصوص النبوية الصحيحة الصريحة في تأصيل قِيَم حماية الوطن، ولا غَرْوَ أن تجد مادتها متكرِّرَةً في هذا الموضع أو ذلك؛ فإنها مُتَسَلَّقُ الباحثين في التأصيل المذكور، وهو تأصيلٌ تَتَواشَجُ أواصرُهُ في رسمِ صورةٍ للوطنِ الآمنِ على أبنائهِ، وحضارتهِ، ومستقبلهِ المرمُوقِ.

ومن البَدَهيِّ أن تكون حياة النبيّ صلى الله عليه وسلم ومواقفُه المتعدِّدةُ محلَّ دراسةٍ وتحليلٍ واستثمار أيضا، عند التأصيل الشرعيِّ لحماية الوطن؛ إذ كان لقائدنا العظيم استراتيجيةٌ فَذّةٌ في اتخاذ القرارات، وإدارة الأزمات، واستشراف المسار المستقبليِّ. ولو احتُفي بهذا الجانب في مجموع البحوث حقَّ الاحتفاء، لكان ذلك حَقيقاً بأن يُوَطِّىءَ للنَّدوة أَكنافَ إضافةٍ علميَّةٍ أَجْزَلَ وأَوْفَرَ..

وكم زَخَرَت سيرةُ النبيّ صلى الله عليه وسلم، بدروسٍ نافعةٍ وعبرٍ ساطعةٍ، في التكيّف مع مراحلِ الدّعوةِ، ومستجدّاتها الطَّارئة، ونحن، اليوم، في أمسِّ الحاجة إلى استخراجها وتنزيلها ونشرها في الناس، إذا ما رُمْنا الدِّفاع الحَسَن عن هذا الدِّين، والنُّصْرة الصادقةَ لمصادره التشريعية ؟ وإنَّ ما وُطِّىءَ لنا من إبداعاتٍ مَنْهَجيَّةٍ على أَيْدِي العباقرة الأسْلاف، ليُسْتَسْعَفُ في تحليلِ هذه السِّيرة، واستجلاءِ رَصيدها الحيويِّ، في تجاوز واقعنا المتردِّي، وترقيع ما يمكن ترقيعه من سلوكاتٍ شاذَّةٍ، وخارجةٍ عن اليُسْرِ، والسَّماحة، والرَّحمة.

فحادثة الهجرة – على سبيل المثال – كانت تحمل في طيَّاتها ومضاتٍ مشرقاتٍ من حرص النبي صلى الله عليه وسلم على حماية وطنه، مكة المكرمة، وحفظ أمنها، مع أن قريشاً آذوه بالإخراجِ منها، ولم يكن موقفُهُ رَدَّ الإيذاء بالإيذاء؛ بل صبر على مَصاعب الدَّعوة، وآثر أَمْنَ وَطَنِه الأُمِّ على الأمن الذَّاتيِّ. وأيُّ درسٍ أعظمُ من هذا في حماية الوطن، وإيثار سلامته على سلامة الأفراد؟. وإنّ اجتماعنا، اليوم، على مائدة هَذه النَّدْوة الدَّوليَّة لَاسْتلهامُ لمثلِ هذه الدُّرُوس العظام في إطارِ أكاديميٍّ، يُجْزِلُ الفَائدة، ويُمَهِّدُ الوَعْيَ، ويَرتَقي بالأُمَّة إلى ما ترجوهُ، من مُتَبَوَّأِ الخيريَّة والشَّهادة على الأُمم الأخرى..

وآخرُ دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

أ. د. حمزة عبدالله المليباري

الأمين العام لندوة الحديث الشريف

الفهرس

اليوم الأول: الثلاثاء ١٢ – ٣ – ٢٠١٩ م الجلسة الأولى: حماية الوطن؛ المفاهيم والمقتضيات والمقاصد.	صفحة
الوطن في عصر العولمة، من جدلية الانتماء إلى مقتضيات الحماية و العمران، قراءة في ضوء الحديث النبوي / أ. د. إبراهيم أحمد محمد الكاروري – نائب مدير جامعة أم درمان الإسلامية.	١١
مقتضيات المواطنة في بلاد المهجر؛ نحو مقاربة تأسيسية لمداخل حماية الوطن من خلال السنة النبوية / أ. د. محمد علا– أستاذ الفكر والمقاصد بكلية أصول الدين وحوار الحضارات، جامعة عبد المالك السعدي بتطوان.	١٩
مضامين المواطنة من المنظور الإسلاميِّ، وأثرها في حماية الوطن: قراءة تحليليَّة في وثيقة المدينة المنوَّرة / أ. شيخ أحمد جينغ – باحثٌ في مرحلة الماجستير، تخصُّص الحديث وعلومه.	٢٩
الوطن والوطنيةُ في السنّة النبوية: حتمية الانتساب ومقصدية الحماية دلالات استقرائية في نصوص السنة وفقهها / د. عبد الله عبد المومن– أستاذ الفقه وأصوله بجامعة ابن زهر بالسمارة.	٣٩
الجلسة الثانية: حماية الوطن؛ الأسس والمقومات.	
أُسُسُ حِمايَةِ الوَطَنِ، ومُقَوِّماتُها في السنّةِ النّبويةِ / د. أيمن جبرين عطا الله جويلس – أستاذ مساعد بكلية الشريعة – جامعة الخليل.	٤٧
حماية الوطن في السنَّة النَّبوية ومقوماته السلوكية والاجتماعية والاستراتيجية / د. بيدر محمد محمد حسن – أستاذ مساعد في كلية الشريعة والقانون في جامعة العلوم الإسلامية الماليزية.	٥٥
مقومات حماية الوطن ووسائل تفعيلها دراسة في هدي السنة النبوية / د. عطا الله مدب حمادي الزوبعي – دكتوراه في الحديث الشريف وعلومه.	٦١
مقومات حماية الوطن في حجة الوداع / د. بُوعُبَيدَ الازدهار – أستاذ بأكاديمية التربية والتكوين – المغرب.	٦٩

اليوم الثاني: الأربعاء ١٣ – ٣ – ٢٠١٩ م الجلسة الأولى: حماية الوطن؛ القيمُ والمبادئ.	صفحة
التعايش الديني وأثره في إرساء قيم المواطنة وترقية حماية الوطن من خلال نصوص السنة النبوية / أ. د. نصر سلمان – أستاذ الحديث وعلومه بجامعة الأمير عبد القادر قسنطينة الجزائر.	٧٧
حمايةُ الوَطن في السُّنَّة النَّبَويَّة المَبادئُ والمُنطَلَقات / د. كريمة محمد سوداني – أستاذ مساعد زائر في الجامعة القاسمية – الشارقة.	٨٧
تعزيز الانتماء وأثره في حماية الوطن من خلال الهدي النبوي / د. شفيق عبد القادر لامة – أستاذ أصول التربية الإسلامية، وتاريخ الأديان والمناظرات الدينية، كلية الآداب / جامعة الحسن الثاني.	٩٧
الاعتدال الفكري وأثره في حماية الوطن دراسة تأصيلية في ضوء السنة النبوية / د.سعيد بن أحمد بوعصاب–أستاذ العلوم الشرعية، بكلية العلوم الشرعية، السمارة، جامعة ابن زهر.	١٠٥
الجلسة الثانية: حماية الوطن؛ الأمن الداخلي وسبل تعزيزه.	
قيمة المسؤوليّة وأثرُها في تعزيز الأمن الوطنيّ وحمايته، دراسةٌ في ضوء الهدْي النّبويّ / د. ماريه بسام عبابنه –أستاذ الحديث المساعد في جامعة الحدود الشمالية / السعودية.	١١٣
الهجرة في السنة النبوية، الحدث الأبرز في تعزيز مقوّمات حماية الأوطان / أ. لطيفة محمد علي الفارسي – باحثة في مرحلة الدكتوراة –كلية الدراسات العربية والإسلامية–دبي.	١٢١
طاعة ولاة الأمر في السنة النبوية وأثرها في الحماية الوطنية / د. مريم راشد التميمي / أستاذ الفقه وأصوله المشارك بكلية الآداب بجامعة الإمام عبدالرحمن بن فيصل بالدمام.	١٢٩
أثر طاعة وليّ الأمر (ضوابطها، أسسها، مقوماتها) في حماية الوطن، دراسة تحليلية في السنة النبوية / أ. د. سلوى محمد المحمادى –أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة بجامعة أم القرى.	١٣٥

الجلسة الثالثة: حماية الوطن؛ الاستشراف والتخطيط.	
حماية الوطن رؤى مستقبلية وأبعاد استراتيجية في السنة النبوية / د.إبراهيم البرزنجي - مدير الإرشاد والبحوث والدراسات في وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، أربيل.	١٤١
كيف يُصنَعُ المواطن المنتمي والحامي للوطن؟ مسالكُ التنميَّة المركَّبة وذُلُلُ السُّنَّة النبويَّة / د. ناصر يوسف- باحث ومحرر ومشرف في مكتب البحوث والابتكار- الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا.	١٤٩
استشراف المستقبل لعمارة الأوطان، وحمايتها كما تصوره السنة النبوية المباركة / د. علي حافظ السيد سليمان- أستاذ الحديث المشارك بقسم الدراسات الإسلامية، كلية الزلفي / جامعة المجمعة - السعودية.	١٥٧
التخطيط: استراتيجية نبوية لحماية الوطن / د. علي محمد أسمر أبو شحادة - دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن، مساعد باحث في الجامعة الأردنية.	١٦٧
الجلسة الرابعة: حماية الوطن؛ الإدارة والقانون والاقتصاد.	
حماية الأمن الوطني في السنة النبوية، مكافحة الفساد الإداري أنموذجًا / أ. د. عبد المحسن بن عبد الله التخيفي - أستاذ الحديث وعلومه بقسم الدراسات الإسلامية بجامعة الملك سعود.	١٧٥
أثر سيادة القانون في حماية الوطن ومعالمها في السنّة النبويّة وإشكاليّاتها، دراسة تأصيليّة ونقديّة / أ. مأمون محمد الدحيّم -باحث في مرحلة الدكتوراه الجامعة الأردنيّة.	١٨٣
السنة النبوية وحماية الوطن من خلال تأمين النشاط الاقتصادي للمجتمع / د. عزالدين بن زغيبة - رئيس قسم الدراسات والنشر والشؤون الخارجية بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث.	١٨٩
حماية الدخل القومي في السنة النبوية وأثر ذلك في حماية الوطن / د. محمود فهد أحمد مهيدات - مدير مكتب إفتاء لواء الكورة - دائرة الإفتاء العام الأردنية.	١٩٩

اليوم الثالث: الخميس ١٤ – ٣ – ٢٠١٩ م الجلسة الأولى: حماية الوطن؛ الحماة والشهداء والأسر.	صفحة
مكانة حماة الوطن والشهداء وحقوقهم في السنة النبوية وأثر ذلك في حماية الوطن / د. باسم حسن وردة – دكتوراه في الحديث النبوي – وزارة الأوقاف الأردنية.	٢٠٧
الرباط فضله وأثره في حماية الوطن في ضوء السنة النبوية / عمران محمد المزوري – باحث في مرحلة الدكتوراه في الحديث النبوي الشريف– مدرس بكلية العلوم الإسلامية بجامعة صلاح الدين – أربيل.	٢١٥
رعاية أبناء الشهداء في ضوء السنة النبوية وأثرها في حماية الوطن / د. علي الشبيلي – عضو هيئة تدريس بجامعة الإمام.	٢٢٣
أثر الأسرة في حماية الوطن في ضوء السنة النبوية / أ. د. مفرح بن سليمان القوسي– أستاذ الدراسات العليا بكلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.	٢٣١
الجلسة الثانية: حماية الوطن؛ المجالات والمهددات.	
تقصيد وسائل التواصل الاجتماعي، نحو خدمة القيم النبوية؛ قيمة حماية الوطن نموذجاً / أ. يونس الخمليشي– باحث دكتوراه بجامعة عبد المالك السعدي بتطوان، كلية أصول الدين.	٢٤٣
أخلاقيات القائم بالاتصال والدور المفترض في حماية الوطن / د. رقية بوسنان – أستاذة في علوم الإعلام والاتصال بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية.	٢٥١
أثر الشائعات في تهديد الوطن ودور السنة النبوية في مواجهتها / د. عماد حمدي إبراهيم – أستاذ مساعد للدراسات الإسلامية، بجامعة سوهاج / مصر.	٢٥٩
مجالات حماية الوطن في السُنّة النبويّة ومنهج الإدارة النبويّة في بنائها / د. محمد شريف مُشوّح – حاصل على دكتوراه في الإدارة الإسلامية «مصارف إسلامية».	٢٦٧

الجلسة الثالثة: حماية الوطن؛ المجالات والمهددات.	
أحاديث العهود وأثرها في حماية الأوطان / د. عادل فائز- أستاذ العلوم الشرعية واللغوية بجامعة ابن زهر / أكادير - المغرب.	٢٧٥
النصيحة (أصالة المفهوم وتجديده، وأثرها في حماية الوطن) / د. عبد الله بن عبد العزيز الباقي- عضو هيئة التدريس بكلية المعلمين بمنطقة الباحة.	٢٨١
المنهج النبوي في حماية الوطن والدفاع عنه / د. أنس سليمان المصري - أستاذ الحديث النبوي الشريف وعلومه المساعد.	٢٨٩

الوطن في عصر العولمة
من جدلية الانتماء إلى مقتضيات الحماية والعمران
قراءة في ضوء الحديث النبوي

أ. د. إبراهيم أحمد محمد الكاروري
أستاذ فقه المعاملات بالدراسات العليا
نائب مدير جامعة أم درمان الإسلامية (السودان)

الاهتمام بالوطن وبذل الجهد من أجل حمايته ورعايته ونموه وتطوره، أمر موصول بمقاصد الشريعة الإسلامية والتي دعت إلى الإصلاح والعمران حفاظًا على الدين والنفس والعقل والنسل والمال. والوطنُ هو منطلق الإنسان وقاعدة سعيه ومجال حركته وحيويته وإبداعه، وقد حفلت السنة النبوية الشريفة بما يمثل زادًا كافيًا في استنباط المنهج المعين على حفظ رسالة الوطن والتعامل مع المتغيرات الواقعية. والعلاقة بين استقرار الوطن وحفظه ورسالة الإنسان عبادة وإصلاحًا وإعمارًا علاقة قوية راسخة، وهذا يتأسس على قيم الحب والوفاء ويستدعي فضيلة البذل والتضحية والعطاء، لا سيما في ظل المتغيرات والمستجدات المتسارعة، وربما أثر ذلك على نسقية القيم ولبس على بعض المفاهيم ومثلت العولمة أنموذجًا مثاليًا لقراءة واقع الوطن ومهدداته في ظل التقارب الكوني والتواصل العالمي حتى كادت أن تذوب الحدود وتختفي الحواجز، وربما أثر ذلك من ناحية أخرى على الهوية الوطنية وتميزها، وفتح بابًا للشرور اعتداء على الأوطان وتحررًا من التزاماتها وحقوقها.

أحب أن أناقش هذه القضية بالنظر إلى الوطن في عصر العولمة ثم معالجة جدلية الانتماء ومطلوبات الحماية والعمران في ضوء السنة النبوية المطهرة من خلال الآتي:

أولًا: الانتماء للوطن ودلالته العمرانية في ضوء السنة الشريفة:

عند تناول الانتماء الوطني ودلالة ذلك العمرانية يقتضي الأمر بيان مرتكزات الانتماء للوطن وأهميته، ونجد ذلك واضحًا في القرآن الكريم وفي سنة النبي صلى الله عليه وسلم يقول تعالى في كتابه العزيز مبينًا واجبات الإنسان الإعمارية وارتباط ذلك بموجبات الاستخلاف وأهميته، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ

وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.[1]

ثانيًا: الوطن قيم التأسيس ومرتكزات العمران: مقاربة في ضوء الحديث النبوي الشريف.

- **قيم التأسيس الوطني**: تتضح قيم التأسيس للوطن والتي نقصد بها الأصول التي تنبني عليها دعائمه وتحقق له الاستقرار ليصبح صالحًا للعيش والطمأنينة في قول إبراهيم عليه السلام ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾[2] وهذه الآية الكريمة بينت لنا قيم التأسيس.

- **مرتكزات العمران الوطني**: ويتضح ذلك من خلال الآتي: العمران الاجتماعي: ويقصد به العلاقات بين أبناء الوطن الهادفة إلى تنميته من خلال التزاوج والتناسل والتكاثر وفق قيم المودة والرحمة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ»[3]، ثم العمران الاقتصادي: وهو عمران التنمية والقيم استفادة من عناصر ذلك في ثنايا الوطن كما جاء في الحديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ. فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ، فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ...»[4] ثم العمران السياسي: وهذا يتحقق من خلال العلاقة الإيجابية بين الحاكم والمحكوم وفق التراضي الوطني المحقق للاستقرار والطمأنينة، عَنِ ابْنِ عُمَرَ: عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

١- سورة البقرة الآيات ٣٠.
٢- سورة إبراهيم الآية ٣٧.
٣- سنن الترمذي باب ما جاء إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه حديث رقم ١٠٨٤.
٤- صحيح مسلم، باب الصدقة في المساكين حديث رقم ٢٩٨٤.

«عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ»[1]، ثم العمران الوطني وفروض الكفايات، عن أبي موسى رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ. فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ الله، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: يَعْمَلُ بِيَدِه، فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ. قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ. قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: فَلْيَعْمَلْ بِالْمَعْرُوفِ، وَلْيُمْسِكْ عَنِ الشَّرِّ، فَإِنَّهَا لَهُ صَدَقَةٌ»[2]، وهكذا تمثل فروض الكفيات مدخلًا واسعًا للتنمية والعمران الوطني.

ثالثًا: مهددات العمران الوطني وقيم الحماية في ضوء التحدي العولمي: ربما أثر الانفتاح العولمي وشكل مهددًا في بعض جوانبه على تماسك الأوطان وهذه القراءة تتضمن النظر في تلك المهددات وقيم الحماية وإبراز جدلية الانتماء للوطن بخصوصيته وتحديات العولمة ووسائل الاختراق والهيمنة القائمة مما يقتضي إحداث موازنة دقيقة وشاملة. ويتضح ذلك في الآتي:

أ- **مهددات العمران الوطني:** ونجمل تلك المهددات في الآتي: مهددات الولاء الوطني: وتتمثل في الاختلاف والنزاع وموالاة الأعداء عن عبد الله بن عمرو: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِه وَثَمَرَةَ قَلْبِه، فَلْيُطِعْهُ مَا اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا رَقَبَةَ الْآخَرِ»[3]، ثم مهددات السلم الداخلي: وهذه تظهر في القيم السالبة التي تصنع العداء والبغضاء داخل مكونات الوطن الواحد؛ فعن الزبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمُ الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِمَا يُثَبِّتُ ذَلِكَ لَكُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ

١- صحيح مسلم، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية، حديث رقم ٤٨٦٩.
٢- صحيح مسلم، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، حديث رقم ٢٣٨٠.
٣- سنن أبي داود، باب ذكر الفتن ودلائلها، حديث رقم ٤٢٤٨.

بَيْنَكُمْ»[1]، ثم مهددات نسق القيم: وما يهدد هذه القيم يتمثل في نوازع العدوان وإفساد العلاقات، عن أبى هريرة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»[2]، انتهاك الحرمات: تمثل الحرمات سياجًا واقيًا يحفظ المجتمع ويقيه من الشرور المدمرة ويرعى حياة الإنسان عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَتْلُ مُؤْمِنٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ مِنْ زَوَالِ الدُّنْيَا»[3].

ب- قيم حماية الوطن: وتتمثل هذه القيم القاصدة إلى حماية الوطن في الآتي:

- **الحماية من جريمة التجسس.**
- **الحماية من جريمة قطع الطريق.**
- **الحماية من الجرائم السياسية.**

ثالثًا: العولمة وتحديات الانتماء الوطني ومنهج الحماية في ضوء الحديث النبوي الشريف من خلال الآتي:

أولًا: مسيرة العولمة وتطورها: إن هذا المصطلح ظهر أول ما ظهر في مجال المال والتجارة والاقتصاد غير أنه لم يعد مصطلحًا اقتصاديًا محضًا؛ فالعولمة الآن يجري الحديث عنها بوصفها نظامًا أو نشاطًا ذا أبعاد يتجاوز دائرة الاقتصاد، فالعولمة الآن نظام عالمي يراد له أن يشمل دائرة مجال المال والتسويق والتبادلات والاتصالات مثل شموله مجال السياسة والفكر والايدلوجيا. والعولمة تعني جعل الشيء على مستوى عالمي أي نقله من المحدود، والمراقب إلى اللامحدود والذي ينأى عن كل مراقبة..

١- سنن الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، حديث رقم: ٢٥١٠.

٢- صحيح مسلم، باب بيان تحريم إيذاء الجار، حديث رقم: ١٨١.

٣- سنن النسائي الكبرى، ج ٢ / ص ٢٨٤.

ثانيًا: تحديات العولمة وتبرز أهم التحديات في الآتي:

١- **مفهوم القومية العابرة للحدود:** ويقصد بها الجماعات العابرة للحدود التي تعمل داخل الحدود الإقليمية ويكون لها أعضاء ولاؤهم خارج تلك الحدود، وهذه ربما أدت إلى ضعف الدولة الأم وولدت مشكلات في ثقافة الدولة المضيفة وربما أدى ذلك إلى اضطراب وتلبيس داخل هياكلها.

٢- **تحديات أمام السيادة:** السيادة الوطنية هي الاطار القانوني الحافظ لخصوصية الدولة والحامي لكيانها المادي والمعنوي وتتمثل التحديات في إضعاف السيادة الوطنية وذلك من خلال اتساع مؤسسات الهيمنة الدولية مما يؤدي إلى حلحلة الضوابط والمحددات الوطنية التي تتناسب وطبيعة الأوطان وقيمها ومواريثها.

٣- **التطرف والإرهاب العولمي:** ويتمثل ذلك في بعض الجماعات والمنظمات الإرهابية النازعة إلى تجاوز الحدود الجغرافية وممارسة أنشطتها من خلال تجنيد الشباب وبث الدعايات الكاذبة وتوظيف الآلة الإعلامية العالمية لتحقيق أهدافها الإجرامية.

٤- **تهديد الهوية الوطنية:** الهوية هي مجموعة الخصائص والمميزات العقدية والأخلاقية والثقافية التي ينفرد بها شعب من الشعوب وأمة من الامم، ونسيج الهوية نسيج معقد جدًا يستمد من عقيدة الشعب وقيمه الكبرى وذاكرته التاريخية وعبقرية المكان الذي يعيش فيه، إن تحديات تهديد الهوية الوطنية تتمثل في انخفاض مستوى الاهتمام بالخصوصيات والمثاليات والموروثات والروحانيات والذوبان في الآخر عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»[1].

١- سنن أبي داود، باب في لبس الشهرة، حديث رقم: ٤٠٣١.

٥- **الجريمة العابرة للحدود**: الجريمة العابرة للحدود هي أفعال مؤثمة تمثل سلوكًا إجراميًا معروفًا وممنوعًا بحكم القانون، تقوم على فكرة التنظيمات أو العصابات الدولية ذات النشاط المخطط والمستمر والمعقد الهرمي، المدرب على ممارسة نشاطه الإجرامي وعبور الحدود بين الدول بالتواطؤ مع آخرين استفادة من سوانح الحركة والعمل وتبادل المعلومات.

ثالثًا: الإطار المرجعي للتعامل مع العولمة: وفي سبيل تحديد رؤية استراتيجية في التعامل مع الآثار السالبة للعولمة وانعكاس ذلك على مقتضيات العمران الوطني يتم تحديد النقاط الآتية:

١- **نشر الوعي بالعولمة.**

٢- **تحقيق الأمن الفكري.**

٣- **البناء المؤسسي.**

٤- **المشاركة بفعالية في صناعة الواقع الحضاري.**

مقتضيات المواطنة في بلاد المهجر
نحو مقاربة تأسيسية لمداخل حماية الوطن
من خلال السنة النبوية

أ. د. محمد علا

أستاذ الفكر والمقاصد بكلية أصول الدين وحوار الحضارات

جامعة عبد المالك السعدي بتطوان (المغرب)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الكريم، وعلى آله وصحبه أجمعين.

تُعدُّ أحاديث السّنة النبوية ووقائع سيرة الفترة المحمدية مجالا عاما مؤطرا لمقاربة إشكالية المواطنة ومداخل الإسهام في حماية الوطن من قبل المهاجرين المسلمين المقيمين خارج أوطانهم الأصلية، إما بسبب العمل أو الدراسة أو غيرهما من الأسباب التي تجعل ارتباطهم ببلدهم الأم مؤقتا وموسميا، وارتباطهم بالبلد المستقبل دائما وأصليا. فهي قضية حقيقية ذات أبعاد مؤثرة على واجهات متعددة، على الأفراد أنفسهم، وعلى الدول المستقبلة لهم، وعلى الدول الأصل التي قدم منها المهاجرون، كما أنها ظاهرة عالمية ذات امتدادات وتفاعلات بينية خاصة في الزمن المعاصر الذي شهد حركات هجرة مكثفة ومعقدة. كما أن الموضوع لم ينل بعد، بحسب اطلاعنا، من الدراسة والتحليل والتأسيس النظري والمنهجي ما يكفي لبناء تصور سليم قادر على خلق توازن بين مختلف المتغيرات المرتبطة بالمواطنة وتأصيلاتها الشرعية من القرآن الكريم والسّنّة النبوية المطهرة فيما هو متعلق تحديدا بانتشار المسلمين في بلاد الغرب وغيرها من البلدان، وفيما يصبو أساسا إلى حماية الوطن والسعي في رقيه وازدهاره.

وتحاول الدراسة الإجابة عن جملة من الأسئلة أهمها: ما تجليات التوافق والتماثل بين أوضاعنا الاجتماعية والاقتصادية اليوم وبين مثيلاتها سابقا وبخاصة في زمن النبوة فيما يتعلق بوجود المسلمين في غير بلادهم الأصلية؟ هل تحقيق المواطنة مقتصر على البلد الأم أم أنها أوسع من ذلك؟ كيف يمكن لهذا الوضع الخاص أن يسهم في حماية الوطن؟ والمقصود في سياق بحثنا الوطن الأصل والوطن البديل. وكيف أصّلت السنة النبوية لمقومات المواطنة لضمان الحقوق المتبادلة بين هذه الفئات من المواطنين والبلدان المستقبلة لهم؟ ما المداخل القمينة النابعة من السّنة النبوية القادرة على تأسيس رؤى جديدة لوجود المسلمين في غير بلادهم الأصلية؟

فالدراسة تجعل من السّنة النبوية مرجعا، ومن حماية الوطن مقصدا، ومن فئة المهاجرين المسلمين المقيمين في بلاد الغرب موضوعا وعيّنة للرصد. وتبرز أهمية الإشكالية في الأعداد الكبيرة لهؤلاء المهاجرين والأعمال الطلائعية المنوطة بهم، وبخاصةٍ فيما يرتبط بحماية أوطانهم والدفاع عنها. ورغم أن الظاهرة هي ظاهرة حادثة بامتياز إلا أن المبادئ العامة التي تؤطرها حاضرة بقوة في مرجعيتنا وقادرة على تأطيرها وتوجيهها وفق شروطها وضوابطها.

إن مقصد الاستخلاف القرآني، والتنزيل العملي النبوي، ومحددات الخلق والهيمنة والعالمية والشمول، تشكل جميعها أرضية معرفية وحضارية، وموجهات مرجعية للمسلمين عموما من أجل حماية الخلق والاستئمان على مكونات الوجود، لكونهم أمة رسالة وعطاء وبناء معنوي ومادي. ومن ثم تظهر أهمية تعزيز مفهوم الدار العالمية الواحدة وتجاوز كل التقسيمات التقليدية، (دار الكفر ودار الإيمان، دار دعوة ودار إجابة). فالأصل هو عدم القسمة، والواقع يفرض تجاوز التقسيم الثنائي للمعمورة إلى مفهوم الدار العالمية الواحدة خاصة بعدما غدت مشاكل العالم تهم الجميع وتؤثر في الجميع، وانتشر المسلمون في جميع بقاع العالم وأصبحوا جزءًا لا يتجزّأ من تلك المجتمعات الحاضنة لهم، ومن ثم أصبح لازما تضافر جميع الجهود لإيجاد حلول عالمية للمشكلات الكبرى القائمة، مما يمهد من جديد لبناء تصورات لمداخل الإسهام الإسلامي وإمكاناته في حل مشكلات عالمنا المعاصر وأزماته وتجاوزها.

فهذا التقسيم هو ضرب من التكلّف وبُعد عن الواقع وتضييق لآفاق الرسالة ذات البعد العالمي، ومعيق معنوي ورمزي ومادي لكل الجهود المبذولة من أجل تعزيز قيم المواطنة المشتركة لكل الفئات والتشكيلات في الدار العالمية، ومن ثم فإنه من حقنا في زماننا أن نطلق ما نراه مناسبا من توصيف، فلا وجود لتوصيف ثابت مقرر وإنما هي أمور تفاعلية بناء على الواقع وبناء على نوعية الآخر ومواقفه،

وبناء على قاعدة المعاملة بالمثل وعلى سياق المناخ الدولي.

فمن شأن هذا التصور أن يعزز تحقيق مقصد إنساني عام، وهو حماية مكونات الأرض جميعها من أسباب الدمار والهلاك والاندثار، وتوسيع دائرة التعاون مع كل الجهود الخيّرة الساعية لضمان كرامة الإنسان في كل مكان. وتحقيق ذلك المقصد العام يمرّ عبر حماية خاصة مرتبطة بكل بلد على حدة، وهنا تظهر استراتيجية وأهمية إسهام جميع المسلمين المتواجدين في بقاع العالم في تعزيز الاستقرار بحماية أماكن تواجدهم والوعي بالسياقات المحيطة بهم. والمبادئ السابقة تجلت مظاهرها بأشكال مختلفة في التجربة النبوية، حيث نجد الاعتراف بالتنوع الديني واللغوي والعرقي، واحتضان لمختلف الطوائف وضمان حقوقهم والدفاع عنهم وإقامة العدل بينهم ومعهم، ونصرة المظلوم وإعانة المحتاج منهم، ومساعدة المرضى والضعفاء من جميع الملل، وحماية أماكن عبادتهم وضمان ممارسة شعائرهم والتعبير عن آرائهم وقناعاتهم، تجسّد ذلك منذ فجر الدعوة المحمدية، إذ قدّمت التجربة النبوية بقيادة الرسول الكريم محمد ﷺ نموذجا فريدا في تعزيز قيم بناء الأوطان والوفاء لها وحماية مكوناتها المعنوية والمادية.

ومن التجليات المرتبطة بالموضوع أن المسلمين المهاجرين الذين فارقوا أوطانهم المحببة لديهم يجدون عزاءهم بالإحساس بالغربة والبعد عن الأوطان متجسدا في حياة الرسول الكريم ﷺ؛ لقد تعرض عليه السلام للاغتراب عن وطنه الأم مكة المكرمة، فعن ابن عباس أن النبي ﷺ قال في حق مكة عند الهجرة منها: «مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلْدَةٍ، وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكِ، مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ»[1]، وهي عبارة نبوية بليغة تترجم عن شعور النبي ﷺ نحو بلده ووطنه، وعن حبه له، وشوقه إليه، وحرصه عليه، وتبين لنا أن الرسول ﷺ لم يترك مكة كرها لها، أو رغبة عنها، أو استخفافا بشأنها، ولكنه خرج منها مكرها، ولولا هذا

١- صحيح ابن حبان، كتاب الحج، باب فضل مكة، ذكر البيان بأن مكة كانت أحب الأرض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم ٣٧٠٩.

الإكراه ما فضل عليها بلدا آخر، فللوطن منزلة خاصة في قلب الإنسان، وبخاصةٍ الوطن الأول، وطن النشأة والطفولة والترعرع، حيث يكبر الإنسان ويكبر معه حبّ المكان كيفما كان، وعند مغادرته يظل الحنين راسخا، والشوق مستمرا. ولا يعني ذلك إهمال للوطن المستقبل أو التنكر له، بل يصبح وطنه الثاني ما دام فيه مستقره وموطنه، يدافع عنه ويحميه من مسببات الهدم ويسعى لرفعته ورقيه. فقد كان ﷺ وفيا للوطن المستقبل وللوطن الأم معا، وكان من دعائه عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ»[1]، ولا أدل على ذلك الحب أن المدينة كانت محط استقراره وموطن قبره عليه السلام.

أما حياته فيها فكانت كلها جهدا وعطاء، فمنذ أن وصل إليها عمل بجد واجتهاد من أجل تقوية التماسك المجتمعي، وجمع الكلمة، وتوحيد الصف، واستيعاب مختلف الفئات المشكلة للمجتمع، وتوجيه قواها للعطاء والتعاون والتربية والتعليم ونشر قيم الخير والصلاح، والتضييق على قيم الظلم والفساد، وهي القيم التي اهتمت بالأصول والكليات كما اهتمت بأدقّ التفاصيل والجزئيات؛ اهتمت بأركان الدولة ولم تهمل حقوق النملة، ولم تتغافل عن تنقية العقول وتقويتها، وصفاء القلوب وفاعليتها، فأسست بذلك قيما جامعة مانعة بانية للخير هادمة للشر، مؤسسة للصلاح في كل زمان ومكان، وكانت بحق تجربة رائدة لاستلهام قيم المحافظة على الأوطان وحمايتها وتعزيز بنائها.

إن هجرة المسلمين إلى أماكن أخرى للعيش والاستقرار، خاصة في بلاد الغرب، تفرض عليهم بذل مزيد من الجهد للحفاظ على أصولهم وانتماءاتهم، وفي الوقت نفسه السعي إلى تبيئة منطلقات تفكيرهم لتتوافق مع متطلبات الوطن البديل وخصوصياته، أي الاجتهاد لحل إشكالاتهم وفق شروط واقعهم من غير استيراد للفتاوى الجاهزة التي صُنعت بعيدا عن همومهم وسياقاتهم. والأصل

١- صحيح البخاري، فضائل المدينة، باب حدثنا مسدد، رقم: ١٨٨٩.

هو الوفاء للوطنين معا، والاعتراف بجميلهما، والسعي في خدمتهما. فلرسالة الإسلام بعد إنساني قائم على أساس الأخوة والمحبة الإنسانية، وهو بعد يعتبر البلد المضيف وطنا حقيقيا للساكن فيه، ويعتبر قاطن هذا «الوطن البلد» إنسانا أخا ضمن أسرة ممتدة موسعة، كلّ ما يعنيه يعنيه، وكل ما يضره يضره، وكل ما ينفعه ينفعه، وكلها مبادئ موافقة للبعد الاستخلافي بمفهومه العام والشامل. فالمواطنة من هذا المنظور تعزيز للمشترك الإنساني وتقوية للبناء القيمي والأخلاقي، ومن ثم يمكن اعتبارها أحد روافد الإعمار والاستخلاف بالمفهوم القرآني.

ومن أهم المبادئ الكبرى المرتبطة بالمسلم أينما حلّ وارتحل الوعي بمركزية الأمن والاستقرار في استمرارية الحياة، الأمن على الدين والنفس والعرض والعقل وعلى المال، قال الرسول ﷺ: «الْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ»[1]. ومن ابتلاءات الزمن المعاصر اتهام الإسلام وأهله بالإرهاب والعنف والتطرف، وإن وجود المسلمين في أحضان البلدان الغربية يشكل فرصة عظيمة لتصحيح تلك المغالطات والدعاوى وتفنيد الاتهامات والادعاءات المنتشرة في الإعلام بجميع أصنافه، وطريق ذلك المخالطة الإيجابية معهم، والمشاركة المسؤولة في المنتديات والمطارحات الفكرية العلمية التي تناقش قضايا العنف والتطرف والإرهاب. وينبغي أن تكون تلك المشاركة مبنية على العلم الصحيح والمعرفة الدقيقة بالأدلة القوية والبحث الرصين، حتى تكون رسالتنا واضحة لا غموض فيها ولا لبس، ولا شك أن تلك المنافحة تعدّ جانبا مهما من جوانب الدفاع عن الوطن وحماية إرثه المعنوي والمعرفي والمادي.

ومن تلك المبادئ؛ الثبات على مكارم الأخلاق وفضائل القيم؛ فهي بمثابة سفير معنوي كبير لرسالة الإسلام عموما ودليل رمزي على رفعة أهله ومجال رحب للرفع من قيمة الوطن. وأُسوتنا في ذلك أخلاق الرسول ﷺ في تعامله مع

١- سنن ابن ماجة، أبواب الفتن، باب حرمة دم المؤمن وماله، رقم: ٣٩٣٤.

أصحابه وأهل بيته، ومع الصبيان والنساء، ومع المخالفين له في الرأي والدين والعقيدة، من اليهود والنصارى والمشركين المسالِمين أو الخصوم المحاربين.

فالمبادرة إلى العمل الإيجابي البنّاء أصل أصيل في الدين، حيث الحرص على ما فيه صلاح الخلق ونفعهم في مختلف مجالات الحياة. ومن العمل الإيجابي الإحسان إلى الخلق عموما والسعي لربط علاقة الأخوة الإنسانية مع الجهود الخيّرة، اقتداء بأخلاق النبي الكريم المنفتحة، فقد زار النبي ﷺ أبا طالب وهو في مرضه (وهو مشرك)، كما عاد الغلام اليهودي لما مرض[1].

إن خصوصية مكان تواجد المهاجرين المسلمين يفرض عليهم مراعاة جملة من القواعد التي من شأنها أن تعزز إسهاماتهم في حماية أوطانهم الأصلية وأوطانهم البديلة. ومن أهم تلك القواعد معرفة الحقوق والواجبات، فلا شك أن المسلمين مطالبون بمعرفة دقيقة بكل القوانين المتعلقة بوجودهم في بلدان إقامتهم، لا عذر لهم بجهل القانون، وإلا سيفسد حالهم وتضيع حقوقهم ويخبطون خبط عشواء في معاملاتهم، فالخبرة في هذا المجال أمر آكد ومطلوب، ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (فاطر: ١٤)، فهذه المعرفة سبيل احترام القانون وجني المكتسبات والتنبيه إلى الثغرات والسعي لتكييف العقبات ثم العمل على طرق سبل تعديلها جلبا للمصالح ودرءًا للمفاسد.

ومن تلك المبادئ الوفاء للوطن الحاضن والاعتراف له بالخير والجميل ومن الأمثلة التي تؤكد ذلك روعة وفاء المهاجرين للنجاشي وهم يفرحون بانتصاره على عدوّه حين نزل به رجل من الحبشة ينازعه في ملكه، فكان ذلك تعبيرا صادقا عن فضل النجاشي ووفاء لحمايته وعدله وكرمه.

١- أخرجه البخاري، كتاب المرضى، باب عيادة المشرك، حديث رقم: ١٣٥٦.

لقد ورد في السّنة النبوية الكثير من الآثار التي تحث المسلم أن يكون رسولا للخير أينما تواجد. وفعل الخير، في سياق حديثنا، يحقق مقصدين أساسيين؛ الأول: جلب النفع للخلق، والثاني: إعطاء صورة جميلة عن حقيقة الإسلام وحقيقة مضامينه، كما يعطي صورة إيجابية عن الهوية والدين والثقافة لدى المسلمين، وعن البلد الأصل وعن أهله.

إن المنظور المقاصدي للدين يسمح لنا بالقول؛ إن لمواطنة المسلمين في بلاد المهجر أبعادًا إيمانيةً وثقافيةً وحضاريةً، فالإخلاص للوطن جزء من الدين، ولقد ضرب لنا النبي ﷺ أروع الأمثلة في الارتباط النفسي بالوطن والإخلاص له. كما إن وجود المسلمين في بلاد الغرب يشكل فضاء واسعا لتحقيق البعد التعارفي والتعاوني، إذ إن حماية الوطن لا تتحقق فقط من خلال درء المخاطر عنه، وإنما تتحقق أكثر من خلال التعريف به، وإبراز محاسنه، وتجميل صورته والبحث عن السّبل القمينة للرقي بأوضاعه.

ولا شك أن سواعد المهاجرين قد ساهمت بشكلٍ كبير في التخفيف من جملة من المشاكلات الاجتماعية والاقتصادية في أوطانهم الأصلية. وذلك جزء من البعد العمراني الذي لا يغفل عن تنمية الوطن الأم، والقائم على المساهمة الفعلية بإخلاص وإتقان في كل الأعمال والتكليفات المنوطة بهم في بلدان إقامتهم والاقتباس منها ونقل تجاربها النافعة إلى بلدان الأصل لما وقفوا عليه من تقدّم في الصناعات والنُّظم وأساليب العيش وطرائق التفكير، وقد كان دأب النبي الكريم الاستفادة من خبرات الصحابة عموما وبخاصةٍ القادمين من بلاد أخرى في العديد من المواقف.

فالدين على العموم لا يمنع من النظر فيما عند الأمم الأخرى والأخذ بأحسنه فيما يفيد أوطاننا ويقويها ويعزز مكانتها في مختلف الميادين والمجالات من

المصالح الدنيوية عامة. كما إن ذلك جزء من البعد التكاملي الذي يمكّن من خلق توازن بين الاحتياجات المتبادلة بين الأوطان بما يجلب النفع العام ويحقق الأمن الشامل.

مضامين المواطنة من المنظور الإسلاميِّ
وأثرها في حماية الوطن:
قراءة تحليليَّة في وثيقة المدينة المنوَّرة

أ. شيخ أحمد جينغ
باحثٌ في مرحلة الماجستير، تخصُّص الحديث الشريف وعلومه (تشاد)

الحمد لله ربِّ العالمين، والعاقبة للمتَّقين، ولا عدوان إلا على الظَّالمين، ثمَّ الصَّلاة والسَّلام على النَّبيِّ الأمين، وعلى آله وصحابته ذوي الرِّضوان والتَّمكين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين، ثمَّ أمَّا بعد:

فإنَّ ورقة «مضامين المواطنة من المنظور الإسلاميِّ، وأثرها في حماية الوطن: قراءة تحليليَّة في وثيقة المدينة المنوَّرة» تروم معالجةَ الأزمة الأمنية التي تعاني منها بلداننا بالبحث عن الحلول في خضم بنود هذه الوثيقة، التي تعد من الوثائق التاريخية العتيقة؛ نظرا لما تحتويها من مبادئ ضابطة للعلاقات داخل الدولة والمجتمع، وبالتحليل المتفحِّص لموادِّ الوثيقة لرصدِ أهمِّ مضامين المواطنة المتاحة لحماية الوطن نقف على جملةِ مقوِّمات حضارية قادرة على إثراء ثلاثة أبعاد رئيسية تضمن السيطرةُ عليها ضبطَ الوضع الأمني في البلدان، وهذه الأبعاد المشار إليها منها ما هو معنيٌّ بحماية الوطن من الأخطار الداخلية، ومنها ما يهتم بحماية الوطن من الخطر الخارجي، ومن خطر العمالة والخيانة، وسأتحدث عن جانب حماية الوطن من الأخطار الداخلية أولا؛ لأنَّه من العسير جدًّا حمايةُ الوطن من الخطر الخارجيِّ أو أيِّ خطر أو تهديد آخر كان الوضعُ الداخليُّ يعاني من التَّهالك والتآكل والاهتزاز.

اتَّسم الوضع الدَّاخليُّ في المدينة المنوَّرة إبَّان هجرة المصطفى ﷺ بقدرٍ كبيرٍ من التَّعقيد في جانب حياتها الاجتماعية؛ فقد استحكمت العداوةُ ودوامةُ العنفِ في المكوِّنين الرئيسيين للعرب في المدينة قبيلتي الأوس والخزرج، أضف إلى ذلك طبيعة التَّوزيع السُّكانيِّ ووضعها الديمغرافي؛ فقد تألَّف مجتمع المدينة من المؤمنين من الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم، والمشركين ومن اليهود، لكنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام اتَّخذ سلسلة من السِّياسات الحكيمة نجحت في لجْم هذا العداء بين الأوس والخزرج، ومحاصرةِ إفرازاته عن طريق الإعلاء من شأن الأخوَّة والرَّابطة العقدية بين المسلمين التي تنصهر أمَامَها فوارقُ الجنسِ واللَّونِ وحواجزُ اللُّغة والقبيلة؛ وهذا ما جاء تقريره وتأكيده فيما بعد في البند (١)، والبند (٢) من

هذه الوثيقة التَّأسيسية ففيهما التَّنصيص على أنَّ «المؤمنين والمسلمين من قريش ويثربَ ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، إنَّهم أمَّة واحدة من دون النَّاس»، وقد أتت تلك السِّياساتُ أُكُلَها في رتْق ما انفتق من علاقة الأوس بالخزرج، ولم يتبق إلا إيجادُ وثيقة تحكم علاقة المسلمين ببقية المجموعات داخل إطار دولة المدينة المنورة، وهذا ما قام به النَّبي ﷺ فعلا بتأسيسه صحيفةً بالأقدار الكافية من السماحة والرفق والانفتاح على كل الفئات والديانات داخل هذا المجتمع الجديد المتعدد، فمضامين المواطنة التي لعبت دورا محوريًّا في استقرار الجبهة الدَّاخليَّة في هذه الدَّولة الوليدة تجسَّدت في الإلزام والالتزام بما يلي:

أولا: الإذعان لسلطة الدَّولة، وسيادة القانون: لقد أدرك النبيُّ ﷺ ثقلَ الموروث الجاهليِّ عند قبائل العرب، وما كانوا عليه من فرط التَّسيب والانفلات، وغلبة منطق الأَثَرة وقانونِ الغاب، وهي عادات جاهليَّة تركتْ بصماتها وسماتها في واقع ما خلَّفوه من تراث أشعاراً ونصوصًا أدبيَّة، وهي عادات لا تتفق مع دولة السَّلام والوئام، والشريعة والقانون التي كان النبي ﷺ ينشدها، لكنَّه تمكَّن من تشييد دولته، بتحديد النَّبي ﷺ القائدَ الأعلى وصاحبَ القرار والقضاء والتنفيذ فيها، ففي البند (٢٣) ما نصُّه: «وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإنَّ مردَّه إلى الله وإلى محمد ﷺ»، كما اعتُبرَت الشَّريعةُ الإسلاميَّة فيها مرجعيَّةً فقد نصَّ في البند (٤٢): «وأنَّه ما كان بين أهل هذه الصَّحيفة من حدَث أو اشتجار يخاف فسادُه فإنَّ مردَّه إلى الله وإلى محمَّد رسول الله ﷺ»، واعتَبرت الوثيقةُ الظلمَ بكل صوره وتجلياته محرَّما، وإمعانا في رفض الظلم فقد رفَضَتْ معه كلَّ صور التَّغطية على المجرمين، وأنَّه سلوك غير جائز يجلب لعنة الله وغضبه كما في البند (٢٢).

ثانيا: احترام حقوق الإنسان: لن تقوم للمواطنة قائمةٌ، ولن يكون للأوطان مستقبلٌ ولا تنميَّة، ولن تعرف الهدوءَ ولا الاستقرار إذا كانت حقوقُ الإنسان فيها مهضومةً؛ وقديما قيل: العدل أساس الملك، وإنَّ «الله ينصر الدولة العادلة وإن

كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة»[1]، لقد عمل النبي ﷺ على منح النَّاس حقوقَهم كاملةً غير منقوصة منذ طلوع فجر الرِّسالة، وأكَّدها في قانون دولته الوليدة، فنصَّ على جملة من الحقوق نذكر منها:

حقَّ الحياة: وأكبر مؤشر على هذا الحق في الدستور، تلك العقوبة التي تلحق من أزهق نفساً بريئةً؛ فقد نصت المادة (٢١) على «أنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بيّنة فإنه قود به، إلا أن يرضى ولي المقتول بالعقل»، وقوله: (مؤمناً) لا يفيد أنَّ حقوق غيرهم غير مصونة، أو أنَّ المؤمن إذا قتل ذميًّا أو معَاهداً لا يقتل به، والذي أميل إلى ترجيحه في هذا النِّقاش الفقهي هو رأي الحنفية ومن وافقهم[2]، وليس رأيَ الجمهور القائل بعدم جواز قتل المؤمن بالكافر مطلقا[3].

حقَّ حرية الاعتقاد: أسَّست وثيقة المدينة المنوَّرة لهذا الحق، وكفلته لجميع المواطنين من مختلف توجهاتهم ودياناتهم؛ فقد ورد في المادة (٢٥): «أنَّ يهود بني عوف أمّة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنَّه لا يوتغ[4] إلا نفسه وأهل بيته»، ومما هو جدير بالتنبيه في هذا السياق أنَّ المقصود من حرية الاعتقاد هو ترك الناس يختارون الإسلام أو ما عاداه دون إكراه؛ ذلك لأنَّ الإكراه لا يؤسِّس عقيدةً مقبولةً في الإسلام، وإنما يأتي بمنافقين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر. هذا، وقد كَفَلَتْ وثيقة المدينة حقوقا أخرى، مثل: حقِّ المساواة أو العدالة أمام القانون، والحقِّ في حرية الفكر والتعبير عن الرَّأي بضوابطه، والحقِّ في التَّكافل الاجتماعيِّ، والدَّعم الماليِّ للمعوَزين، وفداء الأسرى، والمساعدة في ديَّة القتيل، وقد شغل هذا الحقُّ أغلب بنود الوثيقة.

١- هذه العبارة ترد في بعض كتب شيخ الإسلام بصيغ تفيد أنَّه ينقلها عن غيره، ينظر: ابن تيمية، الحسبة في الإسلام، ص: (٧).

٢- ينظر: الكاساني، بدائع الصنائع: (٧/ ٣٢٧).

٣- ينظر: ابن قدامة، المغني: (٨/ ٢٧٣).

٤- أي يهلكه. يقال: وَتِغَ، وَتَغاً، ينظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (٥/ ١٤٩).

ثالثا: طاعة ولاة الأمور، والابتعاد عن صور العصيان المدنيِّ: فمن أكبر مهدِّدات الأمن الدَّاخليِّ لجلبها الشرور والفتن إلى أوطاننا فتنةُ الخروج على ولاة الأمور والنِّظام الحاكم بقوَّة السَّيف كما هو منهج الخوارج، ويأتي في حكم الخروج بالسِّلاح ما انتشر من الثورات والمظاهرات؛ لأنَّها من أسباب الخروج بالسيف، والوسائل لها أحكام المقاصد كما تقول القاعدة الفقهيَّة[1]، وليعلم أنَّ واجب السَّمع والطَّاعة لولاة الأمور فيما أحبَّ المرءُ وكره وفي المنشط والمكره يعدُّ من مضامين المواطنة التي حافظت عليها وثيقة المدينة وهو نقيض التمرُّد والعصيان المدنيِّ، فقد أكَّدت في عدد من البنود حرص القيادة على تنفيذِ ما تضمَّنته الوثيقة، وعدم الخروج عليها بمخالفتها، وخيَّرت بين البقاء في المدينة مع الالتزام بالوثيقة، أو الخروج منها كما في البند (٤٧)، ثمَّ إن الناظر في الأسباب التي أدَّت إلى توجيه ضرباتٍ عسكريَّة لقبائل اليهود الموقِّعين على الوثيقة يجدها بسبب نقض ما منعت منه، فالطَّاعة وعدم العصيان من مضامين المواطنة المركزية، وقد تضافرت الأدلَّة من الكتاب والسُّنة على حرمة الخروج، وأجمع على ذلك أهل السنة والجماعة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «ولهذا كان المشهور من مذهب أهل السنة أنَّهم لا يرون الخروجَ على الأئمة وقتالَهم بالسَّيف وإن كان فيهم ظلمٌ كما دلَّت على ذلك الأحاديثُ الصَّحيحة المستفيضة عن النَّبي ﷺ؛ لأنَّ الفساد في القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتن، فلا يُدفع أعظمُ الفسادين بالتزام أدناهما، ولعله لا يكاد يعرف طائفةٌ خرجت على ذي سلطان إلا وكان في خروجها من الفساد ما هو أعظم من الفساد الذي أزالته»[2].

كثيرة هي تلك المخاطر التي تكون الأوطانُ عرضةً لها من العدو الخارجي، وخصوصا عندما تزخر بالخيرات والموارد الطبيعية؛ وقد قيل: «إِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ

١- ينظر: ابن عبد السَّلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنام: (١ / ٥٣).
٢- ينظر: ابن تيمية، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية: (١ / ٥٣).

مَحْسُودٌ»[1]، فيتوجَّب على الدَّولة بكل منسوبيها أن يقفوا سدا منيعا أمام تلك الأخطار الخارجية، وهي وإن تعدَّدت صورها وألوانها إلاَّ أنَّي سوف أتحدَّث عن خطرين منها، هما: خطر الاجتياحات العسكريَّة، وخطر الحملات الإعلاميَّة. فالوطنية والانتماءُ الصَّادق للوطن يفرض حيالهما ما يلي:

الوقوف في وجه الاجتياح العسكريِّ: أدرك النبي ﷺ من يومه الأوَّل في المدينة أنَّ لدولته الوليدة أعداءً متربصين، الأمرُ الذي يحتِّم عليه أن يترك في عين الاعتبار وهو يصوغ بنودَ هذه الوثيقة عقدَ ميثاقٍ وطنيٍّ يلزمُ جميعَ المواطنين الدفاعَ عن بيضتها من أيِّ تهديدٍ أو غزو خارجيٍّ، وقد جاء ذلك صريحا في أكثر من بند من بنود الوثيقة؛ ففي فقرةٍ من البند (٣٧): «وأنَّ بينهم النَّصر على من حارب أهل هذه الصَّحيفة»، ولما كانت كلفة الحروب باهظةً تحتاج إلى ميزانية كبيرة، سواء في ذلك الحروب الدفاعية أو الهجومية، فقد نصَّ الدستور على وجوب التزام اليهود والمسلمين بتغطية نفقات الحروب الدِّفاعية عن المدينة[2]، فقال: «وأنَّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين» كما في البندين (٢٤) و(٣٨).

فنخلص مما سبق أنَّ الصَّحيفة أطاحت لنا مقوِّماتٍ مهمةً لحماية الوطن من أكبر خطر قد يتهدَّده وهو الغزو العسكري، ويتمثل في وجوب الخروج للدِّفاع عنه من جميع أطياف الشعب، وإرثنا الفقهيُّ دائمُ الإمداد بنصوص تصون أمن الوطن؛ فقد عُدَّت حمايةُ الوطن في تلك الكتب فرضَ عين، وتتأكد في حال الإغارة المباغتة عليها فيلزم على أهل البلدة فمن يليهم النَّفر دفاعا عنها، ولخطورة الهجوم المسلح، وضرورة حماية الوطن منه فقد أوجب بعضُ الدول ما بات

١- جزء من قول منسوب إلى النبيِّ ﷺ، وتمامه: «اسْتَعِينُوا عَلَى قَضَاءِ الْحَوَائِجِ بِالْكِتْمَانِ، فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ»، وفي لفظ: «اسْتَعِينُوا عَلَى إِنْجَاحِ الْحَوَائِجِ بِالْكِتْمَانِ، فَإِنَّ كُلَّ ذِيَ نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ»، وكل طرقه واهية، فقد حكم عليه الإمامَ أحمد ويحيى بن معينَ بأنَّه «موضوعَ ليس له أصل» كما نقله ابن الجوزي في كتابه الموضوعات، كتاب الصدقة: (٢ / ١٦٦).

٢- هذا في جهاد الدفع، أما جهاد الطلب فلا يجوز الاستعانة فيه بالكفار على الرَّاجح من قولي العلماء.

يعرف بالتَّجنيد الإجباري وبالأخصِّ في فترات الحرب[١]، ثمَّ إنَّ الخدمة العسكرية تعتبر علامةً فارقةً للمواطن الصَّادق في ولائه لوطنه عن غيره؛ وقد حدَّدت موسوعةُ السِّياسة صفةَ المواطن بأنَّه: «الذي يتمتَّع بالحقوق، ويلتزم بالواجبات التي يفرضها عليه انتماؤُه إلى الوطن، وأهمَّها واجبُ الخدمة العسكرية، وواجبُ المشاركة المالية في موازنة الدولة»[٢].

الوقوف في وجه الحملات الإعلاميَّة: لنيتتوقف الأعداءُ عن فعل كل ما يمكن لإسقاط الدول المعادية، وإخفاقُهم في الاجتياح العسكريِّ لن يثنيهم، ولن يكون نهاية الطريق، فهناك أسلوبٌ آخرُ لا يقل ضراوةً وخطورةً عن أسلوب الضربة العسكريَّة، إنَّه حملات التشويه والحرب الإعلاميَّة، لقد أدرك النبي ﷺ خطورة الحروب عموما والحروب الإعلامية خصوصا، فضمَّن بنود الميثاق موادَّ تعمل على إعاقة قريش من ممارستها ضد الدولة الناشئة عن طريق تجفيف ينبوع هذا الإعلام المفترض، وتحطيم أركانه، فقد منع عليه الصَّلاة والسَّلام اليهود في الوثيقة من الخروج من المدينة، أو الاتصال بقريش أو بغيرهم بأيِّ شكل من الأشكال إلا بمعرفته صلى الله عليه وسلم وإذنه[٣]، ومعلوم أنَّه لا إعلام بلا تواصل واتِّصال بين طرفين مرسل(قرشي)، ومستقبل(مدني) وخصوصا في تلك الحقبة التي كانت الأجهزة فيها بدائيَّة وغير متطورة كما هي اليوم، فقد جاء في البند (٣٦ب): «وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ»، ومنع من إيواء المجرمين، أو التستر عليهم كما في المادة (٢٢): «وأنه لا يحلُّ لمؤمن أقرَّ بما في هذه الصَّحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا أو يؤويه، وأنَّ من نصره، أو آواه، فإنَّ عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل»، والمحْدِثُ هنا وإن كان يطلق على كل من اقترف ما يوجب حدًّا[٤] إلاَّ أنَّ ذلك لا يمنع من دخول

١- ينظر: الموسوعة الحرة (ويكيبيديا)، على الرَّابط: https://ar.m.wikipedia.org/wiki/ ، بتصرف يسير.
٢- عبد الوهاب الكيالي، وأخرون، موسوعة السِّياسة: (٦ / ٣٧٣).
٣- ينظر: مجموعة من الباحثين بإشراف معالي الدكتور / صالح بن عبد الله بن حميد، نضرة النعيم، ص: (١ / ٢٦٩).
٤- ينظر: أبو عُبيد القاسم بن سلاّم، غريب الحديث: (٣ / ١٦٨)، مادة (صرف).

أصناف المجرمين في مشمولاتها فيحرم إيواءُ الأفراد المنتمين إلى الكيانات المعادية للحيلولة دون تسريبهم ما يضر بأمن الدولة إلا بضوء أخضر من الدولة نفسها.

هناك خطر لا يمكن اعتباره داخليًا ولا خارجيًا صِرفاً، وإنما هو خطر مركَّب يتشكَّل من مجموع ذلك؛ وذلك بوجود مؤامرة خارجيَّة ضدَّ الدولة يتم فيها توظيفُ عناصر داخليَّة، ويتمثل في التورط بالغدر والعمالة للقوى الخارجيَّة، ومن يَقلبُ هذه الوثيقة لا يستريب في أنَّها أحرزت براعةَ اختراع، وحازت سبقًا حضاريًا بالرُّؤية الأمنية التي قدَّمتها من أجل الالتفاف على هذا الخطر الدَّاهم؛ فقد كان التَّحذير من هذه الجريمة واضحًا في عدد من بنودها، ومن عمق فقهه عليه الصَّلاة والسَّلام لأعقد المسائل الأمنيَّة حرصه على أن يَلُفَّ أمن المدينة أمامَ سيول الخيانة والغدر بسياج منيع من موادٍّ ونصوصِ هذا الدستور؛ لعلمه بخطر اليهود أحدِ أطراف الميثاق، وأصالة سجيَّة الغدر وحياكة المؤامرات فيهم، فقام بخطوتين وقائيتين: الخطوة الأوَّلى: المنع من التواصل مع الكيان المعادي(قريش) إلا بمعرفته صلى الله عليه وسلَّم وإذنه، كما جاء صريحا في البند (٣٦ب). الخطوة الثانية: تضييقُ دائرةِ مشروعيةِ إعطاءِ الإجارة[1] للأجانب، وجعلُهُ وقفًا وحصراً على المسلمين، كما في البند (٢٠ب) «وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن».

وممَّا سبق بيانُه ندرك القيمة الأمنيَّة التي زودتنا بها الوثيقة في هذه البنود، بتأمين حلٍّ فعَّال لإشكاليَّة العمالة للكيانات المعادية؛ فالتَّخابر مع أيَّة قوَّة معادية للدَّولة، أو التَّواصل معها؛ لتأدية دور ما فيه إضرار بالوطن بوجه من الوجوه تعدُّ خيانة عظمى وجريمة في الشَّريعة وفي القوانين والأعراف الدوليَّة المعاصرة، وطعن للوطن في مَقتَل، ويجب أن يكون واضحا أنَّه من غير المقبول تقديمُ أيِّ مبرر أو عذر بإزاء هذا التَّواصل في حالة حرب، أو خصومة سياسيَّة، أو توتر

١- الإجارة هي: «دخول دار الغير (أي إقليمه) بأمان، مسلما كان الدَّاخل أو حربيا»، ينظر: الموسوعة الفقهية: (٣/ ١٦١).

بين الدَّولتين مالم يكن هناك تفويض رسميٌّ من الدَّولة، ثمَّ إنَّ حالة الصداقة بين الدول وما يشبهها ليست استثناءً من قاعدة المنع هذه؛ والسَّبب ببساطة أنَّ مظنة الإضرار بالدَّولة والتَّعريض بمصالحها للخطر ما زالت قائمةً؛ لما عُلِمَ من أنَّ ظاهرة التَّجسُّس بين الدُّول أضحت خياراً متحكِّماً في أجندة السِّياسات الخارجيَّة، ولن تتوقَّف دولةٌ عن ممارستها حتى مع الدُّول الحليفة والصَّديقة، وفي الواقع الدوليِّ مئاتُ الأمثلة من حالاتِ التَّجسُّسِ من هذا النَّوع، ثمَّ إنَّه يجب على الجهات المختصَّة سنُّ قوانين رادعة عن هذه الفعلة الشنيعة؛ ويساعد على ذلك رحابة هذا المجال لأيِّ تحرُّك أو مبادرة قانونيَّة؛ لأنَّ باب التَّداولات الفقهيَّة حول أنسب عقوبة لردع هؤلاء الخونة ما زال مُشْرعاً، والفقهاء في المدوَّنات الفقهيَّة وإن لم يجمِعُوا على عقوبةٍ بعينها إلا أنَّهم لم يتهاونوا مع هذه المشكلة؛ لذا نجد منهم من يميل إلى قتل الجاسوس، ومنهم من ترك الأمر لسياسة الإمام.

وأعود لأؤكد على قبح هذه الفعلة، وكلِّي ثقة أنَّه لن يُقدِم عليها إلا من يعانون من أمراض نفسيَّة، أو تشوُّهاتٍ في فِطَرهم، لقد أدرك أولئك الذين ساهموا في قهر الشعوب، وتلطخت أيديهم بدماء الأبرياء قيمةَ الأوطان، وقُبْحَ بيعها، فتجد في كلماتهم المأثورة يوجِّهون سهامَ النَّقد وعتباً مباشراً على من تعاونوا معهم في بيع أوطانهم في سوق النَّخاسة؛ فهذا نابليون بونابرت، أحد الطغاة ممن دمَّر أوطانا يحملُ على خونة الوطن ضارباً مثلا، في مقولة سارت بها الرُّكبان، عندما قال: «مَثَلُ الذي خان وطنه وباع بلاده، مثل الذي يسرق من مال أبيه ليطعم اللُّصوص؛ فلا أبوه يسامحه، ولا اللِّص يكافئه»[1]، ولله درُّ القائل: «وطن لا نحميه لا نستحق العيش فيه» أصدق كلمة، وأبلغها في التعبير عمَّا يستحقه أغلى ما يملكه الإنسان بعد الدين – وهو الوطن – من ضروب الوفاء والتَّضحية.

١- أخذا من موقع موضوع، ضمن منشور بعنوان: «أقوال نابليون»، على الرَّابط: https://mawdoo3.com/

الوطن والوطنيةُ في السنّة النبوية:
حتمية الانتساب ومقصدية الحماية
دلالات استقرائية في نصوص السنة وفقهها

د. عبد الله عبد المؤمن

أستاذ الفقه وأصوله بجامعة ابن زهر بالسمارة (المغرب)

إن حقيقة الحماية ثاوية في المقاصد الكبرى للانتماء، بل هي من أولويات الانتساب الوطني، وكلاهما يُسندهما البعد الجبلي قبل الشرعي والسلطاني، وما التأسيس للأبعاد الانتسابية استقراء من نصوص السنة النبوية

كما ستأتي - إلا حافز على استخلاص ما تصبو إليه من أركان الحماية من جهة الوجود والعدم، وفي البعدين المادي والمعنوي.

أما الحماية من جهة الوجود، فيُمكن اعتبار المواطنة والارتباط الذاتي الوجودي من مكونات الفطرة ومقتضيات التكليف الذي أرشد إلى مراعاة هذا الحق تحقيقا لمقاصد الوجود الإنساني على وجه الأرض، إذ لا يمكن الانفكاك عنه، والغاية من وجود الإنسان: العبادة والعمارة. وليس من سبيل إلى تحقيق تلك المقاصد دون توفر وسائلها، ومن ثم اقتضى الأمر استمدادا من مقتضيات الفطرة والتكليف ترسيخ هذا الحق الشرعي بالحفظ والصيانة والرعاية. ومن ثم فالرعاية والحماية من جهة الوجود تقتضي حفظ ضروريات المواطنة: الدين والنفس والعقل والنسل والمال، بغض النظر عن هوية المواطن ودينه، وهو بالنسبة للمسلم على المسلم أحرى وأولى، والأصل فيه حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «**كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ مَالُهُ وَعِرْضُهُ وَدَمُهُ**»[1].

وأما الحماية من جهة العدم، فأساس هذا الأمر ما شرعته السنة النبوية من وجوب دفع الصائل وحماية الثغور وتشريع الجهاد إن دعت إليه ضرورة الاستغلال والاستيطان، وما توجّب المقاومة والكفاح إلا بسبب بغية المستعمر والمستوطن «التحويل عن النموذج الوطني الذي لا يوافق على اقتباس إلا إذا كان متفقا مع مقياس العقيدة، لينتصر في النهاية الوطني على غيره»[2].

١- أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله، حديث رقم: ٢٥٦٤.
٢- الفاسي، علال، دفاع عن الشريعة: ٣٥، وانظر ص ٤٧.

وأما الحماية في البعدين المادي والمعنوي، فيشمل الأول: الدفاع وتحقيق الأمن، وبسط الحقوق ومقابلتها بالخدمة.

ويشمل الثاني: المحافظة على الوحدة، وبث قيم الخير والجمال، وحفظ الهوية، والسيادة الوطنية.

وقد استبطنت نصوص السنة النبوية معاني سامية في أحقية الانتساب الوطني وضرورته بوصفه من الفِطَر المركوزة والروابط اللصيقة بالمنشأ والمُقام، وللدلالة على عمق الصلة وغورها انتسابا وانتماء، وهو ما انبنى عليه الفقه السياسي في استنباط ما يناسب وحدة المجتمعات وحفظ كيانها، ولعل أسمى تنبيه إلى أهمية هذا البعد الوجداني في قضية الانتساب هو ما اقتضاه فقه المفارقة وهجرة الأوطان في السنة النبوية ومدى ضبطه وإحكامه، بل لربما كانت التنبيهات الأولى في حديث نزول الوحي في قوله عليه الصلاة والسلام: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي» والذي تأوله بعض العلماء بهجرة الموطن والمقام، ثم استعانة النبي صلى الله عليه وسلم لشدة الخطب وهول المفارقة على النفوس بالدعاء لما فارق الصحابة رضوان الله عليهم موطنهم الأول حين جاء الأمر الإلهي بالهجرة والمفارقة.

ومن هنا تأسست الأبعاد الرئيسية لحقيقة الانتساب الوطني التي نبهت إليها السنة النبوية ودرج عليها فقهها، ومنها:

البعد الوجداني: ولعل النسبة إليه في حقيقة الانتساب باعثة على تعلق القلوب بالمواطن، وميل النفوس إلى هواها، وهو مسند لا محالة للتشبث بالأرض والكيان، وحمايته ورعايته بما يضمن وحدته واستقراره. ونُصوص السنة النبوية في هذا المعنى كثيرة على جهتي التصريح والتلويح، والتعبير عن ذلك فيها ليس فقط إبان الهجرة ومفارقة الوطن الأم، بل حتى بعد الاستقرار مما دلّ على أنّ له بعدا معنويا في التئام القلوب على حب المواطن التي تحن إليها، وتلفي بها قرارها.

البعد العقدي: والقصد الانتماء الجامع للخلق على الحق، ولو لم يكن إلا هذا البعد في تسنيد دعامات الوحدة والرعاية والحماية لكفى، ومن ثم كان الضابط الموضوعي لمعنى الوطن هو ما اجتمعت فيه الأبعاد كلها، وهو ما عبر عنه بعض المعاصرين: «الوطن ليس هو الأرض وحدها، ولكنه الأرض وما فوقها، وما يعيش فيها من شعب، ومن عقيدة، ومن شرائع، ومناهج للحياة، المجموع الذي يكون النموذج الذاتي للوطن والذي يخلق المواطن على صورته، هذا المواطن الذي يسهل أن يتآخى مع النماذج المماثلة له ويمتزج معها، ولكن من الصعب عليه أن يعيش في جو خارج عنها، أو يندمج فيما هو يكون من نماذج مناقضة لها»[1].

ومن ثم فمراعاة الوطن الاعتقادي باعث على حفظ الوطن الترابي، ولذا فاستنادُ الوطنية بوصفها فرعا إلى أصل العقيدة هو الضامن الوحيد لوحدتها وبقائها ونفوذها، واستصلاح الخلق بتدبير أمرهم وجمع كلمتهم وصلاح حالهم ومعاشهم هو مقصد التشريع السياسي الجامع بين حراسة الدين والدنيا، وعليه فبناء الوطن ومباديء الوطنية على هذا الأساس ضامن لصلاح المواطن وكمال حاله، ومنشيء لنموذج نفسي ينبثق من روح الجماعة تمتزج فيه العقيدة بالوطن والكيان. وقد تجسَّد هذا الأمر في الوظيفة النبوية قبل نشوء الدولة وبعدها، في بناء قيم المواطنة وإصلاح حال الرعية بتعليم العقيدة الصحيحة والتعاليم السمحة ونبذ كل أشكال الانحراف عقيدة وسلوكا.

البعد الكَياني: وقد نبهت السنة النبوية إلى هذا المعنى من خلال إيجاد الظروف الملائمة للقرار والاستقرار، وأومأت إلى المقصد العام من الوجود وهو الاجتماع والوحدة، ويمكن نعته بالكيان المعنوي، ثم تحقيق الضروري من قوام المعاش حتى تتحقق واجبات المواطنة الحقّة، فيسودَ الارتياح والإخاء، والقصد

١- الفاسي، علال، دفاع عن الشريعة، ٣٨.

كما عبّر عنه الماوردي: خِصْبُ دَارٍ تَتَّسِعُ النُّفُوسُ بِهِ فِي الْأَحْوَالِ وَتَشْتَرِكُ فِيهِ ذُو الْإِكْثَارِ وَالْإِقْلَالِ. فَيَقِلُّ فِي النَّاسِ الْحَسَدُ، وَيَنْتَفِي عَنْهُمْ تَبَاغُضُ الْعَدَمِ، وَتَتَّسِعُ النُّفُوسُ فِي التَّوَسُّعِ، وَتَكْثُرُ الْمُوَاسَاةُ وَالتَّوَاصُلُ. وَذَلِكَ مِنْ أَقْوَى الدَّوَاعِي لِصَلَاحِ الدُّنْيَا وَانْتِظَامِ أَحْوَالِهَا، وَلِأَنَّ الْخِصْبَ يَئُولُ إِلَى الْغِنَى وَالْغِنَى يُورِثُ الْأَمَانَةَ وَالسَّخَاءَ.

كلّ هذه الأبعاد الثلاثة تُسند حقيقة الحماية بناء على التعلق بالأوطان، وصدق الانتساب، إذ لا يُستساغ شرعا ولا عقلا إن توفرت دواعيها أن ينأى المواطن عن هذا المعنى المُتجذّر في النفوس، كيف وقد أرشدت السنة النبوية إلى تفصيل موجبات لحماية ومتعلقاتها، ابتداء من المعنى النفسي، فالاجتماعي، فالاقتصادي، فالتربوي، فالتواصلي الحضاري في الداخل والخارج، لأن إقامة بنيان المواطنة الصادقة لا ينفك عن دور المواطن ذاته في تبني قيم المعرفة، والتربية، والتوعية، والتعليم، كما لا ينفك عن دور الراعي والرعية معا في تحقيق الأمن الاجتماعي والاقتصادي وكل ما يحقق معاني الثبات والاستقرار.

فتلك المعاني لم تكن نابعة إلا من تشريع سام، كامل، حاو لمصالح المعاش والمعاد، يجعل التدرج في بناء المعاني في النفوس أولا ثم تحققها في ظاهر الوجود ثانيا، وفق سنن الله في الكون والإنسان وهو الأصل الأول واللباب، حتى تتحقق المقاصد الأصلية من الخلق في بعديها التعبدي، والإعماري.

فإذا ما خلصنا إلى تفصيل معاني الحماية سوف نجدها مُستبطَنة في مقاصد الانتماء، وغاياته الكبرى، وهي معان أراد الهدي النبوي ترسيخها في النفوس من خلال تشريع استوعب التصرفات الهادية في بعدها التبليغي والسياسي والإرشادي الإصلاحي، لنجدها ماثلة في قالب منظومة متكاملة يسلس استيعابها وتطبيقها على عوالم متعددة، وفي ظروف متغايرة.

وأول المعاني **تحقيق الوحدة الوطنية**، وحقيقة الوحدة مع صدق المواطنة معنى متجذّر في نصوص الشريعة ومقاصدها، ولا يتوصل إلى تحقيق معاني الأخوة الإيمانية والتي جعلها الشارع من المقاصد الكبرى إلا بهما، والحمايةُ نابعة عن هذا المعنى، المُسند لقوة الاتحاد، وتمام التساند.

وثاني المعاني، **ترسيخ القيم الوطنية**، والتمكين الأخلاقي في النفوس والمجتمعات هو المقصد الأسمى من الاجتماع، وكل ما ثبت استقراره بالفطر السليمة إلا وانعكس على الطبع، والغير، والزمان، والمكان، وكل مصر يشرف بأهله، وبقيمهم.

وثالث المعاني، **تثبيت دعامات السيادة الوطنية**، وقد أرشدت السنة النبوية إلى تحقيق ذلك عن طريق توثيق العرى بين الراعي والرعية، وتحقيق معنى الكرامة الإنسانية، وتمتيع المواطن بالحقوق اللازمة، وليست السيادة مجرد شعار وإنما هي ممارسة، وقدرة تفاوضية للدفاع عن الحقوق، والمصالح.

ورابع المعاني، **الدفاع الوطني**، وتتجلى فيه بجلاء معاني الحماية المادية للثغور وحراستها، وقد أقرّت السنة النبوية مبدأ الدفاع عن الحوزة والثغور تفعيلا لحماية الدين وحراسة الأوطان، وهذا الباب وإن كان متفرعا عن تشريع الجهاد، لكن يختص إلى حدّ ما بما تمليه روح المواطنة من البناء المادي، والإعداد الروحي للتعلق بالكيان، ودار المقام والانتساب.

وخامس المعاني، **حفظ الذاكرة الوطنية**، والمقصود الموروث الثقافي والحضاري، وهو من ثوابت الوحدة في حماية التراث من الدخن، والقصد هنا الحماية المعنوية، وصيانة الأصول، وتأصيله من السنة من خلال دفع الشبه، ورعاية الموجود وصيانته.

وسادس المعاني، **تحقيق الأمن الوطني**، وتجليه في استلهام منزع الوطنية من البعد النفسي، والتعلق الوجداني، وهو باعث ابتداء على استيحاء معاني الاستقرار والتساكن، فلا خلاف أنه كلما سكنت النفوس واطمأنت تحقق الاستقرار والأمن، وهنا يتكامل الأمن الحسي والمعنوي، والفردي والجماعي.

وسابع المعاني، التأسيس لمعنى التعاون في ترسيخ **الخدمة الوطنية**، وتحققها مفض إلى حماية تليدة، وحفظ الحرمة يقابل بكريم الخدمة، وكلما حصل التعاون والتآزر تحصلت حراسة المباني والمعاني.

وثامن المعاني، التمتيع **بالحقوق الوطنية**، وحقوق المواطنة لصيقة بتطبيق العدل، ومن ثم فلا مجال لتوفرها مع الظلم والاستغلال والفقر وما إليه، والتشريع الإسلامي حاصر تلك المظاهر الهدامة بما لا يُحصى من الأحكام والقوانين، وكل ذلك يقابله المواطن بصدق المواطنة وتحقيق معنى الاستخلاف، وبث قيم الخير وخِلاله.

إن استلهام المعاني السامية الآنفة الذكر من نصوص السنة وفقهها ينبغي أن يوضع ويهيأ مشروعا تربويا لتوعية الناشئة، وتلقين معاني الانتماء وحتمية الانتساب ربطا بالأصول التشريعية في مجالس الدرس والتحصيل، حتى ننشئ جيلا وطنيا ملتزما وملتحما. وإن التربية النبوية على قيم المواطنة سبيل الرقي بمجتمعاتنا، وبث قيم الأمن والاستقرار ونبذ العنف والتعصب، وهو من البلاغ المبين الذي تفتقر الأمم في واقعنا إليه.

أُسُسُ حمايَةِ الوَطَنِ ومُقَوِّماتُها فِي السنّةِ النَّبويةِ

د. أيمن جبرين عطا الله جويلس
أستاذ الفقه المساعد / كلية الشريعة – جامعة الخليل (فلسطين)

يهدف البحث إلى إظهار دور السنة النبوية في الاهتمام بالوطن: حفظاً وتمكيناً ورفعة وتنمية وصولاً إلى منظومة متكاملة من مقومات حماية الوطن في السنة النبوية من خلال تنزيل نصوصها على الواقع المعاصر، واستنباط المقومات الداخلية والخارجية لحماية الوطن من هاتيك النصوص.

أشار البحث إلى مفهوم الوطن وإلى جوهر المواطنة على أنّهُمَا: المشاعر والروابط الفطرية التي تنمو بالاكتساب لتشد الإنسان إلى الوطن الذي سكنه ونشأ وعاش فيه.

وشواهد الاهتمام بالوطن في السنة النبوية كثيرة جلية واضحة منها: استنكار النبي ﷺ واستغرابه أمام ورقة بن نوفل من إخراج قومه له من أرضه، والتصريح بحب الوطن وبيان فضله، والدعاء بحب المدينة وصرف الأوبئة عنها، والدعاء على الكفار الذين أخرجوا المسلمين من أرضهم، ومشروعية الانتفاع من تراب أرض الوطن في العلاج.

وقد تمثلت أسس حماية الوطن بمقومات داخلية ومقومات خارجية، وتمثلت المقومات الداخلية بالمقومات الدينية والإنسانية من مثل: تنمية الوازع الديني، و الخطاب الديني الوسطي، واحترام الكرامة الإنسانية فالمواطن حين يلتزم بالقانون ويحمي مقدرات الوطن بدافع ديني ومسؤولية ذاتية نابعة من إيمانه بالله تعالى يجعل الوطن والمواطن في أمان من الفوضى والعبثية والانفلات وضياع المقدرات، ومن هنا دعا النبي ﷺ إلى تنمية الوازع الديني في جميع الممارسات والعلاقات اليومية الجهرية والعلنية الفردية والجماعية والمؤسساتية، وذلك من خلال مراقبة الله تعالى في كل شان. ومستويات الخطاب الديني المعتدل تبدأ من الأسرة فالمدرسة فالمسجد فالمجتمع ؛ مؤسساته الإعلامية والدينية والثقافية العامة والخاصة، كما أن شعور المواطن في وطنه بكرامته وإنسانيته يعزز روح الانتماء لوطنه انتماءً يدفعه لحبه والتفاني في خدمته والدفاع عنه ضد أي مؤامرة أو اعتداء

ومن المقومات الداخلية: مقومات علمية معرفة: كالاهتمام بالعلم والعلماء فإنه يرفع من شأن المجتمع، وينهض بالوعي الديني والمجتمعي، ويحمي الوطن من هجرة العقول، ومن الأمية ومن التخلف، ولهذا حرص النبي ﷺ حتى في وقت حاجته للمال في مسألة فداء الأسرى على التعليم مقابل الفداء، وفي الجانب الإعلامي «نجد الوصية بالتقوى هي السمة البارزة المتكررة في خطبه ﷺ؛ لأن من ثمرات التقوى اجتناب الايذاء والضرر والتعدي على المواطنين: أرواحهم أو أموالهم أو أعراضهم، أو التعدي على ممتلكات الوطن وثرواته، ومن التقوى أيضاً اتخاذ التدابير القانونية الكفيلة بالحفاظ على أمن الوطن وسلامة المواطنين، ومن التقوى العمل الجاد على محاربة البطالة والجهل، وتوفير المناخ الملائم للتعلم والازدهار، ومستند هذه الواجبات الدينية الوطنية الوصية بالتقوى المتكررة في جميع خطبه ﷺ.

ومن المقومات الداخلية: مقومات وطنية كالولاء والانتماء للوطن حتى يشعر كل مواطن أنه مسؤول عن خدمة وطنه، والعمل على تنميته وحماية مقوماته الدينية واللغوية والثقافية والحضارية، واحترام القوانين التي تنظم علاقات المواطنين فيما بينهم، ولهذا جعل النبي ﷺ آية الانتماء للوطن تحمل المسؤولية، ومن أرقى مظاهرها العمل التطوعي والتكافل الاجتماعي، ومن ذلك في البخاري قوله ﷺ: «إِنَّ الأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الغَزْوِ، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ»، ومن أهم صور الانتماء للوطن ترك العصبية الجاهلية للقبيلة أو الحزب أو العرق، وفي البخاري: «دَعُوهَا، فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ».

ومن المقومات الوطنية: التسامح والتعايش بين جميع فئات الوطن وطوائفه، وكتابة صحيفة المدينة المنورة هي خير مثال على تقبل المجتمعات المتعددة الديانات، هذه الصحيفة مثلت دستوراً أساسه العدل والأمن وسيادة القانون.

ومن المقومات الداخلية: مقومات سياسية كطاعة ولي الأمر وسيادة القانون وحفظ النظام؛ إذ لا يستقيم المجتمع دون نظام يحكمه، وحاكم ينظمه ويقوده، ولا تستقر العلاقات السياسية والاجتماعية والحقوقية إلا باحترام المواطنين للقانون المنظم لشؤونهم، والمبدأ العام لمشروعية سن القوانين وفرض النظام هو حفظ مقاصد الشريعة الشاملة للدين والنفس والعقل والنسل والمال، ومن هذه الأصول قوله ﷺ في خطبة الوداع عند مسلم: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا». ومن أهم طرق حفظ الأمن احترام سيادة القانون؛ وقد تمثل ذلك في عهده ﷺ بالوثيقة (وثيقة المدينة المنورة) ومن طرقه أيضاً الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فالوطن كالسفينة، والحفاظ عليها مسؤولية الجميع ولو ترك من يعبث فيها لهلكت السفينة ومن فيها، وهذا من أوضح الأمثلة النبوية على أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حماية الوطن ودرء الأخطار عنه.

ومن أهم المقومات الداخلية: وحدة المجتمع وتماسكه، ومن شواهدها النبوية أنه ﷺ لما وصل المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار من جهة، وكتب الوثيقة بين المسلمين واليهود والتي تحقق التماسك الوطني والاجتماعي من جهة أخرى، جاء في متن الصحيفة: «هؤلاء المسلمون جميعاً على اختلاف قبائلهم يتعاقلون بينهم، ويفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين».

ومن المقومات الداخلية: مقومات قانونية: كإرساء قواعد العدالة واحترام حقوق جميع المواطنين وفق الدستور ومحاربة الظلم والظلمة بغض النظر عن اللون أو العرق أو الجنس أو اللغة، وفي الحديث القدسي «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»، وحين يحتكم الحاكم والمحكوم للحقوق والواجبات فإن البلاد تنعم بالأمن والأمان والاستقرار، وهذا يسهم في حماية البلاد من أي عدوات أو ضغائن تترسب نتيجة الظلم أو غياب المساواة.

ومن هذه المقومات: إشاعة أجواء الحرية المنضبطة فذلك يسهم في حماية الوطن من خلال تمكين المواطنين من التعبير عن أفكارهم ومقترحاتهم ومساءلتهم للحكومة، كما أن الحرية المنضبطة توفر بيئة مناسبة للإبداع والتميز والنقد الذاتي والمراجعة، كل ذلك ضمن ضوابط المصلحة العليا للدولة والرشد السياسي والديني والأخلاقي حتى لا نقع فريسة الفلتان الأخلاقي والفوضى الثقافية المدمرة، وهناك ثلاثة مبادئ شرعية نبوية تضمن ممارسة الحرية المنضبطة والهادفة والمسؤولة وهي: الدين النصيحة. وإنكار المنكر ضمن أصوله وضوابطه وممارسة الشورى.

ومن المقومات الداخلية: تحقيق التنمية الاقتصادية بتحسين الأوضاع الاقتصادية للمواطنين، ومحاربة البطالة، وتدويل المال بين أبناء الوطن، وتشجيع الاستثمار والإفادة من صور التنمية الاقتصادية في التشريع الإسلامي من إباحة البيوع والتجارة، والدعوة للعمل والكسب المشروع، ومشروعية التجارة مع المسلم وغير المسلم في الإطار المشروع، وإباحة عقد السَّلَم بشروطه، وإباحة الإجارة بما تحققه من نفع للمؤجر والمستأجر والمشاركة في المال عناناً أو مضاربة أو مزارعة أو مساقاة، ومن صور التنمية: وجوب الزكاة التي تسهم في تحريك المال في المجتمع، ومنها: تشريع الهبات والأعطيات وما يحدثه من تفتيت للثروات، هذه التشريعات تكفل تحريك المال وتنميته، وتنشيط الاقتصاد وتشغيل الأيدي العاملة..الخ.

ومن المقومات الداخلية: مكافحة الفاسدين ومعاقبتهم، فهذا يحفظ الوطن من الضياع والسقوط ويحفظ المواطن - وهو الكنز الحقيقي للدولة - من الظلم والعدوان والتعدي والإهانة والسطو على حقوقه المعنوية أو المادية، ولهذا كان واجباً على الدولة أن تسنَّ القوانين الوقائية من الوقوع في الفساد، وأن تضع العقوبات الرادعة لمن يرتكب الفساد؛ حفاظاً على ثروات البلد ومقدراته

ومؤسساته، ولهذا حذر النبي ﷺ من ممارسة الفساد أو السكوت عنه أو المشاركة فيه، وفي الحديث عند البخاري: «إِنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ القِيَامَةِ».

أما المقومات الخارجية لحماية الوطن فقد تمثلت بجملة من الأسس منها: الارتباط الوثيق بالأمة الإسلامية بما يمثل درعاً حامياً لكل وطن من الأوطان الإسلامية، وردعاً قوياً لأعداء الأمة ممن تسول له نفسه النيل من أي وطن من الأوطان الإسلامية، ومن هذه المقومات عقد التحالفات والمعاهدات السياسية والاقتصادية التي تسهم في تحقيق الاستقرار والازدهار وتجنب الدول المتحالفة الحروب والتوترات والاضطرابات، ومن شواهد هذا الأساس أن النبي ﷺ كان في مناطق الاشتباك أو التوتر يقدم الصلح على القتال؛ لحقن الدماء والتمهيد للدعوة بطريقة سلمية، كالصلح في غزوة ذي العُشير، وغزوة الأبواء، والصلح مع أهل جربا وأذرح وصاحب أيلة، ومنها وثيقته ﷺ لأهل نجران، وتظهر قيمة التحالفات في حماية الوطن في الإفادة من التعاون القائم على الشراكة، والتبادلات التجارية والتنمية الاقتصادية بين البلدين، وفي تفرغ كل دولة لتقوية وضعها الداخلي، والتحالف العسكري حال تعرض أي من الحلفاء لخطر داهم.

ومن المقومات الخارجية: تشريع الجهاد لدفع العدوان: فقد اتفق الفقهاء على أن العدو إذا دخل دار المسلمين يكون قتاله فرض عين على كل مسلم، وإذا تتبعنا معظم غزوات النبي ﷺ نجد أن السبب الجوهري لها هو: نقض العهود، أو الخيانة، أو التآمر مع الأعداء، أو التعدي على المسلمين، أو الإعداد للهجوم عليهم، فهذه الأسباب التي تمثل تهديداً للوطن، كانت سبباً لكثير من غزواته ﷺ.

ومن المقومات الخارجية: الرباط؛ لما فيه من أجر وثواب ويقظة أمنية وعسكرية تحفظ أمن الوطن والمواطنين، وفي الحديث عند البخاري: «رِبَاطُ يَوْمٍ

فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا..»، وتظهر قيمة الرباط في إبقاء الأمة يقظة مَنتبهة أمَام أَي تحركات من أعدائها، ويعينها على استكشاف ما لدى أعدائها من مكائد أو مؤامرات».

ومن المقومات الضرورية لحماية الوطن: الإعداد المادي الشامل لمختلف المجالات، فيجب على الأمة أن تحصّن الوطن بكل ما تستطيعه من تحصينات مشروعية دينية وعلمية وصناعية وعسكرية وزراعية؛ نهضة بالوطن والمواطنين من جهة، وتقوية لموقعها الإقليمي والعالمي من جهة، ودفعاً لأي خطر يمكن أن يهددها، بل وطرداً لأي وسواس استعمارية باحتلال الأرض من جهة أخرى.

وفي السنة والسيرة النبوية شواهد واضحة على الاهتمام بالإعداد والأخذ بأسباب القوة، فمن ذلك: (الدعوة للتصنيع الحربي، والحث على استخدام آلات الرمي، واستخدام المنجنيق والدبابة في حصار الطائف، والتدريب على استخدام السلاح، ومن صور الإعداد الحيطة والحذر والتمويه الإعلامي والتضليل الأمني...الخ)، وقد توصلت في البحث أن ما ينطبق على الأمة الإسلامية من مقومات حمايتها ينطبق على مستوى الوطن وفق المفهوم المعاصر، وما ينسحب على الكل من مقومات ينسحب على الجزء وهو الوطن، ومما يدعو لهذا أن الهدي النبوي قولاً وفعلاً وممارسة في الشأن الوطني تم ضمن ما وصلت إليه سيادة الإسلام في عهده ﷺ من قيام المجتمع في المدينة ليشمل بعدها الجزيرة كلها فضلاً عن التحالفات مع المجاورين والتي تضمن ولاءهم للدولة.

هذا غيض من فيض، والموضوع بحاجة إلى مزيد من الدراسات والأبحاث التي تسلط الضوء على مكانة الوطن في السنة النبوية وسبل النهوض به وحمايته داخلياً وخارجياً.

حماية الوطن في السنَّة النَّبوية
ومقوماته السلوكية والاجتماعية والاستراتيجية

د. بيدر محمد محمد حسن

أستاذ مساعد في كلية الشريعة والقانون في جامعة العلوم الإسلامية الماليزية (اليمن)

الوطن لا يعني مجرد الأرض والحيز الجغرافي للبلد، وإنما الوطن -إضافة إلى الحيز الجغرافي- هو العمران بأوسع معانيه، سواء العمران الحسي المتمثل في البناء والتنمية والتقدم والازدهار، أو العمران المعنوي المتمثل في النظام العام الدستور والقوانين ومؤسسات الدولة التي تنظم وتسير العلاقات الإنسانية في الوطن، وتضمن سير حركة العمران الإنساني الحضاري بشكل يحقق المقاصد الشرعية للقرآن والسنة في حماية الوطن، والحفاظ عليه والعمل على رقيه ورفاهيته وازدهاره.

وحماية الوطن في السنة النبوية لا تعني بالضرورة الحفاظ عليه من أي اختراق أو غزو خارجي، وإن كان هذا من الواجبات المحتمة على الشعوب والحكومات والأفراد، بيد أن المقصود هنا هو حماية الوطن من خلال العناية بعمقه الروحي والمعنوي والحضاري، والمكون الاجتماعي والنُّظم والمؤسسات والعلاقات الاجتماعية، والتعامل الإيجابي مع كل المكونات التي تمثل الشعب والوطن والدولة، ونشر روح الألفة والمحبة بين فئات المجتمع على اختلاف مشاربها ومذاهبها، والابتعاد عن كل ما من شأنه تعكير صفوة المجتمع والتأثير على وحدته وتماسكه وتعاونه.

ولقد جاءت المقومات الأخلاقية السلوكية والاستراتيجية في السنة النبوية المطهرة، وتظافرت الأدلة التي تحث أي مجتمع يعيش في أي وطن على المقوم الأخلاقي والسلوكي الضامن للعلاقات الفردية والاجتماعية في أبهى صورها من التعاون والاحترام والحب والوئام والبعد عن أي بوادر أو دواعي من شأنها أن تؤثر بشكل سلبي على النسيج الاجتماعي الذي يمثل أساس حماية الأوطان وبنائها وعمارتها وحضارتها، وقد تطرق البحث إلى مفردة من مفردات المقوم الأخلاقي والسلوكي في السنة النبوية وهي احترام الجار وإكرامه والابتعاد عن إيذائه، ولا يعني هذا حصر المقوم السلوكي والأخلاقي لحماية الوطن في السنة النبوية على

قضية حقوق الجار فحسب، وإنما كان مجرد مثال من أمثلة كثيرة حرصت السنة النبوية المطهرة من خلالها على بقاء الألفة والمحبة والمودة والتعاون بين أفراد المجتمع الواحد، والذي بدوره يؤثر بشكل إيجابي على استقرار الأوطان وأمنها وسلمها، وهو ما يمثل بدوره نوع من أنواع الحماية الوطنية في السنة النبوية الشريفة.

ولقد جاء المقوم الاجتماعي والاستراتيجي في السنة والسيرة النبوية الشريفة والتاريخ الإسلامي الذهبي الأول رافداً أساساً في حماية الوطن، ولقد كان الوضع الاجتماعي في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وعصر الصحابة الكرام مثالاً حضارياً رائعاً مثّل لبنة ومقوماً من مقومات حماية الوطن والحفاظ عليه، ولقد كانت من أجل الأعمال التي بدأها النبي صلى الله عليه وسلم بعد هجرته الشريفة، أن أسس لمجتمع مدني يتسم بالقوة والصلابة والتماسك والتآلف من خلال عدة أعمال مؤسسية جليلة مثّلت جانب المقوم الأخلاقي السلوكي والاجتماعي والاستراتيجي في حماية الوطن، ومن تلك الأعمال إلغاء كل آثار العداء القديم بين مجتمع الأوس والخزرج وصياغة مجتمعهم تحت اسم جديد الأنصار، حتى أصبح مجتمعاً يتسم بالتسامح والألفة والمحبة والمودة والإخاء، ثم دمج المهاجرين الذين وفدوا من مكة في المجتمع الجديد الذي هاجروا إليه من خلال المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ولم يكن هذا الأمر عبثاً، وإنما كان النبي صلى الله عليه وسلم يؤسس لنسيج ومقوم اجتماعي واستراتيجي قوي يقوم بدوره في حماية الوطن وبنائه وعمارته الإنسانية الحضارية المفعمة بالخير والسكينة والأمن والاستقرار.

ولكون اليهود والمنافقين من النسيج الاجتماعي في المدينة المنورة الذي يمثل وحدة وطنية، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يغفل هذا الجانب المهم، وإنما رسخ مبدأ المواطنة بشكل دستوري مؤسسي من خلال صحيفة المدينة، والذي

أعلن فيها النبي صلى الله عليه وسلم أسس العلاقات الإنسانية الحضارية بين مكونات المجتمع المدني الواحد المتعدد في ثقافته ودياناته وتوجهاته وأولوياته وأهدافه، من خلال منطلقات وطنية ثابته، يتم من خلالها التعاون بين المسلمين واليهود في مقوم اجتماعي استراتيجي مهم، يجعل حماية الوطن وبنائه وعمارته أولوية ثابتة لكل مكونات المجتمع المدني.

ومن أجل حماية الوطن وصونه والحرص على عمارته بالخير والأمن والسلام والسكينة والطمأنينة، لم يكن المنافقون في منأى عن الخطط الاستراتيجية والمؤسسية للنبي صلى الله عليه وسلم في المقوم الاجتماعي، وإنما كان حريصا على المقوم الاجتماعي والاستراتيجي من خلال عدم البوح بأسماء المنافقين للصحابة الكرام، حتى لا يتأذى النسيج الاجتماعي للوطن الواحد (المدينة المنورة)، وحتى لا تستولي الفتنة بين فئات المجتمع، وهذا ما يمثل حقيقة المقوم الاجتماعي الاستراتيجي في الحفاظ على نسيج المجتمعات والبعد عن كل ما شأنه أن يؤدي إلى تمزيق وتفتيت المجتمعات ويكون سبباً مباشراً في ضياع الأوطان.

وحماية الوطن والحفاظ عليه في السنة النبوية الشريفة أصيلا في المقوم الاستراتيجي في وحدة المرجعية، ولقد أسس القرآن الكريم والسنة النبوية لهذ المقوم الاستراتيجي المهم الذي يعد ركيزة أساس في حماية الوطن، والدليل على ذلك أنه حينما تعددت المرجعيات في عصور ما بعد الخلافة الراشدة، انتشرت الفتن والملاحم بين المسلمين وتفسخ عرى المجتمع الإسلامي، وتعرض المسلمون ولا يزالون لأبشع أنواع الفتن والحروب البينية، وكان ذلك كله بسبب تعدد المرجعيات وانتشارها إضافة إلى تباينها في الأفكار والرؤى والمناهج والأيدلوجيات والشعارات، مما ولد كيانات متعددة تتعارك فيما بينها من أجل السيطرة على القوة والنفوذ، وأدّى هذا إلى ضياع الأوطان وانفصام عراها واحدة تلو الأخرى.

والقرآن والسنة في محور وحدة المرجعية حرصا على أن تكون المرجعية هي التي تفصل في أي خلاف يطرأ في المجتمع الواحد سواء كلان خلاف شخصي أو فكري أو عقدي أو اقتصادي أو ما شابه ذلك. قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ (النساء: ٥٩). هذه الآية الكريمة مثلت الأساس الصلب لوجوب وحدة المرجعية، حتى لا تتفسخ عرى المجتمعات بسبب الاختلافات الفكرية والمنهجية والعقدية، وتكون تلك الخلافات كارثية تؤدي إلى ضياع الأوطان وتمزيقها، وتسبب معاناة حقيقية للناس، كما هو حاصل في بعض البلدان العربية، والتي مثلت فيها تعدد المرجعيات سبباً مباشراً في تفشي ظاهرة الحروب البينية وتفتيت النسيج الاجتماعي وانتشار الفتن وتمزيق الدول وضياع هوية الشعوب وأوطانها، ولذلك فإن حماية الوطن في السنة النبوية تستدعي وجوب وحدة المرجعيات، ويعد ذلك من الثوابت التي لا يمكن المساس بها، لأن ذلك يقوض بنية الدولة والمجتمع والوطن، ويجعل الوحدة الوطنية على المحك، وعليه فإنه يجب على الشعوب والحكومات على حد سواء السعي إلى تحقيق وحدة المرجعية في سبيل حماية الوطن والحفاظ عليه من التفتت والانهيار، وعمارته بالخير والتقدم والازدهار والرفاهية والأمن والسلام والسكينة والطمأنينة.

مقومات حماية الوطن ووسائل تفعيلها

(دراسة في السنة النبوية)

د. عطا الله مدب حمادي الزوبعي

دكتوراه في الحديث الشريف وعلومه (العراق)

كفلت الشريعة الإسلامية حق الدفاع عن النفس والوطن والديار وكذلك القانون الدولي والعرف الاجتماعي ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ (سورة البقرة: ١٩٠)، فالآية أعطت الحق للمسلمين في رد العدوان على الذي يستهدف أرضهم وخيراتهم بل أوجبت ذلك وجعلت القتال واجبًا دينيًا في سبيل الله لأنه يحمي الدين من الفساد والعباد من الاستعباد، قال تعالى: ﴿ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۖ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴾ (سورة النمل: ٣٤)، وكفلت المادة (٥١) من ميثاق الأمم المتحدة حق أي دولة في الدفاع عن حدودها إذا وقع عليها عدوان خارجي، وجاءت الشرائع السماوية والقوانين الوضعية مؤكدة للعرف الاجتماعي الذي عرفته البشرية عبر تاريخها في حق الدفاع وصد الغزاة. قال الْفِنْدُ الزِّمَّاني:

فلَمَّا صَرَّحَ الشَّر... فَأَمْسَى وَهْوَ عُرْيانُ

وَلَمْ يَبَقَ سِوَى العُدْوَانِ... دِنَاهُمْ كَمَا دَانُوا[1].

وإذا ما أردنا أن نقيم دولة تزدهر فيها الدعوة إلى الله، ويأمن فيها الدعاة من القتل والخطف والتنكيل، ويقام فيها شرع الله، ويمكّن لدينه الذي ارتضاه، وتبنى الحضارة على المفاهيم الإسلامية فلا بد من توفير أرض آمنة، ومجتمع قادر على حماية هذه الدولة وصيانة مكتسباتها.

والوطن يصدق على البلد والمدينة والديار، كما قال ابن دريد: والوَطَن: حَيْثُ أوطنتَ من بلد أَو دَار أَو مَكَان[2]، ولا شك أن هذا المعنى قريب من المعنى المعاصر للوطن والذي هو: المكان الذي يعيش فيه مجتمع من الناس وله حدود معروفة.

١- أبو علي القالي، الأمالي، ج ١، ص ٢٦٠.
٢- ابن دريد، جمهرة اللغة، ج ٢، ص ٩٢٨.

ولفظة الوطن لم تكن لفظة معاصرة ولكنها لم تكن متداولة قبل المائة الأولى من الهجرة على حد علمي، وقد تم التعبير عنها بالأرض والبلد والديار، وهذه الألفاظ لا تختلف في معناها عن مضمون المعنى المعاصر للوطن. وإذا أردنا أن نسجل فرقا بين المعنى المعاصر والقديم للوطن فهو أنّ حدود الأوطان بين البلدان في عصرنا هذا أصبحت معروفة بدقة ومعلَّمة، وعليها اتفاقات مسجلة دوليا ومسيطر عليها، وعلى أساسها تمنح الهوية؛ بينما لم تكن في السابق بهذه الدقة وإنما كانت حدود الإمارة والمدينة والقرية والقبيلة تسمى الحمى أو المضارب، وتخضع للعرف والاجتهاد، ولا شكَّ أن هذا الفرق إنما هو في الشكليات ولا في المفهوم.

وقد جاء تعبير القرآن الكريم عن هذا المفهوم للأوطان في مواضع عدة قال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ (سورة الأحزاب: ٢٧)، وقال تعالى: ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ (سورة الدخان: ٢٥-٢٨). فالوطن هو الديار والمقام الكريم والأرض الممتدة حولهم والتي تضمن خيراتها العيش الرغيد لأبناء المجتمع.

وقد أولت السنة النبوية مسألة حماية أوطان المسلمين وديارهم وحفظ أمنهم عناية خاصة، واعتبرت نعمة الأمن من أعظم النعم على الفرد والمجتمع، ومطلبًا ضروريًا لاستقرار الحياة من جميع النواحي الدينية والاقتصادية والاجتماعية ومقابل ذلك فإن حصول الخوف وفقدان الأمن من أعظم البلاء الذي يصيب الفرد والمجتمع، قال تعالى ممتنًا على أهل مكة: ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة القصص: ٥٧)، والحرم الآمن مكة وديارها وما حولها.

ووردت الأحاديث النبوية تارة تلفت النظر إلى هذه النعمة لذكرها وشكرها وتارة تدعو الله بدوامها وعدم زوالها فعَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قَالَ: «مَنْ أَصْبَحَ مُعَافًى في بَدَنه، آمنًا في سِرْبه، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمه، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا»[1]، وعن ابْنَ عُمَرَ أيضا يَقُولُ: «لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَعُ هَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي وَآمِنْ رَوْعَاتِي اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي وَمِنْ فَوْقِي وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي قَالَ يَعْنِي الْخَسْفَ»[2].

وعند النظر في كنوز السنة النبوية نجد أن هناك الكثير من الأحاديث قد وضعت المقومات الأساسية لحماية الأوطان أرضا وديارا وحدودا، وحثت على صيانة أمنها، فقد كان للسنة النبوية السبق في رسم صورة لوطن متعدد الأديان والأعراق والقبائل، تمنح فيه حقوق الأقليات الدينية والعرقية، وتنظم فيه الواجبات وتصان الكرامة، صورة فيها رقيٌّ أخلاقيٌّ واجتماعيٌّ قلَّ نظيره وعزَّ مثيله في المجتمعات المجاورة، حيث كانت الحضارات الغربية القديمة اليونانية والرومانية تقسِّم المجتمع إلى طبقات وتجعل منهم درجات في نيل حقوقهم، وتستعبد كثيرًا من شرائح المجتمع، وهذا العمل يولد شعورًا بالغبن والإهانة، ويضعف رابطة الانتماء للوطن.

ومن الأمثلة التي جاءت بها السنة النبوية في صون حق المواطنة وثيقة المدينة المنورة التي وضعها رسول الله ﷺ والتي نظم فيها معالم الدولة الجديدة التي

١- أخرجه الطبراني في الأوسط، برقم (١٨٢٨)، وله شواهد ضعيفة عن أبي الدرداء عند ابن حبان في صحيحه (كما في الإحسان)، كتَابُ الرَّقَائق، باب الفقر والزهد والقناعة، (ذِكْرُ الْإِخْبَارِ عَمَّنْ طَيَّبَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا عَيْشَهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا) برقم (٦٧١)، وعن عُبَيْد الله بْن محْصَن الخَطْمَيِّ عندَ الترمذي في سننه، أَبْوَابُ الزُّهْد، بَاب فِيَ التَّوَكُّل عَلَى الله برقم (٢٣٤٦)، وقالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، لا نَعْرِفُهُ إِلا مِنْ حَدِيث مَرْوَانَ بْن مُعَاوِيَةَ. وإسناد الطبراني أحسنها.

٢- إسنادهَ حسن، أخرجهَ أبو داود في سننه، كتَاب الأَدَب، بَابُ مَا يَقُولُ إِذَا أَصْبَحَ، برقم (٥٠٧٤)، وابن ماجه في سننه، كتَابُ الدُّعَاء، بَابُ مَا يَدْعُو بِهِ الرَّجُلُ إِذَا أَصْبَحَ وَإِذَا أَمْسَى برقم (٣٨٧١)، وأحمد في مسنده برقم (٤٧٨٥)، والبخاري في الأدبَ المفرد، بَابُ مَا يَقُولُ إِذَا أَصْبَحَ، برقم (١٢٠٠)، والحاكم في المستدرك برقم (١٩٠٢) وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

توازن بين الحقوق والواجبات، وقد راعت الوثيقة خصوصيات القبائل فجعلت كل قبيلة تتحمَّل مسؤولية العقل فيما بينهم، وعززت أمن المسلمين بأن يكونوا يدًا واحدةً على أعدائهم من الداخل والخارج، حيث جاء فيها: «وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَى مَنْ بَغَى مِنْهُمْ، أَوْ ابْتَغَى دَسِيعَةَ ظُلْمٍ، أَوْ إِثْمٍ، أَوْ عُدْوَانٍ، أَوْ فَسَادٍ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ جَمِيعًا، وَلَوْ كَانَ وَلَدَ أَحَدِهِمْ»[1].

وأعطت الوثيقة لليهود حقهم في العيش على أرض الوطن أسوة بالمسلمين في حفظ كرامتهم وعدم ظلمهم ونصرتهم على من اعتدى عليهم حيث جاء فيها: «وَإِنَّهُ مَنْ تَبِعَنَا مِنْ يَهُودَ فَإِنَّ لَهُ النَّصْرَ وَالْأُسْوَةَ، غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلَا مُتَنَاصَرِينَ عَلَيْهِمْ»[2].

وبعد أن منحت الصحيفة حق اليهود أمرتهم بوحدة الدفاع المشترك عن أرض الوطن إلى جانب المسلمين لأنهم يعيشون على أرض واحدة، وينعمون بخيراتها، فيتوجب عليهم الدفاع عنها، فقد جاء في الصحيفة: «وَإِنَّ عَلَى الْيَهُودِ نَفَقَتَهُمْ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ نَفَقَتَهُمْ، وَإِنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ حَارَبَ أَهْلَ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ»[3] وجاء فيها كذلك «وَإِنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ دَهَمَ يَثْرِبَ»[4].

وأعطت السنة النبوية أهمية كبيرة لحب الوطن وتنميته في نفوس المسلمين ليكون دافعا للتمسك بأرض الوطن، وجزءًا من الوفاء له الذي فيه الحياة ومنه الخيرات، وعلى ربوعه مكَّن الله دينه، وأقام رسول ﷺ دولته، ويلفت رسول الله ﷺ نظر المسلمين إلى المدينة المنورة يحببها إلى نفوسهم ويسميها بأجمل وأطيب الأسماء، ويذكر جبل أحد وهو من أبرز معالمها، فعَنْ أَبِي حُمَيْدٍ قَالَ أَقْبَلْنَا مَعَ النَّبِيِّ

١- ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١، ص ٥٠٢، وأخرج البيهقي في الكبرى برقم (١٦١٤٨) جزء من وثيقة المدينة بسنده عن ابن إسحاق حدثني عثمان بن محمد بن عثمان بن الأخنس بن شريق قال أخذت من آل عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا الكتاب.....، ويعني بالكتاب وثيقة المدينة.
٢- المصدر السابق، ج ١، ص ٥٠٣
٣- المصدر السابق، ج ١، ص ٥٠٣.
٤- المصدر السابق، ج ١، ص ٥٠٤.

صلى الله عليه وسلم مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ حَتَّى إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى الْمَدِينَةِ قَالَ: «هَذِهِ طَابَةُ وَهَذَا أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»[1].

وقد وجهت السنة النبوية أبناء الأمة الإسلامية إلى تحمل كل فرد منهم المسؤولية تجاه بيته وأهله ومجتمعه ووطنه وأن يكون ناصحا في قوله أمينا في عمله، فمن الأحاديث التي تحث على المسؤولية الجماعية ووحدة المصير ما جاء عن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا»[2].

ومثل هذا الحديث حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ، مَنْ ضَارَّ ضَارَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ شَاقَّ شَاقَّ اللَّهُ عَلَيْهِ»[3].

ففي هذه الأحاديث تأكيد على أن الإنسان لا يحق له أن يتصرف بماله وملكه إلا بالمعروف ولا يجوز له إلحاق الضرر بالناس سواء كان ضررا عاما أو خاصا بدعوى أنه يتصرف في ملكه. فالحرية مكفولة بعدم إيقاع أي ضرر أمني أو اجتماعي أو اقتصادي على الفرد أو المجتمع ولا شك أن هذه الأحاديث ترتفع

١- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب خرص التمر برقم (١٤٨١)، وكتاب المبعث النبوي، أبواب غزوة تبوك، برقم (٤٤٢٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، بَابُ أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ، برقم (١٣٩٢).

٢- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والإستهام فيه برقم (٢٤٩٣)، وفي كتاب الشهادات، باب القُرْعَة في المُشْكلات، برقم (٢٦٨٦).

٣- أخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي سعيد الخدري، كتاب البيوع، برقم (٢٣٤٥)، وقال الذهبي: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الإِسْنَادِ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ. وعن ابن عباس أخرجه أحمد في مسنده برقم (٢٨٦٥)، وابن ماجه في سننه، كتاب الأحكام، بَابُ مَنْ بَنَى فِي حَقِّهِ مَا يَضُرُّ بِجَارِهِ، برقم (٢٣٤١)، وله طرق أخرى.

بالإنسان عن المصلحة الشخصية والنزعة الذاتية إلى تغليب المصلحة العامة وتجعل من المواطن أداة فعالة لحماية الوطن وحفظ مصلحة الأمة.

واعتبرت السنة النبوية أن مَهَمة حماية الوطن وحفظ أمنه منوطة بأبنائه، وتحقيق هذه المَهمة مرتبط بمدى استعدادهم وجاهزيتهم للدفاع عنه وصيانة أرضه وخيراته ومياهه وسمائه، وحراسة حدوده وسد ثغوره؛ وهذا يأتي في سياق الوفاء منهم لوطنهم وأداء الواجب تجاهه، ذلك الوطن الذي أقاموا فيه شعائر دينهم ومناسك عبادتهم وارتووا من مائة وأكلوا من خيراته وأقلتهم أرضه وأظلتهم سماؤه، أرض أجدادهم وكرامة معاشهم ومستقبل أبنائهم.

وقد كان للسنة النبوية دور كبير وفعال في توجيه أبناء الأمة إلى ضرورة حماية الدين والوطن، واستثمار الطاقات، وتحفيز الهمم للدفع عن الأرض والعرض وحماية المقدسات والمكتسبات، وحفظ بيضة المسلمين، وبيان فضل الجهاد وثوابه والاستعداد له. فعن عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ، يَقُولُ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (سورة الأنفال: ٦٠)، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ»[1]، فالحديث هنا يحث أبناء الأمة على التدريب وممارسة الرمي بالسهام والرماح لأنها توقع أكبر الأذى في صفوف الأعداء، فإذا كان الرامي كثير الممارسة لهذا السلاح دقيق في تصويبه حصل المطلوب في صد العدو، قال القسطلاني: «إن عادة الرمي لا تستثبت بدون المعالجة والإدمان الطويل وليس شيء من عدة الحرب وأداتها أحوج إلى المعالجة والإدمان عليها مثل القوس والرمي بها ولذلك كرر عليه الصلاة والسلام تفسير القوة بالرمي»[2].

١- أخرجه أحمد في مسنده برقم (١٧٤٣٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، بَابُ فَضْلِ الرَّمْيِ وَالْحَثِّ عَلَيْهِ، وَذَمِّ مَنْ عَلِمَهُ ثُمَّ نَسِيَهُ، برقم (١٩١٧).

٢- القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ج ٥، ص٩٣.

مقومات حماية الوطن في خطبة حجة الوداع

د. بُوعُبَيدَ الازدهار

أستاذ بأكاد يمية التربية والتكوين (المغرب)

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الكريم، وعلى آله وصحابته الغُرّ الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، ثم أما بعد؛

فما أحوج البشرية اليوم، وهي تتطلع إلى غدٍ مشرق، في ظل ما تعيشه من نكبات؛ أن تنظر في التاريخ الإسلامي وتتبصّر من خلاله فاعلية السنن الإلهية الناظمة لمساره وتشكلاته، وتستلهم منه عناصر استقرار البلدان وأمنها. وخطبة حجة الوداع- قيد الدراسة والتحليل، واحدةٌ من تلكم الوقائع التي شكلت مرجعًا معرفيًا وفكريًا في التأسيس النظري للأسس العقدية والاجتماعية والتشريعية في حماية الوطن والدفاع عه؛ والتي تستوجب منا النظر والتأمل في سياقاتها المعرفية والتاريخية؛ إذ رسمت هذه الخطبة خريطة الطريق التي ينبغي أن تسير عليها البشرية بعد مرحلة النبوة في كل المستويات، وقد نصت على جملة من المقومات التي من شأنها أن تعصم دماء المؤمنين وتوحد صفوفهم وتقوي شوكتهم، وتنزع عنهم القيود والأغلال التي علقت بأذهان بعضهم، وتُبدّد ما في نفوسهم من بقايا الجاهلية، وتضمن للدولة الحديثة استمراريتها، وتحميها من أيّ سوء منقلب في الفكر والعقيدة والسلوك، وبخاصة أن مثل هذا المؤتمر العالمي قد لا يتكرر في حياته ﷺ مرة أخرى، فاغتنم الفرصة ونصح للأمة وجاهد في الله حق جهاده، مصححًا دين ربه للناس من حوله.

لقد أرسى الإسلام قواعد هامةً في تثبيت أمن الأوطان وحمايتها من الفوضى والانقسام، حيث أكّد كثير من النصوص الشرعية والوثائق النبوية أسس ومقومات تضمن الاحترام المتبادل بين أفراد البلد الواحد، وتُعلي من قيم الأخوة والتعاون وحبّ الخير للغير، وتجعل الجميع سواسية لا فرق لأحد منهم على الآخر مهما علا نسبه من النبي ﷺ أو اقترب. وتوثق العلاقة بين الراعي والرعية على أساس متين يقوم على لزوم الطاعة والولاء، وتدعو في ظل هذه العلاقة إلى الاعتصام

بحبل الله تعالى والتمسك بسنة نبيه ﷺ، والقطع مع أفعال الجاهلية ومعتقداتها. ولتقريب هذه المعاني، سيتم التركيز على المقومات الآتية:

أولا: مقومات عقدية وفكرية: نجملها في اثنين؛ **المقوم الأول: التمسك بكتاب الله وسنة نبيه** ﷺ مع إلغاء التمايز القومي والطائفي: إنّ المرجعية التي تحدث عنها النبي ﷺ في خطبة حجة الوداع لم تكن مرجعية فئوية أو طائفية، وإنما كانت دعوة عامة لكل البشرية إلى الاجتماع على كتاب الله تعالى؛ وهو محل إجماع المسلمين أولًا، وعلى سنة رسوله ﷺ ثانيًا. وقد حض النبي ﷺ أمته- في هذا السياق - على وحدة الصف وتماسكه، مع التحذير من التفرقة والتمييز بين أبنائه بعلة مخالفة الجنس واللون والعقيدة؛ يقول ﷺ في هذه الخطبة: «.. **وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا كِتَابَ اللَّهِ**»؛ فدل ذلك على أن وحدة الأمة وتماسك بنيانها مرهون بشكل كبير بمدى تمسك أفرادها بالدستور الإلهي المؤطر لسلوكهم؛ إذ بقدر ما يحصل تمثّل إيجابي للقيم الناظمة لعلاقات الإنسان بربه وبنفسه وبمحيطه وفي ورادة في تعاليم هذا الدستور، بقدر ما تتحقق القوة والتناصر بين كل الأفراد، مهما اختلفت ألوانهم وعقائدهم وأجناسهم.

المقوم الثاني: تصفية الوجود الوثني من المجتمع الإسلامي: فقد أعلن النبيﷺ في خطبته عن إلغاء شعائر الجاهلية وشعاراتها، وإبطال أخلاقها ومبادئها الفاسدة، كما قرر ﷺ إلى جانب ذلك؛ القضاء على أسباب الأضغان والأحقاد، ودفن ما كان في الجاهلية مما يثير الخصومات، واعتبر أنَّ الربا ودماء الجاهلية موضوعة، ونصَّ على أنَّ أول دم يضعه هو دم ابن عمه؛ ابنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ الذي كان مُسْتَرْضِعًا في بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ، وأنَّ أول ربا يضعه ربا عمه العباس بن عبد المطلب، ليعلن للناس أنَّ الأمر للحق والقسط ولو على النفس والأقربين. وهذا يعني أن كل أمر في الجاهليَّة يخالف عقيدة الإسلام وقيمه فهو باطل، ولذلك فقد تم القطع مع ممارسات الجاهلية سلوكًا واعتقادًا من أجل ضمان

وحدة الأمة الفكرية والعقدية.

ثانيًا: مقومات تشريعية وقانونية: المقوم الأول: تعظيم حرمة إراقة الدماء بغير حق والتأمين عليها: شدَّد النبي ﷺ في هذه الخطبة على ضرورة الحفاظ على أمن الدولة وكفَّ الأذى عن دِماء مواطنيها والتأمين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، ونبذ كل الخصومات المؤدية إلى الاقتتال بين المسلمين وغيرهم، وقد قرر عليه السلام ذلك التأمين في قوله: «**إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ إِلَى أَنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، وَحُرْمَةِ شَهْرِكُمْ هَذَا..**».

فقد كان «تحريم البلد، والشهر، واليوم، ثابتًا في نفوس المشركين، مقررًا عندهم، بخلاف الأنفس والأموال، والأعراض، فكانوا في الجاهلية يستبيحونها، فطرأ الشرع عليهم بأن تحريم دم المسلم، وماله، وعرضه، أعظم من تحريم البلد، والشهر، واليوم»[1]. ما يعني أن توفير الأمن النفسي والاجتماعي شرط ضروري لحياة الأمَّة والوطن؛ إذ يحفظ كيان الإنسان، ويحقن دماءه، ويزيده حبًا وتعاونًا مع بني جنسه.

المقوم الثاني: الالتزام والوفاء بالعهود وأداء الأمانات: شرَّع النبي ﷺ في خطبة حجة الوداع وجوب رد الأمانات إلى أهلها والوفاء بالعهود بين الناس ضمانًا لحقوق كل فرد منهم، في قوله ﷺ: أنه «**مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ؛ فَلْيُؤَدِّهَا إِلَى مَنِ ائْتَمَنَهُ عَلَيْهَا**»، وتأكيد النبي ﷺ في هذه الخطبة مسألة صون الأمانة والحفاظ عليها، دليل على عظمها، وعظم ذنب المتهاون في تأديتها، وأنها مسؤولية كبيرة تتبع صاحبها إلى يوم القيامة، كما ورد في الحديث الصحيح، «**لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ**»[2].

١- فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب العلم، باب قول النبي ﷺ رب مبلَّغ أوعى من سامع، ١ / ١٤٥.

٢- رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، الحديث رقم: ٢٥٨٢، ٤ / ٩٩٧.

ومن ثمة، فإن الإخلال بهذا الواجب يمكن أن يثير الفتنة بين الناس، ويزرع الانتقام ممن خان الأمانة وضيَّعها، وهو أمر غير محمود العواقب، قد يجر بالعباد والبلاد إلى اقتتال وصراع يفقد المرء من خلاله الأمن على نفسه وعرضه وماله؛ ثم إن ذلك سيكون سببًا في إضعاف الأمة وشل حركة أفرادها والخوض بهم في معارك هامشية هم في غنى عنها.

المقوم الثالث: الاعتراف بحقوق المرأة والحفاظ على كرامتها: صانت خطبة الوداع للمرأة أنوثتها وكرامتها، وحضَّت على تكريمها ورعايتها، وحفظت لها حقوقها الزوجية، واعتبرتها «واجبات على الزوج وأمانة في عنقه»[1]، فقد قالﷺ: «إِنَّمَا النِّسَاءُ عندَكُم عَوَانٌ، لاَ يَملِكْنَ لأَنْفُسِهِنَّ شَيئًا، أَخَذتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ الله، وَاسْتَحلَلْتُم فُرُوجُهُنَّ بِكَلِمَةِ الله، فَاتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ، وَاسْتَوصُوا بِهِنَّ خَيرًا»، فهذا التشريع النبوي يحفظ للأسرة كيانها، ويزيد أفرادها تماسكا، ويساعدها على القيام بأداء الرسالة المنوطة بها، في حفظ الأنساب، وتربية الناشئة وتأهيلهم لخدمة الوطن، والسعي إلى ما به الخير والصلاح؛ فصون الأسرة صونٌ بالضرورة لكل عناصر المجتمع من أي تغاير ونزاع بين أفراده.

ثالثًا: مقومات سياسية واجتماعية: المقوم الأول: ضمان المساواة والأخوة الإنسانية الجامعة: ألغى الإسلام التمايز القومي والطائفي بين الناس جميعًا، حين حث على الأخوة الإنسانية وأقر مبدأ المساواة، وحرَّم التمييز بينهم اعتمادًا على أصول واهية في اللون والجنس وغيرهما، وجعل التقوى والعمل الصالح هو معيار التفاضل بينهم، وقد أكد النبيﷺ هذه الحقيقة حين خطب في حجة الوداع أنه: «**لاَ فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلاَ لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلاَ لأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى**».

١- انظر، الإعلان العالمي لحقوق العباد في حجة الوداع والبلاغ، مقال للدكتور رشيد كهوس، منشور بمجلة الأزهر - يصدرها مجمع البحوث الإسلامية، رمضان - ١٤٣٤هـ/ يوليوز - غشت، ٢٠١٣م صـ ١٩٤٨ بتصرف.

ويُعَدُّ مبدأ المساواة والأخوة الإنسانية، من المقومات الضامنة لوحدة الأمة والحافظة لها من الفرقة والانقسام، فهي ترتكز على تعظيم عناصر الاتحاد والتعاون والتّواد والتراحم، وهي القيم نفسها التي تحتاج إليها البشرية اليوم حتى ترتفع عن الواقع المؤلم؛ واقع الحروب والصراعات الحضارية والتحيزات الفكرية التي دمرت الإنسانية وضيقت عليها الدنيا بعد رحابتها. فهذه القيم كان معمولاً بها ﷺ طيلة مرحلة الدعوة، وزاد الحرص عليها وتأكيدها في هذه المناسبة التاريخية، ليعلن للجميع أن عهد التمايز على هذه الشاكلة قد ولى دون رجعة، وأنه لا فرق بين أحد وآخر، مهما ارتفع شأنه، وعلا وضعه الاعتباري، إلا بالتقوى.

المقوم الثاني: الولاء لولاة الأمر وطاعتهم: أوصت نصوص الشريعة القطعية بضرورة طاعة ولاة الأمر بالمعروف والتعاون معهم على البر والتقوى، حمايةً لوحدة الأمة وتجنبًا لفرقتها وافتراق مكوناتها. وقد ذَكَّر النبي ﷺ الناس في خطبة الوداع بفضل الاعتصام بكتاب الله وطاعة أولي الأمر، لما يجلبه ذلك من مصالح دينية ومنافع دنيوية في العاجل والآجل. فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب في حجة الوداع فقال: «**أَيُّهَا النَّاسُ، أَطِيعُوا رَبَّكُمْ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا أُمَرَائَكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ**»[1].

ولذلك، فإن الخروج عن الإمام أو الحاكم والإخلال بهذا الواجب في وقتنا الراهن يعد من أعظم المفاسد الذي نهت عنها الشريعة الإسلامية، لما يترتب عنه من أضرار بالغة وعواقب مدمرة تقود المجتمع إلى الفتنة وسفك الدماء. وما تعيشه كثير من البلدان العربية والإسلامية اليوم من حرمان على مستوى الأمن

١- رواه ابن حبان في صحيحه، كتاب السير، باب طاعة الأئمة، ١٠ / ٤٢٦، حديث رقم: [٤٥٦٣]. والترمذي في سننه، وقال: حسن صحيح، أبواب السفر، باب منه، ٢ / ٥١٦، الحديث رقم: [٦١٦]، والإمام أحمد في مسنده، تتمة مسند الأنصار، حديث أبي أمامة الباهلي الصدي بن عجلان بن عمرو، عن النبي ﷺ، ٣٦ / ٤٨٦، رقمه: [٢٢١٦١].

والاستقرار، يعكس لنا بجلاء الوضع المتدهور الذي أصبحت عليه هذه البلدان بسبب خروجها عن الحاكم والسلطان؛ يقول محمد بن الحسن القلعي الشافعي في هذا السياق: «نظام أمر الدين والدنيا مقصود، ولا يحصل إلا بإمام موجود، لو لم نقل بوجوب الإمامة؛ لأدى ذلك إلى دوام الاختلاف والهرج إلى يوم القيامة. ولو لم يكن للناس إمام مطاع؛ لانْثَلَم شرف الإسلام وضاع»[1].

المقوم الثالث: الانتماء للوطن والتضحية من أجله، والتضامن بين أفراده: أكد النبي ﷺ في خطبة الوداع أن الدفاعَ عن الوطن وحمايته من المخاطر جزء من الدين، فبالحفاظ عليه تُحفظ كرامة الإنسان وعرضه ونفسه وماله، ولهذا فقد أوجب الإسلام الاعتزاز بالانتماء للأوطان، وجعله فريضة شرعية وحاجة ضرورية تُشعر أفراده بالروابط التاريخية المشتركة بينه وبين أفراد مجتمعه، وتُقوِّي لديه الشعور بحبّ الوطن وخدمته والتضحية من أجله، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه كان يشتاق إلى مكة، ولما قدم المدينة قال ﷺ: «**اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَينَا المَدِينَةَ كَمَا حَبَّبتَ مَكَّةَ أَو أَشَدَّ**..»[2].

إن حماية الوطن وتحصينه من الممارسات المنحرفة التي تعرضه للتهديدات الخارجية والداخلية؛ من التشويش على فكر شبابه، وزعزعة أمنه وسلامة أفراده، يعد أمرًا مطلوبًا في هذا الزمان؛ إذ يستوجب من الجميع - أفرادًا وجماعات، أن يلبوا نداء النصرة والحماية له متى كانت الحاجة إلى ذلك، ومِنْ دون تلبية هذا النداء، فليس من الممكن أن ينعم أي فرد داخل وطنه بالأمن والأمان.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

١- تهذيب الرياسة وترتيب السياسة، محمد بن علي بن الحسن القلعي، صص ٩٤-٩٥.

٢- متفق عليه، رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب مقدم النبي وأصحابه المدينة، حديث رقم: [٣٩٢٦]، ٥ / ٦٦، ومسلم في كتاب الحج، باب الترغيب في سكن مكة والصبر على لأوائها، حديث رقم: [٤٨٠]، ٢ / ٣.

التعايش الديني وأثره في إرساء قيم المواطنة وترقية حماية الوطن من خلال نصوص السنة النبوية

أ. د. نصر سلمان

أستاذ الحديث وعلومه بجامعة الأمير عبد القادر – قسنطينة (الجزائر)

الحمد لله على نعمائه، والصلاة والسلام على خيرة أنبيائه، وبعد: فإن هذا الموضوع يكتسي أهمية بالغة في الواقع المعيش، وذلك لارتباطه بمجالات الحياة المختلفة، والتحامه الوثيق بإرساء أسس السلم الاجتماعي، وتجسيد مبادئ الحرية الدينية، وقيم العدل، والمساواة، والكرامة الإنسانية، المفضية إلى ترسيخ قيم المواطنة، وتعزيز أمن الوطن وسلامته، وقد تناولناه وفق النقاط الآتية:

أولا: مظاهر التعايش في الوطن الإسلامي بين المسلمين ومواطنيهم من معتنقي الملل الأخرى وأثرها في حماية الوطن من خلال نصوص السنة: والتي قد عرضنا لبعضها على النحو الآتي:

١- **مظاهر التعايش المدني:** تتجلى في مراعاة حق المواطنة لهم: حيث يقتضي استشارتهم، ومشاركتهم في انتخاب ممثليهم، وإمكانية ترشحهم لبعض المسؤوليات العامة، وعدم ظلمهم، أو الاعتداء عليهم. وجواز جوارنا وتأميننا لهم؛ حيث لا يمكن خفر ذمة مسلم أدخل مواطنا مخالفا له في النِّحلة في حمايته، وهو ما تؤكده رواية أم هانئ بنت أبي طالب، فقد ورد فيها: «يَا رَسُولَ الله، زَعَمَ ابْنُ أُمِّي، عَلِيٌّ، أَنَّهُ قَاتِلٌ رَجُلًا قَدْ أَجَرْتُهُ، فُلَانُ بْنُ هُبَيْرَةَ، فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ....». والمتأمل بإمعانٍ في بعض مظاهر التعايش المدني بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى في نصوص السنة النبوية الشريفة يلحظ أنها تَصبُّ في مجموعها في بوتقة ترقية حماية الوطن، وتعزيز أمنه واستقراره، ذلك أن هذا المواطن إذا وجد أن جميع حقوقه المدنية مكفولة سيكون حصنا منيعا لحماية هذا الوطن، والذود عن حياضه، وعدم التآمر عليه، لأنه يجد فيه الحضن الدافيء، والصدر الحاني. أما إذا حدث العكس، فإنه لا محالة سيكون ناقما عليه، لإحساسه فيه بالدونية والصَّغار، ما يجعله يفكر في الثأر منه، بتخريب مقدراته، وعدم الإخلاص له، بل قد يشوش على سمعته خارجيا، بحجة

انتهاكه لحقوق الأقليات، وقد يتجاوز الأمر ذلك إلى الاستعانة بالأجنبي في تحصيل حقوقه، وهذا - دون ريب- يضرب حماية الوطن، وسلامة ترابه، وأمن مواطنيه، واستقرار ساكنته في مقتل.

٢- **مظاهر التعايش الاجتماعية**: وتتمثل في الآتي:

- تأمين أرواحهم والإيصاء بهم خيرا والتحذير من ظلمهم: لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا». وتبادل الهدايا معهم: لما ورد أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو ذُبِحَتْ لَهُ شَاةٌ فِي أَهْلِهِ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: أَهْدَيْتُمْ لِجَارِنَا الْيَهُودِيِّ؟ أَهْدَيْتُمْ لِجَارِنَا الْيَهُودِيِّ؟ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ».

- تبادل العواري معهم: لحديث جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بَعَثَ إِلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ فَسَأَلَهُ أَدْرَاعًا مائَةَ درْعٍ، وَمَا يُصْلِحُهَا مِنْ عُدَّتِهَا، فَقَالَ: أَغَصْبًا يَا مُحَمَّدُ؟ قَالَ: بَلْ عَارِيَةٌ مَضْمُونَةٌ حَتَّى نُؤَدِّيَهَا إِلَيْكَ ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ سَائِرًا».

- عيادة مريضهم: لما ورد عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: أَسْلِمْ». فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ». والمتأمل بإمعانٍ في كل ما أوردناه من مظاهر إيجابية للتعايش الاجتماعي بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى في نصوص السنة النبوية الشريفة، يلحظ أن لذلك تأثيرا بالغا

في ترقية حماية الوطن، والحفاظ على أمنه، وسلامته من الفتن؛ إذ أن هذه الأقلية حين تتلمس دفء العلاقات الاجتماعية في واقعها المعيش، يزيدها ذلك ارتباطًا بمواطني هذا البلد، الذي تُعزَّزُ فيه الأواصر الاجتماعية بين ساكنيه، ما يجعل الجميع يوجه كل طاقاته للحفاظ على هذه الروابط التي تُؤَثِّلُ قيم المحبة، والتآلف، والتراحم، والتي ستنعكس -دون ريب- بالخير على أمن الوطن وحمايته.

٣- **مظاهر التعايش الأسرية**: تتمثل في: حِلّ زواج المسلمين من نسائهم؛ لا سيما إذا رُجيَ إسلامهن؛ فَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ: أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - تَزَوَّجَ بِنْتَ الْفُرَافِصَةِ وَهِيَ نَصْرَانِيَّةٌ مَلَكَ عُقْدَةَ نِكَاحِهَا وَهِيَ نَصْرَانِيَّةٌ حَتَّى حَنِفَتْ حِينَ قَدِمَتْ عَلَيْهِ. وصلة ذوي القربى منهم: لما ورد من حديث أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَتْ: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ، فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قُلْتُ: وَهِيَ رَاغِبَةٌ أَفَأَصِلُ أُمِّي، قَالَ: نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ».

والرائي لمظاهر التعايش الأسرية بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى في نصوص السنة الغراء، يلمس فيها تعزيزا ودعما لترقية حماية الوطن، وذلك من خلال صلة ذوي القربى من غير المسلمين، وتمتين روابط أواصر المصاهرة، وعلائق النسب بينهم وبين مواطنيهم من المسلمين، ما تتولد عنه علاقات طيبة بينهم تنأى بأحد الطرفين في أن يفكر في الكيد للآخر، ما يجعل الوطن مطهّرا من مواطنين يسكن قلوبهم الغلُّ، والبغيُ والحسدُ، وهذا دون شك يكون سببا في كسر جناح الوطن الأسري، هذا الجناح المتين، الذي يمثل العمود الفقري، وذروة السنام، وأس البناء، في ترقية حماية الوطن، والحفاظ على ديمومة أمنه واستمرارية استقراره.

٤- **مظاهر التعايش الاقتصادية**: حاولنا إبراز مظاهر هذا التعايش الاقتصادي، الذي يُعَوَّلُ عليه في تعزيز البنية التحتية لاقتصاد الوطن، ورفاه ساكنيه، من خلال الآتي: جواز الإجارة بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى؛ فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: وَاسْتَأْجَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرَ رَجُلًا مِنْ بَنِي الدِّيلِ، ثُمَّ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ، هَادِيًا خِرِّيتًا... وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ...». ومشروعية الرهن بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى؛ ومن ذلك قول عائشة رضي الله عنها: اشْتَرَى رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - طَعَامًا مِنْ يَهُودِيٍّ بِنَسِيئَةٍ وَرَهَنَهُ دِرْعًا لَهُ مِنْ حَدِيدٍ». وتوظيف خبرات مواطني البلاد الإسلامية من غير المسلمين، ويؤكده ما ورد عَنْ عَبْدِ اللهِ بن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهما قَالَ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَفَعَ إِلَى يَهُودِ خَيْبَرَ نَخْلَ خَيْبَرَ وَأَرْضَهَا، عَلَى أَنْ يَعْتَمِلُوهَا مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَأَنَّ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَطْرَ ثَمَرَتِهَا».

والناظر لما عرضناه من مظاهر للتعايش الاقتصادي بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى من خلال نصوص السنة النبوية الكريمة، يلمس ارتباطها الرئيس بحماية الوطن وأمنه المالي والغذائي، وتحريره من التبعية الخارجية، فاستغلال خبرات غير المسلمين من مواطني البلاد الإسلامية في المجال الزراعي مثلا يُفضي إلى وفرة الإنتاج، وجودة المحاصيل، ما يؤدي إلى الاكتفاء الذاتي الذي يعزز الأمن الغذائي للوطن، ويجعله في حماية من أي ضغوطات، أو مساومات أجنبية، تتعلق بلقمة عيش مواطنيه. كما أن الناظر في مشروعية الكثير من التعاملات الاقتصادية معهم، يجدها تدعم تعزيز الحماية الاقتصادية للوطن، وذلك عن طريق إيجاد مناصب شغل لمواطنيه تُسهم في دفع عجلة التنمية، وتوظف في استغلال ما يمتلكه هؤلاء من تفوق فكري، ويد عاملة فنية.

وهذا كله دون ريب سيساعد في امتصاص البطالة التي إذا ما جثمت بكلكلها على صدر الوطن، جعلت من جبهته الاجتماعية حربا ضروسا عليه، يُغذي أوارها، ويُشعل فتيل شرارها تلك الأيادي المعطلة، والبطون الجائعة، ما يجعل أمن الوطن وحمايته في مأزق.

ثانيا: ترسيخ الإسلام لقيم الحرية الدينية لمواطنيه أساسا للتعايش والمواطنة وترقية لحماية الوطن: وذلك اعتمادًا على الأسس الآتية: عدُّ الحرية الدينية أساسًا مكينًا لتعايش المسلمين مع مواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى وتعزيزا لحماية الوطن. ونصوص السنة المطهرة ملأى بما يدعم قيم الحرية الدينية في الإسلام؛ من ذلك ما ورد في وثيقة المدينة: «يهود بني عوف أمّة من المؤمنين، لليهود دينهم، و للمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلاّ من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلاّ نفسه وأهل بيته...».

وكفالة الإسلام لحرمة أديرة وكنائس مواطنيه، وإقرارهم على ممارسة شعائرهم الدينية أساسا رصينا للتعايش الديني وصمام أمان لحماية الوطن: وذلك بإرسائه لحرمة أديرة وكنائس مواطنيه، ترسيخا لقيم التعايش الديني، بغض النظر عن اختلاف قناعاتهم الفكرية، ومعتقداتهم الدينية، وهذا ما نلمسه في نصوص السنة، والتي منها كتاب عمرو بن العاص لأقباط مصر بعد فتحها: وفيه «هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم، وأموالهم، وكنائسهم، وصُلبِهم، وبَرّهم وبحرهم، لا يدخل عليهم شيء من ذلك».

نلحظ مما سبق أن نصوص السنة المطهرة، جاءت مؤصلة لمبدأ الحرية الدينية، ما يكون له انعكاساته على حماية الوطن واستقراره، وذلك لأن هذا المواطن إذا شعر بالتضييق عليه في قناعاته الفكرية، ومعتقداته الدينية، ووجد نفسه ممنوعا من أداء شعائره، وألفى أماكن عبادته مهددة بالإغلاق، أو الهدم، أو التحويل إلى مرافق أخرى، كان أداة تخريب ومِعْوَل هدم لهذا الوطن الذي لم ينعم فيه بحريته،

ويرى أنه اعْتُدِي على صرحها المصون، وحصنها المشيد، فقد يلجأ إلى الكيد لهذا الوطن بطلبه الحماية من أطراف أجنبية، كما يشوه صورته على مستوى منظمات حقوق الإنسان، متهما إياه بخنق الحريات، والاعتداء على القناعات الشخصية، وقد يصل به الأمر إلى التنسيق مع مواطنيه من منتحلي ملّته إلى المغالبة من أجل الحصول على هذه الحرية، وقد يبلغ الأمر مداه، إلى حد رفع السلاح في وجه الآمنين، ووضع القنابل والمتفجرات في ربوع دور عبادة المسلمين انتقاما من تضييقاتهم، ما ينتج عنه سقوط أرواح بريئة، وسفح دماء معصومة، وهذا كله ينعكس سلبا على أمن الوطن وحمايته واستقراره.

ثالثا: قيم الإسلام في التعايش مع مواطنيه من أصحاب الملل المختلفة وأثرها في حماية الوطن: لقد أماط الإسلام اللثام لأتباعه عن كيفية التعامل مع مخالفيهم ممن يقاسمونهم وطنا واحدا، حاثا إياهم على التعايش، والتآلف، موطدا به جملةً من الضوابط التي تدعم هذا التعايش، وتتمثّلُ في: ضابط قيم الكرامة الإنسانية بوصفها أساسًا للتعايش: وهو ما يؤكده: «أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّتْ بِهِ جِنَازَةٌ، فَقَامَ، فَقِيلَ: إِنَّهُ يَهُودِيٌّ فَقَالَ: أَلَيْسَتْ نَفْسًا». «وضابط قيم العدل كأساس للتعايش: يعزز ذلك ما رواه جَابِرُ بْنِ عَبْدِ الله أَنَّهُ قَالَ: أَفَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْبَرَ عَلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَقَرَّهُمْ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا كَانُوا وَجَعَلَهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ فَبَعَثَ عَبْدَ الله بْنَ رَوَاحَةَ فَخَرَصَهَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ أَنْتُمْ أَبْغَضُ الْخَلْقِ إِلَيَّ قَتَلْتُمْ أَنْبِيَاءَ الله عَزَّ وَجَلَّ وَكَذَبْتُمْ عَلَى الله، وَلَيْسَ يَحْمِلُنِي بُغْضِي إِيَّاكُمْ عَلَى أَنْ أَحِيفَ عَلَيْكُمْ، قَدْ خَرَصْتُ عِشْرِينَ أَلْفَ وَسْقٍ مِنْ تَمْرٍ، فَإِنْ شِئْتُمْ فَلَكُمْ وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلِي فَقَالُوا: بِهَذَا قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، قَدْ أَخَذْنَا فَاخْرُجُوا عَنَّا». وضابط قيم المساواة بوصفها أساسًا للتعايش: ويبرز ذلك في تساوي الكل في الإنسانية، وأصل النشأة، لقوله صلى الله عليه وسلم: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ..».

إن لهذه القيم أهميتها الكبرى في ترقية حماية الوطن، وذلك لأن هذا المواطن غير المسلم حينما يشعر بإهدار كرامته الإنسانية، والانتقاص من بشريته، وعدم العدل في التعامل معه، وتصنيفه مواطنًا من الدرجة الثانية، لا شك أن هذا سيولّد فيه عقدا نفسية، تعود بالوبال على أمن الوطن وحمايته؛ إذ تجعل منه مواطنا حاقدا، مستعدا لخيانة هذا الوطن، وتخريب مقدراته، والثأر ممن كان سببا في إهدار كرامته، ومعاملته معاملة تمييزية، جعلته يشعر بالضيم، وعدم المساواة مع مواطنيه، وهذا كله يفضي إلى زعزعة الأمن، والطمأنينة، والحماية التي ينعم بها هذا الوطن، مما يجعلنا نقول جازمين بأن تمثّل هذه القيم بين ساكنة الوطن الواحد، هي بمثابة صمام الأمان، لاستقرار الأوطان وحمايتها.

وختاما نقول: إن ترسيخ الإسلام مبدأ احترام التعايش السلمي، وحق المواطنة، وكفالة الحريات الدينية وتجسيد قيم الكرامة، والعدل، والمساواة في التعامل مع مخالفيه، يعد مرتكزا أساسيا، وقاعدة صلبة، وحصنا منيعا لتأثيل مقومات تعايش ديني، مفض لحماية الوطن، وتعميق سبل أمنه واستقراره.

حمايةُ الوَطن في السُّنَّة النَّبَوِيَّة
المَبادِئُ والمُنطَلَقات

د. كريمة محمد سوداني

أستاذ مساعد زائر في الجامعة القاسمية – الشارقة (الجزائر)

خلقَ اللهُ تعالى آدمَ عليه السلام وابْتلاهُ بالأكْلِ من شَجَرَةِ الجنَّة التي كانت البدايةَ لاستخلافه في الأَرْض، بإعمارِها وتَطبيقِ هُدى الله تعالى، فقال عَزَّ من قائل: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة: ٣٦ - ٣٨)، فَقَدْ عَبرّ الحقُّ سُبحانه عن سُكنى آدمَ عليه السلام وذُرِّيَّته في الأرض بلفظ الاستقْرار، وهو من القَرار، أي: الثَّبات والأمْن والاستقْرار، دلالةً على أنّ كلَّ إنسانٍ سواء أكان فردًا أم جماعةً لا بُدّ له من مكانٍ يعيشُ فيه، ويكونُ له مَوْئلًا يَنْعَمُ فيه بالحياةِ الهنيئة.

مِنْ هنا جاءتْ فكرةُ الأوطانِ، والتي تُعدُّ حمايتُها مَقْصدًا شرعيًّا لا غِنًى عنه في قيام حياةِ الأفرادِ والمجتمعات، وقدْ جاءتِ الشريعةُ الإسلاميّةُ الغرّاءُ بما يضمنُ السّلامةَ والأمْنَ والأمانَ في ظلّ تِلْكَ الأوْطان، لأنّ حُبَّ الوَطَنِ ليس مجرّدَ دعوى باللِّسانِ لا يصدِّقُها إيمانٌ بالقلبِ أو عملٌ بالجِنان، بَلْ ينبغي أن يُبنى على أسُسٍ ومبادئَ ومنطلقاتٍ يَتَّفقُ عليها أبناءُ المجتمعِ الواحد، وأفرادُ الأمَّةِ الواحِدَةِ، لِتَنالَ حَظَّها مِنَ التَّطبيقِ في الواقعِ العَمَلي.

ومجموعةُ الأفرادِ الذين يعيشونَ في وَطَنٍ واحِدٍ إنّما تحكُمُهُم صِفَةُ المُواطَنَة العامَّةِ في الإسلام، التي من أُسُسِها:

١- **الأُخُوَّةُ الإنْسانيَّة**: وهي التي يُعبَّرُ عنها بوَحْدَةِ الأصْلِ وَالمَنْشَأ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء: ١).

٢- **الأُخُوَّةُ الدينيَّة**: قالَ صلى الله عليه وسلم فيما يرويهِ عنه عبدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ

رضي الله عنهما: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ؛ لاَ يَظْلِمُهُ، وَلاَ يُسْلِمُهُ...»[1].

فهذان الأساسان كفيلان بجعْل جميع أفراد المجتمع الإسْلاميِّ الواحد، والذين يَسْكُنونَ وطنًا واحدًا، يَتعاوَنونَ ويَتَّحدونَ على تَقديم كُلِّ ما هو نافعٌ ومُفيدٌ، ويُسْهِمُ في ازْدِهارِ البلاد والعِباد؛ ومن ثمّ تتجلّى ركائزُ حمايَة الوَطَن في مَنْعِه من كلّ ما يؤذيه أو يضرُّهُ؛ إنْ من النّاحيَة المادِّيَّة أو المعْنَويَّة، وهذه الحمايَةُ التي يحتاجُها الوَطَنُ، إنّما هي نتاجُ ما يبذُلُهُ مُواطنوهُ من جُهد وكَدٍّ وعَمل؛ إذ التَّدافُعُ سُنَّةُ الله في خَلْقه، والدِّفاعُ عن الأوطان واجبٌ مَنوطٌ بساكنيه؛ أفرادًا وجماعات، الذينَ تَرْبِطُهُمْ وَشائجُ حُبِّ الوَطَن، والتَّفاني في خِدْمته، والعَمَل على اسْتِقْراره وتَطَوُّره، ولازِمُ ذَلكَ أنَّ الوَطَن مُهِمٌّ لكلٍّ من الفَرْد والمجتمع، وتتجلى هذه الأهمّيَّة في سبع نِقاط، يمكن أن نجملها في الآتي:

١- **إشْباعُ الحاجَة الفطْريَّة لحُبِّ الوَطَن**: فَعَنْ أَنَس رضي الله عنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، فَأَبْصَرَ دَرَجَاتِ[2] المَدِينَةِ، أَوْضَعَ نَاقَتَهُ، وَإِنْ كَانَتْ دَابَّةً حَرَّكَهَا»، وفي زيادة: «حَرَّكَهَا مِنْ حُبِّهَا»[3].

٢- **إشاعَةُ وشائجِ الأُلْفَة والتَّآلُف**: وما ينعكسُ من خلالِها على المجتمع مِنَ الوَحْدَة والتَّعاوُن والإخاء، فعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لـمَكَّةَ: «مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلَدٍ، وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ»[4].

٣- **تَوْفيرُ الأَمْنِ والأمان**: قال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ

١- مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: البخاري، المَظالم وَالغَصْب، بَابٌ لاَ يَظْلِمُ المُسْلِمُ المُسْلِمَ وَلاَ يُسْلِمُهُ، حديث رقم: ٢٤٤٢؛ ومسلم، الْبِرّ وَالصِّلَة وَالْآدَاب، بَابُ تَحْرِيم الظُّلْم، حديث رقم: ٢٥٨٠.

٢- أي طرقها المرتفعة. انظر: ابن حجر، فتح الباري، ٣/ ٦٢٠.

٣- البخاري، أبواب العمرة، بَابُ مَنْ أَسْرَعَ نَاقَتَهُ إِذَا بَلَغَ المَدِينَةَ، حديث رقم: ١٨٠٢.

٤- الترمذي، أبواب المناقب، باب في فضل مَكَّةَ، حديث رقم: ٣٩٢٦. قال الترمذي: «حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ».

آمِنًا في سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا»[1].

٤- **التَّمَتُّعُ بِرَغَدِ العَيْشِ**: فَقَدْ دَعا نبيُّنا الكريمُ صلى الله عليه وسلم لوَطَنِه الجديد المدينة المنوَّرَة بالخير والبرَكَة، فقال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ بِالْمَدِينَةِ ضِعْفَيْ مَا جَعَلْتَ بِمَكَّةَ مِنَ البَرَكَةِ»[2].

٥- **الاسْتِقْرارُ النَّفْسيّ والأُسَريّ**: لَفَتَ إلى هذا المعنى حديثُ النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يرويه مَالِكُ بْنُ الْحُوَيْرِثِ قَالَ: «أَتَيْنَا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ لَيْلَةً، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَحِيمًا رَقِيقًا، فَظَنَّ أَنَّا قَدْ اشْتَقْنَا أَهْلَنَا، فَسَأَلَنَا عَنْ مَنْ تَرَكْنَا مِنْ أَهْلِنَا، فَأَخْبَرْنَاهُ، فَقَالَ: «ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ، فَأَقِيمُوا فِيهِمْ وَعَلِّمُوهُمْ، وَمُرُوهُمْ، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ، ثُمَّ لِيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ»[3].

٦- **تَحقيقُ مَبْدأ التَّعاوُنِ على الخيرِ بين أفراد المجْتَمَع الواحِد**: وَصَفَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم الابْتِعادَ عن الوَطَنِ بأنَّه قِطْعَةٌ مِنَ العذابِ، لما له من تأثيرٍ سلبي على المسافرِ، وعلى مَن ترَكَ وراءَه، قال صلى الله عليه وسلم: «السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ العَذَابِ، يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَنَوْمَهُ، فَإِذَا قَضَى نَهْمَتَهُ[4]، فَلْيُعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ»[5].

١- أخرجه من رواية سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ محْصَنٍ الخَطْمِيِّ، عَنْ أَبِيه: البخاري في الأدب المفرد، ص١١٢ (٣٠٠)؛ والترمذي، أبواب الزُّهد، حَدِيث رقم: ٢٣٤٦، وقال: حَسَنٌ غَرِيبٌ.

٢- البخاري، فَضَائل المدينَة، بَابُ المَدِينَةُ تَنْفِي الخَبَثَ، حديث رقم: ١٨٨٥.

٣- مُتَّفَقٌ عَلَيْه واللفظ لمسلم: البخاري في مواضع، منها: الأذان، بَابُ الأَذَانِ لِلْمُسَافِرِ إِذَا كَانُوا جَمَاعَةً وَالإِقَامَةِ، حديث رقم: ٦٣١؛ ومسلم، المساجد ومواضع الصلاة، بَابُ مَنْ أَحَقُّ بِالإِمَامَةِ، حديث رقم: ٦٧٤.

٤- أي حاجَتَه. انظر: شرح النووي على مسلم، ١٣ / ٧٠.

٥- مُتَّفَقٌ عَلَيْه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، واللفظ للبخاري: البخاري في مواضع، منها: أَبْوَابُ العُمْرَة، بَابٌ: السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ العَذَابِ، حديث رقم: ١٨٠٤؛ ومسلم، الإمارة، بَابُ السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ، وَاسْتِحْبَابِ تَعْجِيلِ الْمُسَافِرِ إِلَى أَهْلِهِ بَعْدَ قَضَاءِ شُغْلِهِ، حديث رقم: ١٩٢٧.

٧- **الكَرامَةُ وحِفْظُ الحقوق**: فإنَّ هِجْرَةَ نبيِّنا الكريم صلواتُ ربي وسلامه عليه إلى المدينة لم تكنْ لولا إيذاءُ قومه له ولمن آمَنَ مَعَهُ، بَلْ إنَّ الرَّسولَ صلى الله عليه وسلم كان قَدْ أَمَرَ صحابَتَهُ بالهجرة إلى الحَبَشة، فكان ممّا قاله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لاَ يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ، فَالْحَقُوا بِبِلاَدِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ»[١].

وهذه الأهميّةُ للوَطَن تَسْتَدْعي من كلِّ إنسان يعيشُ في وَطَنِه أن يَرْعى حُقوقَه، ويُبادرَ لحمايَتِه والذَودِ عنه ضِمْنَ مَبادِئَ وَمُنْطَلَقاتٍ، هي:

١- **عِبادَةُ الله الواحد الأَحَد على أرضه**: ففي حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما المُتَّفَق عَلَيْه: «لا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْح، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا»[٢]، والمقصودُ بـ «لا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْح»، أي فَتْح مَكَّةَ، لأنها صارَتْ دارَ إسْلام، ولا حاجةَ إلى الهِجْرَة منها[٣]، وعليه فإنَّه متى ما استطاعَ المسلمُ القيامَ بحقوقِ الله تعالى في الأرضِ التي يعيش فيها فثمّةَ وطنُه الذي يَلْزَمُه.

٢- **حُبُّ الوَطَن بكامل مَكْنوناته**: روى لنا الصَّحابيُّ أبو حُمَيْد الساعديّ رضي الله عنه، قَالَ: «أَقْبَلْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، حَتَّى إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى المَدِينَةِ قَالَ: «هَذِهِ طَابَةُ[٤]، وَهَذَا أُحُدٌ، جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»»[٥].

١- من حديث أم سلمة رضي الله عنها، أخرجه: أحمد، المسند، حديث رقم: ١٧٤٠؛ والبيهقي، السنن الكبرى، حديث رقم: ١٨١٩٠. قال الهيثمي عن حديث أحمد: «رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ غَيْرَ [محمد بن] إِسْحَاقَ -أي عن مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِم بْنِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ شِهَابٍ-، وَقَدْ صَرَّحَ بِالسَّمَاعِ». مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٦ / ٢٤-٢٧ (٩٨٤٢).

٢- البخاري في مواضع، منها: الجِهَاد وَالسِّيَر، بَابُ فَضْلِ الجِهَادِ وَالسِّيَرِ، حديث رقم: ٢٧٨٣؛ ومسلم، الحجّ، بَابُ تَحْرِيمِ مَكَّةَ وَصَيْدِهَا وَخَلاَهَا وَشَجَرِهَا وَلُقَطَتِهَا، إِلَّا لِمُنْشِدٍ عَلَى الدَّوَامِ، حديث رقم: ١٣٥٣.

٣- انظر: ابن حجر، فتح الباري، ٦ / ٣٨، ١٩٠.

٤- أي المدينة، وطابة من الطيب، وقيل: هو من الطِّيب، بمعنى الطاهر؛ لخُلُوصها من الشِّرك وتطهيرها منه. انظر: ابن الجزري، النِّهاية في غريب الحديث والأثر، ٣ / ٣٣٣.

٥- مُتَّفَقٌ عَلَيْه، واللفظ للبخاري: المغازي، بَابٌ من بَابُ نُزُولِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحِجْرَ، حديث رقم: ٤٤٢٢؛ ومسلم، الحجّ، بَابُ أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ، حديث رقم: ١٣٩٢.

٣- **الدُّعاءُ لِلْوَطَنِ**: حَفلَت الأحاديثُ النَّبَويَّة الشريفةُ بدُعائه صلى الله عليه وسلم للمدينة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُؤْتَى بِأَوَّلِ الثَّمَرِ، فَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وَفِي ثِمَارِنَا، وَفِي مُدِّنَا، وَفِي صَاعِنَا، بَرَكَةً مَعَ بَرَكَةٍ»[١].

٤- **الدِّفاعُ عنه ضدّ الأَعْداء**: فقد دافعَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم وصَحابَتُهُ عَن مَدينَتِهم، وَخَيْرُ مثال على ذَلكَ غَزْوَةُ الخَنْدَقِ، حَيْثُ شارَكَ صلى الله عليه وسلم بِنَفْسِهِ في حَفْرِ الخَنْدَقِ.

٥- **المحافَظَةُ على المكاسبِ والثَّرَواتِ والمُمْتَلَكات**: إنَّ أُصولَ الشَّريعَةِ الغَرّاءِ إنَّما جاءَتْ مُراعِيَةً لحاجاتِ العباد، فَدَلَّتْ بعُمومِها وخُصوصِها على جَلْبِ كُلِّ مَصْلَحَة، ودَرْءِ كُلِّ مَفْسَدَة، وقدْ أَرْشَدَنا رَسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى الحفاظِ على الثَّرَواتِ المُتاحَة، في مِثْلِ قَوْلِهِ صلى الله عليه وسلم: «لَا تَتَّخِذُوا شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا»[٢].

٦- **المساهَمَةُ في بناءِ الوَطَنِ وخدْمَته**: فالإنسانُ إنّما خُلِقَ لعمارَةِ الأَرْض، وقد جاء في الحديث المُتَّفَق عَلَيْه، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا؛ فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ، أَوْ إِنْسَانٌ، أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ»[٣]، والغرسُ عظيمُ الفوائدِ على صاحبِهِ وعلى مُجْتَمَعِهِ ووَطَنِه.

١- مسلم، الحجّ، بَابُ فَضْلِ الْمَدِينَة، وَدُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا بِالْبَرَكَةِ، وَبَيَانِ تَحْرِيمِهَا، وَتَحْرِيمِ صَيْدِهَا وَشَجَرِهَا، وَبَيَانِ حُدُودِ حَرَمِهَا، حديث رقم: ١٣٧٣.

٢- أخرجه من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: مسلم، الصَّيْد وَالذَّبَائِح وَمَا يُؤْكَلُ مِنَ الْحَيَوَانِ، بَابُ النَّهْيِ عَنْ صَبْرِ الْبَهَائِم، حديث رقم: ١٩٥٧.

٣- البخاري، المزارَعَة، بَابُ فَضْلِ الزَّرْعِ وَالْغَرْسِ إِذَا أُكِلَ مِنْهُ، حديث رقم: ٢٣٢٠؛ ومسلم، الْمُسَاقَاة، بَابُ فَضْلِ الْغَرْسِ وَالزَّرْعِ، حديث رقم: ١٥٥٣.

٧- **الالْتِزامُ بمبادئه وَقَوانينه**: كان من أوائل المُنْجَزات التي قامَ بها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم عِنْدَ مَقْدمه المدينَةَ، هو وَضْعُ المبادئ التَّنْظيميَّة لحياة المجْتَمَع الإسلاميِّ الجَديد، قَالَ النَّبيّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْه وَسَلَّمَ: «الْمَدينَةُ حَرَمٌ مَا بَيْنَ عَيْرٍ إلَى ثَوْرٍ[١]، فَمَنْ أَحْدَثَ فيهَا حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدثًا، فَعَلَيْه لَعْنَةُ الله وَالْمَلَائكَة وَالنّاس أَجْمَعينَ، لَا يَقْبَلُ اللهُ منْهُ يَوْمَ الْقيَامَة صَرْفًا وَلَا عَدْلًا، وَذمَّةُ الْمُسْلمينَ وَاحدَةٌ، يَسْعَى بهَا أَدْنَاهُمْ، وَمَن ادَّعَى إلَى غَيْرِ أَبيه، أَو انْتَمَى إلَى غَيْرِ مَوَاليه، فَعَلَيْه لَعْنَةُ الله وَالْمَلَائكَة وَالنّاس أَجْمَعينَ، لَا يَقْبَلُ اللهُ منْهُ يَوْمَ الْقيَامَة صَرْفًا، وَلَا عَدْلًا»[٢].

٨- **حفْظُ الأَمْن العامّ**: الأَمْنُ العامُّ منَ المبادئ شَديدة الخُطورة في ثَبات المجْتَمَع وَاسْتقْرار أيِّ دَوْلة، ولذَلكَ جاءَ في السُّنَّة النَّبَويَّة تَعْظيمُ جَزاء مَن يَسْهَرُ على حفْظ أَمْن البلاد، فَقال صلى الله عليه وسلم: «عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ منْ خَشْيَة الله، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ في سَبيل الله»[٣].

٩- **التَّعايُشُ وَوَحْدَةُ المجْتَمَع**: جاءَت النُّصوصُ الشَّرْعيَّةُ بالحَثِّ على وَحْدَة المجْتَمَع الإسْلاميّ، فقد قالَ صلى الله عليه وسلم: «تَرَى الْمُؤْمنينَ في تَرَاحُمهمْ وَتَوَادِّهمْ وَتَعَاطُفهمْ، كَمَثَل الجَسَد، إذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائرُ جَسَده بالسَّهَر وَالْحُمَّى»[٤]. وكما أنَّ لِلْمُسْلمينَ عَلاقاتهم الموَحَّدَة، فَبَيْنَهمْ وبَيْنَ

١- أمّا عَيْرٌ: فقيل جَبَلٌ معروفٌ بالمدينة، وأمّا ثَوْر فاستُشكل؛ لما اشْتُهِرَ أنّه جبلٌ بمكة، حتّى قيل: إنّه وهم من الراوي، وقد فُسِّرَ بعدّة تفسيرات، أحسنُها أن يكون جَبَلا صغيرا خَلف جبل أُحُد بالمدينة، ولم يكن معروفا. انظر: شرح النووي، ٤ / ٨٢؛ وفتح الباري، ٤ / ٨٤.

٢- مُتَّفَقٌ عَلَيْه، واللفظ لمسلم: البخاري في مواضع، منها: فضائل المدينة، بَابُ حَرَم المَدينَة، حديث رقم: ١٨٧٠؛ ومسلم، الحجّ، بَابُ فَضْل المَدينَة، وَدُعَاء النَّبيّ صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّمَ فيهَا بالْبَرَكَة، وَبَيَان تَحْريمهَا، وَتَحْريم صَيْدهَا وَشَجَرهَا، وَبَيَان حُدُود حَرَمهَا، حديث رقم: ١٣٧٠.

٣- الترمذي وحسّنه، فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله، حديث رقم: ١٦٣٩.

٤- مُتَّفَقٌ عَلَيْه من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما، واللفظ للبخاري: البخاري، الأدب، بَابُ رَحْمَة النّاس وَالبَهَائم، حديث رقم: ٦٠١١؛ ومسلم، البِرِّ وَالصِّلَة وَالآدَاب، بَابُ تَرَاحُم المُؤْمنينَ وَتَعَاطُفهمْ وَتَعَاضُدهمْ، حديث رقم: ٢٥٨٦.

غَيْرِهِمْ ممَّن يَعيشونَ عَلى أَرْضِهِمْ وفي وَطَنِهِمْ عُهودٌ ومواثيقُ تَضْمَنُ التَّعايُشَ السِّلْمِيّ، وتَبادُلَ المنافعِ بما يَكْفُلُ حُقوقَ كُلِّ طرفٍ.

ممّا سبق، نَخْلُصُ إلى أنَّ الوَطَنَ نِعْمَةٌ، وحُبّهُ بِكُلِّ ما فيه نِعْمَةٌ أُخْرى، تَسْتَوْجِبُ الحَمْدَ والشُّكْرَ لله تعالى، بَلْ إنَّ حُبَّ الوَطَنِ فِطْرَةٌ في كُلِّ إنْسانٍ، وهو ما يُعزِّزُ قيمَةَ الانْتماءِ والتَّفاني في خِدْمَتِه وخِدْمَةِ أَبْنائه. وكذلك الحِفاظُ على مُقَدَّراتِ الوَطَنِ، والمساهمَةُ في بِنائه شَرَفٌ لِكُلِّ مُنْتَمٍ إليه، ومَبْدَأٌ مِنْ مَبادِئِ القِيامِ بِواجِبِ شُكْرِ الله تعالى على هذه النِّعْمَةِ.

وحتى يَسْتَمرَّ هذا الحُبُّ للوَطَنِ، ويسْتَمِرَّ الاهتمامُ بخدمته وتطويره، والحفاظِ عليه، والقيام بحقوقه، لا بدّ من ربطِ الأبناءِ بالوطنِ، وبثِّ الوعي وتَنْمِيَةِ الحِسِّ الوَطَني في نفوس الناشِئَةِ، قولًا وعملًا، مِنْ خِلالِ تَضافُرِ جُهودِ الآباءِ والأُمَّهاتِ، ومختَلَفِ المؤسَّساتِ التربوية والتعليمية والثَّقافيّةِ والاجتماعية.

حَفِظَ اللهُ أُمَّتَنا وأَوْطانَنا، ووفَّقَنا لما فيه خيرُها وصلاحُها ورِفْعَتُها.

تعزيز الانتماء
وأثره في حماية الوطن من خلال الهدي النبوي

د. شفيق عبد القادر لامة

أستاذ أصول التربية الإسلامية، وتاريخ الأديان،

كلية الآداب / جامعة الحسن الثاني (المغرب)

إن حماية الفرد لوطنه حماية لنفسه وصون لقيمة وجوده، وعدم استقرار الوطن مؤذن بل مهدد لوجود الفرد، ومؤشر على اختلال أحواله وعدم انتظام شؤونه.

ولذلك ما أحوج المجتمعات الإسلامية اليوم إلى إيلاء مزيد من العناية لبناء الفرد الواعي بأدواره في الحياة اتجاه مجتمعه ووطنه وتعزيز انتمائه إلى هذا الأخير ليكون إيجابيا في شتى مواقفه وسلوكاته بما يجعله حريصا على أداء شتى مسؤولياته في اتجاه ضمان أمن واستقرار وطنه.

واعتبارا للأهمية القصوى التي يكتسيها تعزيز الانتماء في حماية الوطن، كان من الطبيعي أن تحتفي السنة النبوية بهذا الأمر باعتبارها الإطار الشمولي الناظم لشتى القيم والمبادئ التي ترتقي بالفرد للاضطلاع بدوره في خدمة وطنه وترسيخ تعلقه به.

ولئن كان الارتباط بالوطن أمرا فطريا في الإنسان، فإن السنة النبوية جاءت بما من شأنه تحريك هذا الشعور الفطري وتنميته وترسيخه ليزداد الفرد حرصا على النزعة الإيجابية في مختلف علاقاته بمجتمعه ووطنه.

والمتتبع لأطوار السيرة النبوية يجدها غنية بالأحداث والوقائع التي تنبض بالدروس والعبر التي ترفع الفرد إلى أعلى مقامات اعتزازه بالانتماء إلى وطنه، ففي المرحلة المكية انصرف اهتمام الرسول ﷺ إلى بناء دولة الأفراد في قلوب أتباعه بما رسخ فيهم من قيم راقية وعقائد ربانية، ولما هاجر إلى المدينة انتقل إلى بناء دولة المؤسسات، وبعناية الوحي الإلهي، تجسدت تلك العقائد والقيم والتعاليم في مدينة رسول الله ﷺ بعد مهاجره إليها، فبدأت الملامح الكبرى لبناء الوطن تلوح من خلال جملة من التشريعات الراشدة لسلوكات أفراد المجتمع اتجاه وطنهم بما يجعلهم معتزين بالانتماء إليه وحريصين على بنائه وحمايته.

لقد حل النبي ﷺ بالمدينة وهي يومئذ مجتمع متنوع قبليا وعقديا، فكان من مهامه عليه السلام مواجهة هذا الواقع بالبحث عن المقومات والدعائم التي سيؤسس عليها الدولة الناشئة، فكان لابد من ترتيب البيت الداخلي بما يحقق تماسك الجماعة المسلمة، ثم البحث عن المشترك الذي يجمع هذه الجماعة بباقي مكونات المجتمع في إطار وحدة الوطن على أساس مبدأ التعايش والتفاعل الإيجابي والبناء.

وهكذا كانت الأخوة الإيمانية الأساس الذي بنى عليه رسول الله ﷺ لحمة الجماعة المسلمة حتى قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**».[1] وما ذلك إلا لكون الإيمان إذا وقر في القلب أثمر المحبة والألفة بين أفراد الوطن، فحافظوا عليه، صونا لأخوتهم وتضامنهم، ورعاية لأمنهم واستقرارهم.

وإذا كانت الأخوة الإيمانية إنما تشمل من كانوا ينتسبون إلى العقيدة الإسلامية لقوله تعالى: «**إنما المؤمنون إخوة**»[2]، فإن الأخوة الوطنية تتسع لتشمل المسلمين وغيرهم من مكونات المجتمع بما يجعل الجميع متفاعلين تفاعلا لا يلغي الخصوصية في الرؤى والتصورات والقناعات، والجميع أمام الوطن متساوون في أداء الحقوق والنهوض بالواجبات، ولذلك فمسؤولية الكل القيام بأدوارهم بما يخدم حماية الوطن وأمنه.

إن الاستقرار الاجتماعي الذي يتمتع به أي وطن من الأوطان، هو حتما منبثق يقينا من الشعور بالعدالة النفسية والاجتماعية التي يحسها أفراده، و التي لا تقيم تمييزا بين أفراد الوطن بحيث لا تفرق بين قوي وضعيف، ولا بين شريف

١- متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له: كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، (ج١ / ١٢ (ح١٣)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب نفي الإيمان عمن لا يحب لأخيه وجاره ما يحب لنفسه. (ج١ / ص٤٩ / ح٧٩)

٢- سورة الحجرات الآية ١٠

ووضيع ... فيتحقق في ظل ذلك ما يسمى بقانونية وشرعية معاملات الأفراد فيما بين بعضهم بعضا، بما يحفظ تماسك الجماعة، وتلك كانت الغاية المنشودة التي حرص النبي ﷺ على بلوغها في المجتمع الإسلامي الناشئ، وذلك من خلال ما كان يوجه إليه الأفراد في المجتمع المدني من سلوكات ومعاملات تحفظ حقوقهم وتحمي وحدتهم وتعزز انتماءهم إلى وطنهم.

ولا غرو، فإن تمتيع الفرد بحقوقه هو السبيل الكفيل بجعله عنصرا إيجابيا في شتى علاقاته في مجتمعه، وحريصا على استتباب مبدأ السلم في وطنه، باعتبار هذا المبدأ هو الإطار الحافظ لهذه الحقوق، إذ بصيانته تصان، وبإهداره تهدر، ولا يخفى ما لحفظ الحقوق من أثر بالغ في تعزيز الانتماء للوطن وتنمية الغيرة في النفوس للحرص على حماية أمنه واستقراره.

لا شك أن استتباب السلم هو حفظ لاستقرار الوطن، لكونه الخطوة الأولى في اتجاه رعاية الحقوق، فبدون سلم لا حقوق، إذ لا يجد الإنسان قيمة لحقوقه ولا طعما لها في وطن يموج بالفتن وتعمه القلاقل، وتسود فيه أجواء عدم السلم والاستقرار، وفي ضوء هذه الحقيقة نتبين قيمة التصرفات والتدابير التي أقدم عليها رسول الله ﷺ في مجتمع المدينة لما صار للدولة الإسلامية كيانها السياسي والاقتصادي والاجتماعي[1].

لقد كان ﷺ حريصا على تأمين سلامة الوطن داخليا وخارجيا، وذلك من خلال التصدي لكل ما من شأنه أن يثير بواعث الفرقة فيعصف بالوحدة الداخلية، ونستحضر في هذا الصدد أحاديثه ﷺ في نبذ العصبية والغل والرفث، وشتى صور المعاملة السيئة المقبوحة، ثم خارجيا بانصراف جهوده ﷺ إلى اتخاذ جميع التدابير الاحترازية لحماية الوطن من كل عدوان خارجي من قبيل بثه ﷺ للعيون

١- مثل عقده لصلح الحديبية، الذي تضمن بندا تضع فيه الحرب أوزارها عشر سنوات بين المسلمين وقريش.

توقيا من كيد وتربص الأعداء، وبعثه للسرايا ترهيبا لخصوم الدعوة الإسلامية، وخوضه لعدة غزوات دفاعا عن الوطن الإسلامي، وكل ذلك إظهارا لهيبة الدولة الإسلامية وفرض سيادتها داخليا وخارجيا.

وهكذا فإن المتأمل في السيرة النبوية يجد يقينا بأن مواطني الدولة الإسلامية هم رعايا هذه الدولة حيثما وُجدوا فهم مرتبطون بها برابطة الولاء، والاعتداء عليهم اعتداء على هذا الوطن بكل مكوناته[1]، مهما اختلفت عقائد أفراده وتباينت مستويات حقوقهم وواجباتهم[2]، فحماية الوطن بالنسبة للجميع ضرورة مجتمعية يستمدون منها قيمة وجودهم وكينونتهم، فمن دون هذه الحماية

تتفكك جماعتهم وتتحلل وحدتهم وينتهي أمرهم.

لقد تبين بجلاء من خلال الهدي النبوي أن دولة الإسلام قد اجتمع لها من المقومات التي تحافظ على كيانها أكثر من أي كيان سياسي آخر، ولقد برز ذلك واضحا في سيرة رسول الله ﷺ، وإن فتور رابطة الانتماء للوطن لهي من أشد الأخطار التي تتهدد كيان المجتمعات اليوم، وفي مقدمتها المجتمعات الإسلامية بفعل ما يريده مثيرو الفتن داخليا وخارجيا من دعوات تستهدف عنصر الشباب الذي يعد القلب النابض لأي وطن، مما يطرح مسألة البحث عن الكيفية التي يمكن بها حماية هذه الشريحة الاجتماعية من أي استلاب فكري أو عقدي أو تربوي يجعلها تنحرف عن مسار الاعتدال والتوازن الفكري والنفسي السليم بما يشكل تهديدا لأمن الوطن واستقرار المواطنين، ويؤدي بالتالي إلى فتور في مشاعر الاعتزاز بالانتماء لهذا الوطن.

١- ما كان من اعتداء قريش على حلفاء رسول الله غ، وتوجههم إلى مدينة النبي عليه الصلاة والسلام وسؤالهم النصرة منه، فسارع غ إلى تلبية طلبهم ونصرتهم وتوجه إلى قريش بجيش استأصل به كفرهم، فكان فتح مكة.

٢- فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي غ قال: «من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاما» أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهدا بغير جرم، ج٤ / ص٩٩ / ح٣١٦٦

ولذلك كان واجبا على كل المؤسسات الفاعلة في تشكيل الوعي المجتمعي أن تتظافر جهودها لحفظ هذا النسيج من أية جروح داخلية أو خارجية، ونحن على يقين بأن السنة النبوية فيها من الحلول والعلاجات لمشاكلنا المعاصرة ما إن أحسنا استثماره واستغلاله، كان بمثابة الواقي لسلامة الوطن والضامن لتماسكه ووحدته.

الاعتدال الفكري وأثره في حماية الوطن

(دراسة تأصيلية في ضوء السنة النبوية)

د. سعيد بن أحمد بوعصاب

أستاذ العلوم الشرعية، بكلية العلوم الشرعية،

السمارة، جامعة ابن زهر (المغرب)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين.
وبعد،

فلا يَخْفَى أن حماية الوطن من مقاصد الدين، إذ بحفظه ورعايته يتم الاستقرار، ويفشو السلام، ويتحقق الأمان، وحماية الوطن لا تتحقق بسد الثغور فحسب، ولا بالرباط على الحدود، ودرء الخطر المادي المتمثل في الغازي والمعادي فقط، بل تتجلى أيضا في تنشئة المواطنين على الاعتدال والتسامح، والتساكن والتعايش، وقبول الآخر، والاعتراف بالمخالف، والاعتدال في الأفكار والمعتقدات، وحمل الناس على منهج الوسط، والنأي عن الانحلال والانفلات والغلو والتنطع والشطط، والناظر في متن السنة النبوية وفقهها يقف على الجم الغفير من التوجيهات النبوية التي تعد بمثابة التأصيل لهذا الفقه الخاص، ولهذا المقصد السامي، وهذا أمر يتطلب بذل مزيد من الجهود في المصادر الشرعية الأصلية لاستخراج الهدى المنهجي منها، وإفراغه في البرامج التربوية، والمناهج الدراسية العامة، بغية بث الوعي الشامل بفكر الوسطية والاعتدال، الذي هو منهج الإسلام العام، وسمته المميزة، وطبيعته الفطرية.

رسمت السنة النبوية ركائز الاعتدال الفكري، وهي:

أولا: الفطرة: فقد بينت السنة النبوية أن الإنسان مجبول على الفطرة، والفطرة تعني الاعتدال في الخلق والنفس، والاستقامة في الصورة، «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ»، فإذا كان أصل الإنسان قائما على الفطرة، فإن الدين في حد ذاته هو «الفطرة»، وهكذا يقع الانسجام والالتئام بين خلق الإنسان الصوري والطبعي والنفسي، وبين منهجه التعبدي والشرعي، فكل ذلك قائم على «الاعتدال السوي»، الذي هو الأصل في منهج الله، وسنته في الخلق والأمر.

ثانيا: العقل: وذلك لما له من دور وأثر في الحيلولة بين الإنسان، وبين ما يوبقه

ويهلكه، وإنما سمي عقل الإنسان الذي فارق به الحيوان عقلا لأنه يعقله، أي يمنعه من التورط في الهلكة، كما يعقل العقالُ البعير عن ركوب رأسه»[1]. ، وإنما يحمل العقل صاحبه على الاعتدال، ويمنعه، من الانحلال والغلو، إذا تمت حمايته من المؤثرات الحسية، كالمخدرات، والخمور، وغيرها مما يؤثر وجوده في السلم المدني، والإضرار بالوطن ومصالح المواطنين، وحمايته من «المؤثرات المعنوية» كالأوهام، والخرافات، والجهل، والتقليد الأعمى، والظن السيء، والهوى، والأفكار المنحرفة المائعة المتحللة، أو المتشددة المتنطعة، وتنميته بالمعارف والعلوم النافعة.

ثالثا: التفقه في الدين: فالفقه في الدين يجعل صاحبه مدركا لما يجب أن يكون عليه في تصرفاته العامة والخاصة، لأن بصره بأمور الدين يدفعه إلى جلب المصالح الجزئية والكلية، ويزعه عن المفاسد بنوعيها أيضا.

رابعا: القيم الخلقية: وذلك لما لها من أهمية بالغة في ضبط سلوك الأفراد والجماعات، حتى إن النبي عليه الصلاة والسلام جعلها الغاية من بعثته، ومحاسن الأخلاق هي تلك التي تقوم على الاعتدال والوسطية، فتلك التي أقرها الإسلام، وأكملها النبي الكريم، وبثها في المجتمع المسلم، فمن شأنها أن تجعل المواطن المسلم محبا للخير، مؤثرا للسلم والسلام في معاملاته الخاصة والعامة، مبتعدا عن الإذاية، وإلحاق الضرر بالآخرين.

خامسا: خطاب التكليف المباشر: على جهة الطلب بنوعيه، طلب الفعل، وطلب الترك. فمن الأول نجد الأمر بالتيسير منهجا عاما في الدين كله، «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا[2].» فقوله صلى الله عليه وسلم: «يسروا» رسم لمنهج، وهو اختيار ما فيه «اليسر» من أمور الدين والدنيا. ومن النوع الثاني: نجد

١- أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تهذيب اللغة، ١ / ٢٤٠ (عقل).

٢- البخاري، كتاب العلم، باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، ح رقم ٦٩. ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، ح رقم: ١٧٣٤، وهو عنده بلفظ: وسكنوا ولا تنفروا.

أن الشدة والتعسير مرفوضة في الدين كله، «إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين[1]. «هلك المتنطعون، ثلاثا»[2]. أي: «المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم»[3].

و من أهم سمات ومظاهر الاعتدال الفكري في السنة النبوية:

أولا: في منهج التعامل مع النصوص الشرعية فهما وتنزيلا. وإنما يتم ذلك من خلال اجتناب الآفات التي تعتري بعض المتعاملين مع النصوص، من مثل: تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وهو ما يتطلب، العدالة في الحاملين للعلم والمفسرين له، وإدراك مقصد الوسطية في العلم الشرعي، مع المصداقية العلمية في نقل النصوص وفي فهمها، والتأويل الصحيح والمقبول بشروطه.

ثانيا: في الوعي بوسطية الأحكام الشرعية. وإنما يدرك فقه هذه الوسطية، من خلال الوعي برتبتها؛ إذ هي ليست متساوية في الرتبة، ولا متشابهة في سلم «الأولويات»، وإن اتفقت من جهة المصدر، والوعي بمقاديرها، ففقه القلة والكثرة في مجال الأحكام الشرعية، وضبط ميزانها من سمات الاعتدال في منهاج السنة النبوية، لأن توزيع الأحكام على المكلفين مع بيان مقاديرها، وحجمها، والتقليل منها أو التكثير فيها، على جهة الإيجاب أو الندب، كل ذلك يخضع للنظام التشريعي العام الذي روعي فيه كثير من الأبعاد، ومنها: «تزاحم الحقوق، والوعي بالثابت والمتغير فيها، فالمتتبع لمنهج النبي عليه الصلاة والسلام يلحظ أنه كان في بعض الأمور لا يقبل المساومة ولا التنازل، ولكنه في بعض الأحيان يلين، ويتسامح في بعض القضايا، وهذا من سمات «الاعتدال»، والتوسط في منهجه التبليغي والتوجيهي والإرشادي عليه الصلاة والسلام.

١- صحيح ابن حبان كما في الإحسان، كتاب الحج، ذكر وصف الحصى التي ترمي بها الجمار ح رقم: ٣٨٧١، سنن النسائي، كتاب الحج، باب التقاط الحصى. ح رقم: ٣٠٥٧.
٢- مسلم، كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، ح رقم: ٢٦ ٧٠.
٣- المنهاج شرح صحيح مسلم ١٦ / ٢٢٠.

ثالثا: في قبول الاختلاف والمخالف، سواء كان المخالف في الدين، وبخاصة إذا كان «ذميا» أو «معاهدا»، فقد حفظت السنة النبوية له كرامته، وأباحت له ممارسة عبادته وديانته، مع تمتعه بكافة الحقوق التي يتمتع بها المسلمون في المجتمع الإسلامي، وتوعدت بأشد العذاب من يتعرض له بأذى، أو كان المخالف في «فروع الشريعة»، فقبوله، والتعايش معه، والاعتداد به، وتقدير رأيه، مما تواتر أمره في السنة النبوية، أو كان الاختلاف في العادات والأعراف والتقاليد»، فهذا ما يجب أن تبنى عليه «مناهج التعليم في المؤسسات التربوية» بمختلف مراحلها، ليتشرب المتلقي «القابلية للاختلاف»، وقبول عذر المخالف، فيتسع له صدره، ويحترم اختيارات غيره الفكرية والمذهبية، ويعيش معه في وئام وسلام، في ظل احترام «الثوابت الكبرى» التي تشكل اللحمة الوطنية، والمرجعية العليا للدولة المسلمة، حتى يستقر الأمن، ويستتب السلم بمختلف أنواعه وصوره!!

وقد أشار البحث، إلى عدد من نصوص السنة النبوية التي تبرز هذه الآثار في المجال الفكري والثقافي، وذلك مثل: العناية الخاصة بالمثقفين، مهما اختلفت ديانتهم ومشاربهم، كما عبر عن ذلك حديث معاذ: «إنك تأتي قوما أهل كتاب»، وحق إبداء، والرأي والمراجعة في الكلام، كما نص على ذلك حديث عائشة، في مسألة «مناقشة الحساب»، وحديث حفصة، وسؤالها النبي عليه الصلاة والسلام، لم لم يحل من عمرته، «وقبول الحق بغض النظر عن الجهة التي صدر منها، كما عبر عن ذلك، حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، في قصة الشيطان، حيث قال: صدقك وهو كذوب.

وفي المجال الاجتماعي، وذلك من خلال عرض نصوص السنة النبوية الداعية، إلى الاعتدال والوسطية في العلاقات الاجتماعية، كالنهي عن: التحاسد، والتباغض، والتناجش، والبيع على البيع، والأمر بالأخوة، بما تحمل من معاني متعددة، وحق المسلم على المسلم، وحرمة الدم، والمال، والعرض، والنهي عن

لعن المسلم، وإن وقع في بعض المحظورات الشرعية، والاحتفاظ بمكانته وإن وقع في الأخطاء.

وفي المجال الاقتصادي حيث وجهت نصوص السنة النبوية إلى قيمة الاعتدال، بصفتها من أهم العوامل المساهمة في استقرار الوطن من هذه الناحية كالأمر بالاعتدال في البيوع، وفي إخراج قيمة الزكاة، والاعتدال مع العمال، والاعتدال في الهبة، والوصية.

وفي مجال التدبير السياسي، حيث أرشدت نصوص السنة النبوية إلى قيمة الاعتدال باعتبارها أساسا متينا، وحصنا منيعا، يحفظ كيان الوطن، ويحميه من التصدع، والانشقاق، والانحراف والانفراط، فدعت نصوص السنة، إلى توسيع مصادر السياسة الشرعية، وحفظ النظام السياسي وطاعة أولي الأمر في المعروف، والتعاون مع أجهزة الدولة للحفاظ على المصلحة العامة، والنصيحة لأولي الأمر بشروطها، والأحق بتولي مناصب الدولة من الأكفاء الأقوياء الأمناء، وعلى المستوى لخارجي، وردت نصوص تدعو إلى قيام العلاقة بين الآخر على أساس من التعاون المشترك، والدعوة السلمية القائمة على الحكمة والموعظة، والجدال بالتي هي أحسن، وهكذا يخلص البحث في النهاية إلى: ضرورة توظيف السنة النبوية في المناهج الدراسة، مع فقه أحكامها، ودراساتها دراسة موضوعية، لتصحيح الفهم، وإزالة الالتباس، ودفع الأفكار المنحرفة، وسوء التأويل، لينعم الوطن بعد ذلك كله، بالاعتدال الفكري في مفهومه العام، وفي آثاره الإيجابية.

والحمد لله رب العالمين.

قيمة المسؤوليّة وأثرُها في تعزيز الأمن الوطنيّ وحمايتِه

(دراسةٌ في ضوء الهدْي النّبويّ)

د. ماريه بسام عبابنه

أستاذ الحديث المساعد / جامعة الحدود الشمالية – السعودية (الأردن)

الحمد لله والصّلاة والسّلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وبعد،

فإنّ الأمن الوطنيّ يشكّل ركنا مهمّا في بناء الأوطان، وعاملاً أساسياً في حمايتها، كما يعدّ من أهمّ المسؤوليات المُناطة بالقادة ومن ينوب منابَهم؛ لذلك فإنّ وعي مكوّنات المجتمع بعظم هذه المسؤولية أمرٌ مهمُ في حماية الأوطان، إلاّ أنّ مفهوم المسؤولية وتطبيقاتها يحتاج إلى تقويم ليؤدي دوره في حماية الوطن، ولقد جاءت السنّة النّبوية الشّريفة بنصوصها تقرّ هذا المبدأ وتبيّن أهميته؛ ولهذا جاء هذا البحث؛ بعنوان: «قيمة المسؤوليّة وأثرُها في تعزيز الأمن الوطنيّ وحمايتِه، «دراسةٌ في ضوء الهدْي النّبويّ»، يهدف إلى تحرير مفهوم المسؤولية وتوضيح دلالاته، والكشف عن أبعاد الأمن الوطني، لبيان المنهج النّبوي في تفعيل قيمة المسؤولية للقيام بدورها في تحقيق الأمن الوطنيّ.

أوّلا: مفهوم المسؤولية، والأمن الوطني، الدلالة والأبعاد: من المهمّ أوّلاً تحرير هذه المفاهيم و بيان دلالتها؛ حيث خرجت الدّراسة بعد الجولة في الدلالات اللّغوية لمفهوم المسؤولية في اللّغة والقرآن الكريم والسنّة المشرّفة؛ بأن المسؤولية هي: «كلّ ما يُسأل عنه ويحاسب المرء عليه في الدنيا والآخرة فيما كلِّف به، أو ولّي عليه رعاية وأمانة»؛ لذلك جاء الهدي النبوي يؤكد على تلك المسؤولية، بقوله عليه السّلام: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» ليشمل جميع مكوّنات المجتمع في أداء دوره لهذه القيمة والإحساس بها حماية للدّين والأوطان وفي جميع المجالات، والتبصير فيها والمحاسبة عليها؛ و كل ذلك بما يتناسب مع القدرة والاستطاعة.

أمّا الأمن الوطني؛ فهو: «الأمان الذي يحمي الأرض الّتي يقطنها الإنسان بجميع مكوناتها، وبجميع أبعاد الأمان»، ولا شكّ أنّ هذا الوطن له عناصر ومكوّنات تشكّل كيانه وانتماءه الذي عبّر عنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-

بقوله: «قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ أَحَبَّ الْبِلاَدِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مَكَّةُ، وَلَوْلاَ أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مَا خَرَجْتُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا مِنْ حُبِّ الْمَدِينَةِ مِثْلَ مَا جَعَلْتَ فِي قُلُوبِنَا مِنْ حُبِّ مَكَّةَ، وَمَا أَشْرَفَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمَدِينَةِ قَطُّ إِلاَّ عُرِفَ فِي وَجْهِهِ الْبِشْرُ وَالْفَرَحُ».

ثانيا أبعاد الأمن الوطني في السنّة النبوية: يقول النّبي -صلّى الله عليه وسلّم-: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا». وهذا الحديث ينقلنا إلى أبعاد الأمن الوطني بأهمّ مستوياته: وأولها البعد العسكري لحفظ الأمن الوطني؛ ويظهر ذلك في قوله عليه السلام: «من بات آمنا في سربه» وهذا مناط بدور القادة والجُند في حفظ الأمن الوطنيّ، ضد أية اعتداءات خارجيّة، أو فتن داخلية؛ وثانيها؛ البعد الاقتصادي؛ وذلك بتوفير الاحتياجات اللازمة، وإدارة الأزمات في المشاكل الاقتصادية؛ ويظهر ذلك في قوله: «معافىّ في بدنه، عنده قوت يومه»؛ ولا شكّ أنّ هذه الأبعاد كلّها تتكامل مع بعضها لتعزيز الأمن الوطني والحفاظ على سلامته، قال النّبي - صلى الله عليه وسلم- معقبا: «فكأنما حيزت له الدّنيا بحذافيرها».

لذلك حرص النّبي - صلّى الله عليه وسلّم- على تحقيق الأمن الوطني في مفهومه الشامل منذ تأسيس الدّولة النّبوية على أرض المدينة المنورّة؛ بحل الأزمة الاقتصادية بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار والتأليف بين أطياف المجتمع ، وإعطائهم الأمان على دينهم وأموالهم من أصحاب الديانة وغيرها بالوثيقة النبوية.

ولا شكّ أنّ البعد النفسي أمر لا بجب إغفاله في الأمن الوطني؛ كمتطلب يسعى الإنسان إليه منذ نعومة أظفاره؛ فالأمن الوطني يتّحقق بالأمن النفسي؛ وذلك بحفظ أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- «الْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ».

ثالثا: دور السنّة النبوية في تفعيل قيمة المسؤولية لتعزيز الأمن الوطني: إنّ مسؤولية الأمن الوطني تتناول جانبين هما؛ الرّعاية والمحاسبة، استنادا إلى الأولويات في الترتيب في المسؤوليات المنوطة والتي جاء ترتيبها على نحو متسلسل في الحديث الشريف: «فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع.....».

أمّا الجانب الأول: فهو مسؤولية الرعاية لتعزيز الأمن الوطني؛ حيث تعدّ مسؤولية الرّعاية من أعظم المسؤوليات التي تحفظ الأمن الوطني في جميع أطياف المجتمع؛ فالأمة في المنظومة الوطنية على شبيه الشجرة، وصلاح كلّ أصل منها سبب لصلاح من بعده، وتأسيسا على ما سبق فإن مسؤولية الرعاية التي تقع على الحاكم في سياسة الدين والدنيا باعتباره المسؤول الأول في قمة الهرم؛ هي مسؤولية تدعوه وتحرّكه لبذل الجهد حفاظا على أمن الدولة الداخليّ والخارجيّ وفق المبادئ الشرعية، بجميع أبعاد الأمن التي أشار إليها حديث المسؤولية للقيام بواجبه بعدة مسؤوليات منها:

- رعاية الأمن الدّاخلي بتطبيق مبادئ المساواة والعدل، يقول النّبي- صلى الله عليه وسلم -«**إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا يُقِيمُونَ الحَدَّ عَلَى الوَضِيعِ، وَيَتْرُكُونَ عَلَى الشَّرِيفَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ فَاطِمَةُ فَعَلَتْ ذَلِكَ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**»، والهلاك متضمّن تهديد كل سبل الأمن المجتمعيّ الداخليّ والخارجي؛ إذ إنّ الظلم يُوغر الصّدور ويُشعل الفتن في المجتمعات؛ وبالتّالي تصبح تلك المجتمعات فريسة سهلة لأعدائها.

- رعاية الأمن الداخلي بالموازنة بين الحقوق والواجبات وتلبية متطلبات المواطنين؛ يقول النّبي -صلّى الله عليه وسلّم -: «ما من والٍ يلي رعيّة من المسلمين، فيموت وهو غاشٌّ لهم، إلاّ حرّم الله عليه الجنة».

- رعاية الأمن الوطني بتعيين الكفاءات، واختيارهم بدقة؛ حيث تتوافر فيهم الأمانة واليقظة والقوّة وإجراء عملية التّقييم والتزكية؛ «**يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ لاَ تَسْأَلِ الإِمَارَةَ فَإِنَّكَ إِنْ أُوتِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا وَإِنْ أُوتِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا**».

- الرعاية التي تتضمّن النّصح والتّبصير بالمسؤوليات الأمنية وغيرها، والتي تقي المواطن مصارع الجهل ومدارك الفتن والسوء، قال رسول - الله صلى الله عليه وسلّم-: «ما من عبد استرعاه الله رعية، فلم يُحطها بنصيحة، إلا لم يجد رائحة الجنة».

- مسؤولية رعاية الأمن العسكري لكونه متطلبًا أساسيّا لحفظ الأمن الوطني، يتطلّب من القادة والمجتمعات بذل الوسع والطاقة وبذل الأموال وتضافر الجهود للحفاظ عليه، باتّخاذ الوسائل المعنويّة والماديّة بدءا من الدّعاء والاستعانة بالله - عز وجلّ- بطلب النّصرة والإعانة «**اللهم أنجز لي ما وعدتني**»، ثمّ إعداد القّوة-: «**من جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا**»، ورفع المعنويات وتنمية العقيدة العسكرية بنفوس الجند والمواطنين والتحفيز؛ وقوله عليه السلام: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض، وأن يتقدّم القائد الصّفوف فالمسؤولية الأمنية مناطة به بحكم اختصاصه في توليها؛ لذلك كان النّبي - صلّى الله عليه وسلّم- يتقدّم الصفوف، ويباشر الطّليعة بنفسه،: «**كان النَّبِيُّ -صَلى الله عَلَيه وسَلم- أَحْسَنَ النَّاسِ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ**»، والتّخطيط الجيد، وعدم الاستعانة بالعدوّ في الأجهزة الأمنيّة، وإرسال الاستطلاعات الدّاخلية والخارجية لوقاية الأمن بنوعيه، والاهتمام بأجهزة الحراسة الأمنية؛ ويتّضح ذلك جليّا في جميع المواجهات العسكريّة الداخلية والخارجية الّتي تصدّى لها النّبي -صلّى الله عليه وسلم-؛ فالنبي عليه السلام حين أدركه رجل

مشرك ليدفع عنه قال له: «**فَارْجِعْ، فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ**».

- رعاية الأمن الاقتصاديّ من التّعدي، بحفظ الممتلكات الخاصّة والعامّة؛ وعدم التعدي عليها: «إِنَّ رِجَالاً يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ القِيَامَةِ».

الجانب الثاني: تفعيل مسؤولية المحاسبة لتعزيز الأمن الوطني: إنّ المحاسبة متطلّب أساسي في حفظ الأمن الوطنيّ؛ وقد برز دور السنّة في تفعيل مسؤولية المحاسبة لتعزيز الأمن الوطني بعدة مظاهر؛ منها:

١- محاسبة من يقوم بترويج الشائعات «مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي»، ومحاسبة اللّذين يتلاعبون في أمن الأوطان من خلال ترويع الآمنين والتّعدي عليهم، بتطبيق حكم المحاربين فيهم من القصاص وغيره من أنواع العقوبات، كما في حديث العرنيين

٢- تشكيل هيئة المراقبة لمحاسبة وتتبع الفاسدين الّذين يهددون أمن الدولة وثرواتها: «مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ فَكَتَمَنَا مِخْيَطًا فَمَا فَوْقَهُ كَانَ غُلُولاً يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، و محاسبة كل من يخلّ بالأمن الوطني بارتكاب جريمة الجاسوسيّة؛ كما في خبر الظعينة.

خرجت الدّراسة بأهم النّتائج الآتية:

- أوّلاً: المسؤولية تتضمّن في دلالاتها أمران مهمّان لا ينفصلان وهما؛ الرّعاية والمحاسبة.

- ثانياً: أقرّت السنّة النّبوية مبدأ المسؤولية في حياة الفرد والمجتمعات، وعدّته مسؤولية شاملة، وقدّمت الوسائل للإعانة عليها ولضمان تطبيقها، من خلال التّبصير بها، والتّكليف قدر الطاقة، والتّحذير من التنّصل من واجباتها.

- ثالثاً: رعت السنّة النّبوية الأمن الوطني باعتباره مسؤولية في حفظ الأوطان بجميع أبعاده الفكرية والاجتماعية والسياسية والعسكرية والإيدلوجيّة.
- رابعاً: حددت السنّة النبوية مسؤولية الرعاية التي تقع على الحاكم ومن ينوب منابه حفاظا على الأمن الوطني.
- خامساً: المحاسبة ركن مهم من أركان المسؤولية المطلوبة لحفظ الأمن الوطنيّ وتتطلّب من الولاة محاسبة كلّ من يخلّ بأمن الأوطان؛ بتشكيل هيئة المراقبة، ومعاقبة كل من يخلّ بأمن الأوطان.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

الهجرة في السنة النبوية
الحدث الأبرز في تعزيز مقوّمات حماية الأوطان

أ. لطيفة محمد علي الفارسي

باحثة في مرحلة الدكتوراة – كلية الدراسات العربية والإسلامية – دبي (الإمارات)

إنّ حماية الأوطان الوضع الطبيعي الذي فطر عليه الإنسان، وحين نربط الصلة الطبيعية بالنواحي العقدية تظهر فاعلية القيم في تعزيز صلة الإنسان بوطنه، الصلة التي تؤكد ضمان حقّ الإنسان في العيش على أرضه في أمان وعزّة وكرامة ورخاء، وحقّ حرية العبودية، وتعد مسألة الحماية من الموضوعات الملحة في السياق المعاصر، وهي موضوعات لها تعزيزاتها العقدية في القرآن الكريم وفي السنة النبوية الشريفة، وترتبط هذه الندوة بسابقتها ارتباط استلزام وتضمّن، باعتبار أنّ السلم يتضمن إقراره في كافة مناحيه حماية الأوطان، وحماية الأوطان تستلزم إقرار السلم المضايف لمفاهيم العدل والرحمة والمساواة، ومن هنا تبرز أهمية هذه الندوة في اتصالها الممتد بالندوة السابقة، وتخصص الأخيرة في القراءة النموذجية لمشروعات السلم وهي حماية الأوطان.

وتعدّ مفاهيم الوطن، والهجرة، والحماية، محيلة دلاليًا على المسألة الأساس في هذا البحث، وهي: حماية الأوطان، هذه المفاهيم أصَّلتها الشريعة الإسلامية وبيَّنتها وأظهرت التعامل معها بمفهومات ومضامين أشمل؛ فأسهمت في تشكيل مساراتها، وتجديد فاعليتها، واستثارة الوعي بها قبل المدنية المعاصرة؛ الأمر الذي يؤكد لنا أنّ الحماية أمر متأصل في الشريعة يرمي إلى تحصين المجتمعات من مسببات زعزعة الأمن، وتشتيت الجهود، وتحييد الاتجاهات نحو طرقات مهددة للأمن والإيمان.

يظهر البحث أنّ في السنة النبوية أمثلة عملية تستجلي هذه المسألة في الواقع، وتؤكد على ارتباط الإنسان بوطنه الارتباط الفطريّ الذي يبرز فيه فاعلية الإنسان في وطنه بفعل التمركز المكاني المستوجب للحقوق والواجبات: فأما الحقوق، فمنها الحقّ الأوليّ في أنْ يكون للإنسان وطن يسكن إليه، وينتمي إليه، ويُنسب له، وحقّ ملكية الإنسان للأرض يستوجب حمايته والدفاع عنه؛ لضمان استمرار فعل التملّك والتوطّن، والتحرّز والأمان. ومن أهمّ الواجبات المقررة على

الإنسان تجاه وطنه، الإحسان الذي هو قيمة تنفتح على كلّ أشكال الحفاظ على المكان وعمارته، واتخاذ كافة السبل لاستدامة العيش فيه، ويتعدى فعل الإحسان القرب المكانيّ إلى الجوار في أوطان أخرى، مع شمولية هذه المجاورة المسلم والكافر والعابد والفاسق والصديق والعدوّ والغريب والنافع والضارّ والقريب والأجنبيّ والأقرب دار والأبعد.

إنّ حدث الهجرة كان السياق الأول في السنة النبوية الذي انعكست منه مقوّمات حماية الأوطان، وقد أظهرت الهجرة أنّها فعل متناسل عن أفعال مماثلة سبقت فعل الهجرة في الإسلام، رمى إلى المحافظة على الكرامة الإنسانية التي لا تستقيم وحال الضعف الإنساني، الذي سببه الاستضعاف المؤدي إلى فقد حق الإنسان في العبودية لله تعالى وإظهار دينه الإسلاميّ، فلا يُقبل الرجوع إلى الشرك بعد الإسلام مع وجود الداعي إلى الحفاظ عليه بالهجرة. وإنّ حدث الهجرة سواء أكانت الهجرة الأولى أو الثانية إلى الحبشة كسياق حضاريّ أوليّ، انعكست منه أهمية المحافظة على الفرد كونه المكوّن الأساس للدولة الإسلامية، والمسهم في تشييدها وحمايتها من بعد قيامها، وقد اتضح من تأمين النجاشيّ للمسلمين في دياره أنّ سياق الحماية سياق مشترك بين الأمم، وأنّ الدولة المحمية محطّ اجتذاب الأفراد الطالبين للأمن، كما أظهرت أنّ حقّ الفرد في ممارسة عبادته أمرٌ يقرّه العقل قبل النقل.

والرابط بين الهجرتين الهجرة إلى الحبشة، والهجرة إلى المدينة هو الفعل الذي يحاول السياق تقريره وهو الحماية، فجاءت الهجرة النبوية إلى المدينة الحدث الحضاريّ المفصليّ الأهم في تاريخ الإسلام والمسلمين؛ إذ بسببه بدأت دولة الإسلام من الفرد المكوّن لها والحامي لذمارها، وهي السبب المهيَّأ من الله تعالى لتمكين دينه في الأرض، وبه شهد المسلمون التحوّل الجذريّ من إيذاء المشركين، إلى تأسيس الدولة الإسلامية التي احتمى المسلمون بظلها، فحُفظت

في هذه الدولة حقوقهم وكرامتهم، وتمخّض الحدث - أي الهجرة إلى المدينة- عن موقف الغلبة والسلطان تحت حكم الله ورسوله - صلى الله عليه وسلم، وقد كانت مقاصد هذا الحدث بيّنة في الحرص على حماية الفرد الذي هو أساس تمثل العقيدة فيه وبلوغ الرسالة إليه، ومن ثمّ فهو أساس الدولة التي ستنشأ على هذا الدين من بعد، وهو أساس في حماية دينه ووطنه الذي نهض بهذا الدين، وسينهض فيما بعد بالتكوين الأول للحضارة الإسلامية، وهو استشراف مستند إلى العلم الإلهيّ بضرورة تحقق الهجرة وترك الديار وانتفاء تحققها من بعد، كما يستشرف الحدث حماية أكبر بفرض الجهاد المعزّ لدين الله تعالى، وتوسع الدولة الإسلامية الذي عزّز من أمر الحماية بفتح مكة، وفي ذلك إظهار للدين على الأديان كلها، وحماية للمسلمين من العدوان.

وقد ترتب على حدث الهجرة إلى المدينة مقوّمات كانت الأساس في تأسيس دولة الإسلام في المدينة، والأساس المتين لجميع الأوطان من بعد، أسهمت إسهاما مباشرا في تقوية صرحها، وتدريعها تدرعا داخليا يحميها من زعزعة الأمن وفتنة الفرقة وما يمكن أنْ يهدد وحدتها، وأول هذه المقوّمات:

أولا: بناء المسجد وأثره في تشكيل الوعي وتوحيد الصفّ: ارتبط بناء المسجد بمسألة الإيذاء الديني المسبب الأول للهجرة في السنة النبوية، فكان ابتناؤه كأول حدث من بعد الهجرة؛ موصل إلى الظهور الديني بإعلان العبادة في أماكنها. وإذا كان المسجد قد شهد أولى التنظيمات الإدارية للدولة الإسلامية في مبدئها، فإنّه له الدور الفاعل في توحيد صفوف المسلمين، وفضّ النزاعات، وتأليف القلوب التي هي مناط الحماية الداخلية للمجتمع .

ثانيا: الحبّ المؤيد بارتباطاته العقدية مقوّم داخليّ متصل بحدث الهجرة ومعزز للّحمة الوطنية المؤدية إلى حماية الأوطان: وثاني المقومات الحبّ المؤيد بالارتباطات العقيدية كأساس داخليّ معزز للانتماء الفرديّ إلى مجتمعه ووطنه،

وما يضايفه من أشكال: الحبّ للوطن الحاضن للعقيدة والممثل لها موجب لحمايته، والحبّ فيما بين أفراد المجتمع الموجب للحماية.

ثالثا: المؤاخاة كمقوّم داخليّ معزّز لحماية الأوطان: تعدّ المؤاخاة أهمّ مقوّم إسلاميّ عمل على تقوية عماد الدولة التي تأسست على أرض المدينة، بله كان الضماد القويّ لما يستتبع من تأثيرات الهجرة في النفس من مفارقة للأهل وللوطن، ولأنّ الإنسان هو العماد الحامي للدولة كان أمر توحيد الصفوف بين فئات هذا المجتمع مسألة ضرورية في صياغة أول مقوّمات الوحدة الوطنية، ليصار حدث المؤاخاة أنموذجا حضاريا إسلاميا في انصهار جميع الأعراق البشرية في بوتقة واحدة هي بوتقة الإسلام. وتعدّ المؤاخاة ظاهرة عقدية إسلامية فريدة يمكن أن تدرس من نواح أنثروسوسيولوجية؛ لإسهامها في الوقوف على أهمّ المؤثرات المتاحة في تأليف الشعوب تحت كلمة واحدة، وفاعلية هذه الكلمة في تحريك المجتمعات لإحداث الحراك الحضاري في أممهم، كما أنّها تظهر كيف أنّ سلوك الصراط المستقيم يحوّل المجتمع إلىّ صفّ واحد تجمعه عقيدة وقيم ورؤى واحدة.

رابعا: فرض الجهاد والإعداد العسكريّ سبيل الحماية المباشرة للأوطان: أظهرت السنة النبوية الشريفة فيما يتعلّق بفضائل الأمكنة ما يدلل على أنّ في أفضليتها حماية لها، وهو ما يمكن أن نقيس عليه مسألة حماية الأوطان في أمكنة أخرى لم ترد فيها فضيلة، غير اعتبار أفضلية المكان بالنسبة للإنسان المسلم كونه مستقرا له، وفضاء يعيش فيه وينتمي إليه، ويتعبد الله تعالى فيه، فهو محميّ بهذه الفضائل كما يظهره مفهوم «الحمى»، فتتعدى هذه الفضيلة إلى مكانتها العقدية والتعبدية في نفوس المسلمين؛ الأمر الذي يسلم إلى أنّ مسألة حمايتها وصيانتها من العبث فيها والتدمير والاقتتال مطلب شرعيّ عالميّ. فتكون الحماية لثلاثة أنواع من الأوطان: وطن تعدّ حمايته مطلبا عقديا شرعيا بأفضليته الدينية، ووطن

تعدّ حمايته مطلبا عقديا شرعيا بموجب إقامته للدين، ووطن تعدّ حمايته مطلبا إنسانيا أخلاقيا بموجب إيوائه للمسلمين ومنحهم الحرية في ممارسة دينهم، وتتأتى هذه الحماية التي تعدّ في الأساس الحماية المباشرة، والقوة الكبرى في صدّ أيّ عدوان: بفرض الجهاد وقتال المعتدين حماية خارجية مباشرة للوطن، المتمظهر في أشكال ثلاثة: أولها: فرض القتال ضد كلّ أشكال الاعتداء، وما يتخلله من الإعداد الفرديّ والجماعي، والإعداد بالإنفاق، وثانيها: النهي عن الاعتداء الذي يعدّ شكلا من أشكال الظلم، وثالثها: عرض الإسلام على المشركين ومحاورتهم. وما يضايفه من أفعال منبثقة عن هذه المحاورة المسلمة إلى توسيع الدولة الإسلامية، وإعزاز الدين.

يتجلى بمسألة حماية الأوطان مقاصد الشريعة في حفظ النظام، وضبط تصرّف الإنسان في مكانه بما يكفل درء المفاسد والهلاك، ودرؤها لا يكون إلا بتحصيل المصلحة الممثلة في الحماية المعينة على حفظ الضرورات الخمس، وحفظ مصالح الناس التي لا يمكن لها أن تتحقق إلاّ في ظلّ الحماية بتعلقاتها الشرطيّة، مما يحتّم على العقول إدراك أهميتها، والسعي إلى تحصيلها وترك ما يضادها. وتظهر هذه المسألة باعتبارها فعلا مقصودا رغم كونه فعلا طبيعيا يصدر عن انتماء الإنسان إلى مكانه، إلاّ أنّه لابدّ من أنْ يكون فعلا متوجّها من سلطة عليا تحكم الأفراد، وتنظّم شؤونهم كولاة الأمر الذين يستعينون برعيتهم في تحقيق هذه المسألة وهي مسألة الحماية، لذا جاء حدث الهجرة يجتلي أهمّ المقوّمات التي تكفل للوطن الحماية، وتعزّز وجود الفرد فيه آمنا مطمئنا، وما كان لهذه المقوّمات الظهور والتأثير لولا الارتباط العقدي الذي جعل لهذه المقومات حضورا مستمرا بفاعلية التأثير الحضاريّ، إذ لا يمكن للمجتمع أنْ يتحرّك في إنتاج قيمه ومقوّماته التي تثبت أركانه وتنظّم حياته لولا العقيدة الربانية، التي تمنح هذه المقوّمات الرسوخ والاستقلالية والحياة والإبداعية والإنتاجية، ومن ثمّ الديمومة وفق

سياقات وأزمنة شتى، وتفسر هذه السمات سبب فاعلية هذه المقوّمات وقدرتها على الحضور تاريخيا وحضاريا في الأمة، كما تفسر الحاجة إليها، والدعوة إلى التمسك بها، ومن سماتها: الثبات الراسخ، الاستقلالية، الحياة، الإبداعية.

ومسألة حماية الوطن من المسائل الحاضرة في الصرح الإسلامي على أرضية التاريخ، باعتبار أنّ الحماية هي المقوي الأول للحضارة الإسلامية ووسيلتها في التمكين، بتأمل الأحداث التي أخذت صورها منها، وتشكلاتها التي أظهرت قوتها في استجلاء قيمة هذا التشكيل الحضاريّ للأمة، كما أظهرت هذه المقوّمات أنّ الحماية تستهدف الفكرة الإسلامية العقدية التي تعدّ هي أصل الاطراد الحضاري الإسلامي وسرّ بقاء هذه الحضارة، وأنّ ذات الفرد هي الجوهر الملموس في تفعيل هذه الفكرة، والمستهدف في وقوع فعل الحماية عليه، فتظهر هذه الأحداث التاريخية الإسلامية أنّ الحماية ليست موكولة إلى القوة العسكرية فحسب، بله إنّ منطلقها وارتكازها على الحماية الداخلية التي تبدأ من الفرد الذي هو أساس الدولة، والعنصر الفاعل في تحقيق القوة والمنعة، وأنّ الحماية ليست الحماية من أشكال العنف والإرهاب، بل يمكن أنْ تكون الحماية مما يمكن أنْ يستلب فكره، وصراطه القويم، وعلاقاته الطبيعية ببيئته الاجتماعية، التي يمكن أنْ تؤدي - إنْ تفاقم ضدها - إلى تهديد أمنه وإيمانه.

والحمد لله ربّ العالمين.

طاعة ولاة الأمر في السنة النبوية وأثرها في الحماية الوطنية

د. مريم راشد التميمي

أستاذ الفقه وأصوله المشارك بكلية الآداب

بجامعة الإمام عبدالرحمن بن فيصل بالدمام (السعودية)

من عظمة الإسلام أنه جاء ليُسعد الإنسان، ويحمي الأوطان، فإن في حمايتها الأرض تستقر، وحياة التعمير تستمر، وبانعدامها يبدأ التدمير ينتشر.

ومن الأحكام التي أمر بها الإسلام وتُسهم في إعمار الوطن وحمايته طاعة ولاة الأمر، حيث أمر الله عز وجل بها في كتابه فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ (النساء: ٥٩). وجاءت السنة النبوية لتبين مراد الله عز وجل في طاعة ولاة الأمر، وهل تُعدُّ طاعتُهم مشروطةً بتحقيق العدل، وتقواهم لله عز وجل، والرضى عن ولايتهم؟ جاءت السنة لتبين ذلك وتجليه في العديد من الأحاديث الصحيحة والصريحة التي اتضح بها:

١- وجوب طاعة ولاة الأمر في اليسر والعسر، والمنشط والمكره، ولو استأثروا بالأموال في قوله ﷺ: «عَلَيْكَ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ، وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ، وَأَثَرَةٍ عَلَيْكَ».

٢- طاعتهم واجبة ولو حصل منهم ظلم أو جور، ولو ابتعدوا عن هدي رسول الله ﷺ ومنهجه، فقال ﷺ: «يَكُونُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ لَا يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ، وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي، وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ. قَالَ حذيفة: كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ الله إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ؟ قَالَ: تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِعْ».

٣- طاعتهم واجبة ولو لم يتم الرضى عنهم؛ حيث قال: ﷺ «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ».

٤- طاعتهم واجبة وإن حصلت منهم المنكرات، والكراهية الشديدة لهم؛ حيث قال ﷺ: «خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ

وَيَلْعَنُونَكُمْ. قِيلَ: يَا رَسُولَ الله، أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْف؟ فَقَالَ: لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وُلَاتِكُمْ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ فَاكْرَهُوا عَمَلَهُ، وَلَا تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ».

٥- طاعتهم واجبة في جميع الأحوال إلا إذا:

أ- أمرنا بمعصية؛ حيث قالﷺ: «عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ» متفق عليه. فولي الأمر مثل الأب لا تسقط طاعته بعصيانه، أو وجود المعاصي بسببه، فإن أمر الأب ابنه بمعصية فلا سمع ولا طاعة، وكذلك الحاكم.

ب- إذا رأينا كفراً بواحاً عندنا فيه من الله برهان؛ دَّل على ذلك ما رواه عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «دَعَانَا رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَايَعْنَاهُ، فَكَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا: أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ. قَالَ: إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ الله فِيهِ بُرْهَانٌ» متفق عليه. فلا يكفي الكفر وإنما لا بد أن يكون بواحاً ولا بد أن يكون عندنا فيه من الله برهان.

٦- إن الذي يحاسب ولاة الأمر هو الله سبحانه وتعالى وليست الشعوب، يدل على ذلك قولهﷺ: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ».

٧- إن السنة لم تكتفِ ببيان وجوب طاعتهم ولو حصل منهم ظلم أو جور، وإنما بيَّنت لنا جزاء من يشق عصا الطاعة ويفارق الجماعة، ويثير الناس ضد الولاة؛ فقالﷺ: «مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ فَاقْتُلُوهُ». وقالﷺ: «مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ لَقِيَ اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً».

وقد يسأل سائل لماذا أمرت السنة النبوية بطاعتهم ولو ظلموا أو جاروا، ولو لم يحصل رضى عن ولايتهم، وأمرت بقتل من يشق عصا الطاعة ويفارق الجماعة؟ لذلك مقاصد عظيمة منها حماية الوطن داخلياً وخارجياً.

أما الحماية الداخلية فتتمثل في حماية الوطن من:

أ- الفتنة والافتراق؛ حيث إن الخروج على الولاة، وشق عصا الطاعة يُسهمُ كثيراً في حصول الفتنة، وافتراق الأمة، وظهور النزاع على السلطة، وبطاعة ولاة الأمر سد للعصبية القبلية، والتعصبات الجاهلية، والأحزاب السياسية؛ ولذلك أمر رسول الله ﷺ بطاعتهم وعدم نزع يد الطاعة منهم، في قوله ﷺ: «مَنْ وُلِّيَ عَلَيْهِ وَالٍ فَرَآهُ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ، فَلْيَكْرَهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ».

ب- حماية الوطن من تعطيل المصالح العامة التي تنتظم بها حياة الناس، ومن دونها يحصل الفساد والخلل، سواء أكانت مصالح تتعلق بالدين أم الدنيا. أما الدين: فكإقامة الجمعة، والجماعات، والعيد، والثغور، والحدود وغيرها، مما لا تقوم إلا بطاعة الولاة وإن ظلموا أو جاروا. وأما ما يتعلق بالدنيا: فكالتعليم، والصحة، والاقتصاد.

ت- حماية الوطن من وقوع المفاسد العظيمة

١- كالاعتداء على النفوس والأعراض والأموال والعقول، وقد ذكر ابن تيمية أنه لا يكاد يُعرف طائفة خرجت على ذي سلطان إلا وكان في خروجها من الفساد أعظم من الفساد والحاصل.

٢- حماية الوطن من الجريمة والإرهاب، وانتشار الخوف، وفقدان الأمن، وظهور الفساد وشيوعه.

٣- حماية الوطن من الأعداء في الداخل الذين يسعون لإثارة الفتنة عن طريق ما يسمى: بتحقيق العدالة والمساواة، والحرية السياسية، وغيرها من الشعارات الزائفة التي تفسد ولا تصلح.

أما حماية الوطن خارجياً فتتمثل في:

١- حمايته من التدخل الخارجي واحتلال أراضيه.

٢- حمايته ممن يريد تدميره، وتخريبه من المتربصين به في الخارج.

٣- حفظ هيبة الوطن وسيادته في المجتمع الدولي؛ فإن التزام طاعة ولاة الأمر يحفظ للولاة المسلمين هيبتهم واحترامهم أمام غيرهم من دول العالم، والخروج على الحكام، وشق عصا الطاعة تفقد به الدولة المسلمة هيبتها وسيادتها في الخارج.

مما سبق يتضح أن التزام منهج محمد ﷺ في وجوب طاعة ولاة الأمر وإن ظلموا أو جاروا يُجنب الأمة المهالك والمفاسد العظيمة من تدمير الأوطان؛ حيث جاء الإسلام لحمايتها وتنميتها وعمارتها وضياع حقوق الإنسان التي حرص الإسلام على حفظها.

أثر طاعة وليّ الأمر
ضوابطها، أسسها، مقوماتها في حماية الوطن
(دراسة تحليلية في السنة النبوية)

أ. د. سلوى محمد المحمادى

أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة بجامعة أم القرى (السعودية)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضلّ له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا. أما بعد،

فإن من دعائم الحكم في الإسلام طاعة ولي الأمر، فهي قاعدة من قواعد نظامه السياسي، ومن الأمور الضرورية لتمكين الإمام من القيام بواجبه، وتمكين الدولة من تنفيذ أهدافها.

وللطاعة أثر مهمٌ في تحقيق مقاصد الشريعة الإسلامية، فقد قرن الله طاعته وطاعة رسوله ﷺ بطاعة ولى الأمر، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ (النساء: ٥٩).

وتعددت النصوص النبوية في وجوب طاعة وليّ الأمر؛ لما لطاعته من أهمية بالغة في تطبيق الأحكام ونشر الأمن وحفظ النظام ومنع الظلم بين العباد.

وعدَّ النبي ﷺ طاعة ولي الأمر من طاعة الله تعالى؛ لأنه لا يمكن تطبيق شريعة الله إلا بوجود إمام مطاع يطبق أحكام الإسلام، ويحفظ النظام والأمن، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ يَعْصِنِي فَقَدْ عَصَى اللهَ، وَمَنْ يُطِعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي»[1].

وتكون الطاعة على المسلم فيما أحب وكره ما لم يأمر الوالي بمعصية فعَنْ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ».[2]

وقد جعل النبي ﷺ طاعة ولي الأمر سبباً من أسباب دخول الجنة فعن

١- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، ح / ١٨٣٥.
٢- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب السمع والطاعة للإمام، ح٢٩٥٥.

أبي أمامة أنه قال: سَمِعْتَ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ يَخْطُبُ في حَجَّة الْوَدَاعِ فَقَالَ: «اتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ، تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ»[1].

وورد أن الصحابة بايعوا النبي ﷺ على السمع والطاعة في: المنشط والمكره، في العسر واليسر، إذ أن بالطاعة يحصل الأمن والاستقرار، ويأمن الناس من الفتن وتنتظم مصالح الدين والدنيا معاً، وتنفذ الأوامر وينصف المظلوم، ويردع الظالم.

وحرص النبي ﷺ على الطاعة باعتبارها قاعدة أساسية في بناء المجتمع السياسي الإسلامي يتوقف عليها انتظام سيره وتحقيق مصالحه.

إن الإمام الخطابي يكشف لنا سر اهتمام الرسول ﷺ بطاعة أولي الأمر رابطا ذلك بفكرة ضمور الطاعة عند العرب فيقول: «كانت قريش ومن يليهم من العرب لا يعرفون الإمارة ولا يدينون لغير رؤساء قبائلهم، فلما كان الإسلام وولى عليهم الأمراء أنكرت نفوسهم وامتنع بعضهم عن الطاعة فأعلمهم صلى الله عليه وسلم أن طاعتهم مربوطة بطاعته، ومعصيتهم بمعصيته، حثًا لهم على طاعة أمرائهم لئلا تتفرق الكلمة».[2]

وذكر الإمام الشافعي في كتابه: «لأن كل من كان حول مكة من العرب لم يكن يعرف إمارة، وكانت تأنف أن يعطى بعضها بعضا طاعة الإمارة».[3]

ومن المعلوم أن العرب كانت في غاية العصبية والعنصرية قبل الإسلام، يتعالون على غيرهم من الأمم، وينظرون إلى غيرهم من الشعوب نظرة الاحتقار والازدراء وبالأخص إلى الأحباش والسودان، فجاء النص الشرعي مشدِّدًا

١- أخرجه الترمذي، أبواب السفر، باب منه، ح٦١٦. قال عنه: «حديث صحيح».
٢- انظر: صحيح مسلم، ٣ / ١٤٦٦.
٣- الشافعي، الرسالة، ٧٩.

ومؤكدًا أشد التأكيد على ضرورة السمع والطاعة تحقيقا للمصلحة ودرءًا للفتنة وإن كان ولي الأمر عبد أسود حبشي فعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه أنه قَالَ: «إِنَّ خَلِيلِي أَوْصَانِي أَنْ أَسْمَعَ وَ أُطِيعَ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا مُجَدَّعَ الْأَطْرَافِ»[1].

وما هذه الوصاية من المصطفى إلا للتشديد على وجوب الطاعة لأهميتها في حفظ الأمن وإخماد الفتن ومن لوازم الطاعة وجوب البيعة لولاة الأمر فقال عليه السلام: «وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً».[2]

وأجمع أهل السنة والجماعة على تحريم الخروج على ولاة الأمر الفسقة وممن ذكر هذا الإجماع النووي حيث قال: «وَأَمَّا الْخُرُوجُ عَلَيْهِمْ وَقِتَالُهُمْ فَحَرَامٌ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ وَإِنْ كَانُوا فَسَقَةً ظَالِمِينَ.»[3]

قال الطحاوي: «ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا ولا ندعو عليهم ولا ننزع يدًا من طاعتهم ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة ما لم يأمروا بمعصية وندعو لهم بالصلاح والمعافاة»[4]

ثم أرشد النبي صلى الله عليه وسلم أمته في أحاديث كثيرة إلى الصبر على هفوات وزلات ولي الأمر إن بدر منه ذلك وعدم مبادرته بالعصيان والنظر لعقوبة الخروج عليهم. فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ، فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»[5].

١- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهية الصلاة عن وقتها المختار، ح ٦٤٨.

٢- أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، ٦ / ٢٢، ح ١٨٥١

٣- النووي، شرح صحيح مسلم، ١٢ / ٢٢٩.

٤- الطحاوي، شرح العقيدة الطحاوية، ٣٧٩.

٥- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب قول النبي سترون بعدى أمورا تنكرونها، ٩ / ٤٧، ح ٧٠٥٣، وأخرجه مسلم كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، ٦ / ٢١، ح ١٨٤٩.

و حث النبي ﷺ أمته على نصح ولاة الأمر عَنْ مُحَمَّد بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ وَهُوَ بِالْخَيْفِ مِنْ مِنًى: «رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا ثُمَّ أَدَّاهَا إِلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَا فِقْهَ لَهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ، وَمُنَاصَحَةُ ذَوِي الْأَمْرِ، وَلُزُومُ الْجَمَاعَةِ فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تَكُونُ مِنْ وَرَائِهِمْ»[1].

ومقتضى مقاصد الشريعة أن يكون النصح لولاة الأمر سراً بين الناصح وولي الأمر ولهذه الطريقة أثر عظيم في جلب المصالح ودرء المفاسد والوقاية من الانحرافات بأنواعها: فكرية وعقدية وسلوكية.

ويدخل في باب النصيحة الدعاء لولي الأمر بالخير والصلاح، لما يترتب على صلاحه من خير يعود على الأمة، لأن بصلاحه تجتمع الكلمة وتتوحد الأمة ويسودها الأمن والاستقرار؛ فجاء أن أبا أمامة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَسُبُّوا الْأَئِمَّةَ، وَادْعُو اللهَ لهم فإن صَلَاحَهُمْ لَكُمْ صَلَاحٌ»[2].

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وإمام الغر المحجلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

١- الحاكم، المستدرك على الصحيحين، كتاب العلم، باب رب حامل فقه لا فقه له ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ١ / ١٦٣، ح ٢٩٦.
٢- المعجم الكبير، ٨ / ١٣٤.

حماية الوطن
رؤى مستقبلية وأبعاد استراتيجية في السنة النبوية

د. إبراهيم محمد البرزنجي

مدير الإرشاد والبحوث والدراسات في وزارة الأوقاف والشؤون الدينية،
أربيل (العراق)

إن الوطن نعمة عظيمة لا يعرف قدرها إلّا من حرمها؛ ففيه ينعم الإنسان بالأمن على نفسه، وماله، وعرضه، وفيه يعيش، ومن خيراته يأكل، وبين جنباته ينمو ويكبر؛ وإزاء هذا الحب فإن المرء مأمور بحمايته بالنفس والنفيس، ووضع الرؤى المستقبلية والخطط الاستراتيجية لتنميته وازدهاره، وصرف الأخطار عنه، وتوفير البيئة المناسبة للطاعة والعبادة.

وقد اتفق التعريف اللغوي مع الاصطلاحي في كون الوطن المكان الذي ولد فيه الإنسان، ويعيش بين ربوعه، وهو يختلف عن وطن الإقامة الذي لا يستقر فيه الإنسان بل يعيش فيه مدة معينة ثمّ يغادره.

ويحب الإنسان وطنه الذي نشأ وترعرع فيه حبا طبيعيا مرتكزًا في فطرته، لا يتخلى عنه مهما قابل من المتاعب، أو صادف من المشكلات، وهذا الحب الفطري للوطن بيّنته الأدلة الشرعية: فالقرآن الكريم في حديثه عن الأنبياء مع أقوامهم؛ بيّن أن من أهم أسباب رفض دعوات الأنبياء عليهم السلام هو ظنّ بعض المدعوين السيء بأن الأنبياء يبغون من دعوتهم هذه إخراجهم من أرضهم التي أحبوها واختلطت بعروقهم ودمائهم وأخذها منهم، والسيطرة عليهم.

وأكدت السنة النبوية المطهرة أن حبّ الوطن أمر فطري؛ يظهر ذلك في موقف خروج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجرا إلى المدينة، فعن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري: قال: «**رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رَاحِلَتِهِ وَاقِفًا بِالْحَزْوَرَةِ يَقُولُ: وَاللهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللهِ إِلَى اللهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ**».

وأكّد التاريخ أن حبّ الوطن فطري في النفوس؛ فلقد ذكر ابن الجوزي- رحمه الله-: «أن الإسكندر أوصى إذا مات أن يحمل إلى بلده حبا لوطنه، واعتلّ إسفنديار في بعض غزواته فقيل له ما تشتهي؟ قال: شمة من تربة بلخ، وشربة من

ماء واديها، واعتلّ سابور ذو الأكتاف بالروم وكان مأسورا وكانت بنت ملكهم قد عشقته فقالت له ما تشتهي؟ فقال: شربة من ماء دجلة، وشميما من تراب اصطخر، فغبّرت عنه أياما ثم أتت بماء من الفرات، وقبضة من شاطئه؛ وقالت: هذا من دجلة، وهذه من تربة أرضك، فشرب بالوهم، واشتم تلك التربة فنقه من علّته».

وركّزت الأحكام الشرعية على الحب الفطري للوطن لدى المكلف فحكمت بالتغريب سنة على الزاني غير المحصن كعقوبة من تمام الحدّ؛ ليستشعر الغربة النفسية، وينزجر عما يفعل؛ ولو لم يكن لغربته عن وطنه أثر نفسى ما حكم الشرع بها عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم: «خُذُوا عَنِّى خُذُوا عَنِّى قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَنَفْىُ سَنَةٍ وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ».

يدعو الدين الإسلامي إلى تحقيق الأمن والاستقرار في الأوطان بغية تحقيق الرؤى الحالية والمستقبلية للتقدم، والازدهار؛ وفي سبيل ذلك نهى عن كل ما يزعزع الأمن والاستقرار؛ ومن ذلك:

تكفير المسلمين، واستحلال دمائهم، ومحارمهم، واعتبار بلادهم بلاد كفر: يزعم بعض المتشددين، والمتنطعين، أن أحكام الكفر تعلو بلادنا؛ وإن كان أكثر أهلها مسلمين، لذا يرفعون السلاح على المسلمين؛ ويستحلون دماءهم ومحارمهم؛ وهذا بلا شك يشيع الفوضى والفساد، ويوقف حركة التنمية، ويمنع تحقيق خطط التقدم الاستراتيجية، وهذا القول مناقض للواقع، فهذه الصلاة تؤدى، وهذه المساجد مفتوحة وتبنى، وهذه الزكاة يؤديها المسلمون، ويحجون بيت الله، وحكم الإسلام ماض إلا في بعض الأمور كالحدود، والتعامل بالربا، وغير هذا مما شملته القوانين الوضعية؛ وهذا لا يخرج الأمة والدولة عن أنها دولة مسلمة وشعب مسلم، لأننا - حاكما ومحكومين نؤمن بتحريم الربا، والزنا، والسرقة، وغير هذا، ونعتقد صادقين أن حكم الله خير وهو الأحق بالاتباع، فلم

نعتقد حل الربا وإن تعاملنا به؛ ولم نعتقد حلّ الزنا، والسرقة، وغير هذا من الكبائر وإن وقع كل ذلك بيننا» وهناك فرق بين اعتقاد حلّ الشيء وهو محرم، وفعله دون اعتقاد حلّه.

ومن النواهي أيضًا: الفهم الخاطئ لمفهوم دار الكفر ودار الإسلام: المتأمل في حقل الدعوة إلى الله يجد بعض الشباب المنوط بهم تحقيق التقدم، والخير للبلاد والعباد، يهجرون بلادهم وأهليهم بحجة أنهم يتركون دار الكفر إلى دار الإسلام؛ ويتخلّون عن واجبهم تجاه وطنهم، بل إنهم يتحولون إلى كارهين لأوطانهم، وأهليهم!

وهذا الأمر من الخطورة بمكان؛ لأنه اعتمد على الفهم السقيم لمفهوم دار الكفر ودار الإسلام؛ ومن ثمّ يجب توضيح ذلك المفهوم حتى لا يفهمه البعض خطأ؛ ويبنوا عليه أحكاما خاطئة تعكّر صفو الوطن، وتحوّل البناة إلى معاول هدم.

وقد ذكر المحققون من العلماء أن مفهوم دار الكفر ودار الإسلام أمر اجتهادي، و أن مدار الحكم على بلد بأنه بلد إسلام أو بلد كفر هو الأمن على الدين، وكفالة الحرية في أداء شعائره، وعدم التضييق على المسلمين فيها؛ فلو عاش المسلم في بلد ليس له دين أو دينه غير دين الإسلام واستطاع أن يمارس شعائر دينه في حرية فهو في دار إسلام بمعنى أنه لا يجب عليه الهجرة منها كما كانت الهجرة واجبة على المسلمين من مكة قبل فتحها؛ نظرا لتعرض القلة المسلمة فيها للفتنة حيث كانوا لا يأمنون على دينهم فأمرهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالهجرة إلى الحبشة وهو بلد لا يدين بالإسلام لكن المسلمين فيه أمنوا على دينهم.

ولا يخفى على ذي لبّ أن رسم الخطط الاستراتيجية وتنفيذها لتحقيق التقدم في شتى المجالات يرتبط بتحقيق الأمن في الوطن، وحمايته من جميع الأخطار؛

فالوطن الآمن نعمة عظيمة لا يعرفها إلا المشردون، واللاجئون، والنازحون؛ لذا نجد القرآن الكريم يبين أنّ من أعظم النعم التي يمتن الله بها على عباده نعمة الأمن، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ (سورة الأنعام: ٨٢)، فلا تقدم، ولا ازدهار، ولا تنمية بدون أن يشعر الفرد بالأمن والأمان.

وينبغي على المسلم أن يحافظ على وطنه بالنفس والنفيس، وأن يساهم في تحقيق النماء، وأن يشارك في تنفيذ الرؤى المستقبلية له؛ لأنه المكان الذي يأمن فيه على ماله، وعرضه، ودمه؛ والعمل على قوة الوطن وتقدمه يتمثل في فعل كل شيء نافع، والبعد عن كل شيء ضارّ، وصور ذلك في السنة النبوية كثيرة؛ منها: التعاون مع ولاة الأمر و البعد عن الحزبية والتفرق، والعمل الجادّ المثمر الذي يفيد الوطن إلى آخر لحظة في الحياة، واستجلاب المستجدات التي تخدم الوطن ولا تتعارض مع الدين، المساهمة في كفّ الأذى عنه بجميع أنواعه.

فالعمل على تصحيح المفاهيم الخاطئة التي يروجها البعض؛ وتعمل على تكدير السلم المجتمعي، ونشر المفاهيم المصحّحة التي تعمل على المحافظة على النسيج الداخلي في وسائل الإعلام المتعددة.

وقيام الجهات المعنية بعملها في بيان أن وحدة الوطن وقوته تحتاج إلى مجهود ومثابرة من جميع أبنائه، وعدم الانصياع إلى الأفكار الهدامة. ولا يجب أن يؤثر حب الوطن والمحافظة عليه على أخوة الدين بين جميع المسلمين، بل يجب أن تكون منطلقا للتعاون، والتراحم.

وكذلك بيان أن نشر الصورة الصحيحة للإسلام تعين على انتشاره، ودخول الناس في رحابه، بينما صورة هتك الأعراض، وسفك الدماء، وذبح الأحياء، وترويع الآمنين تجعل حجابا حاجزا يمنع الناس من الدخول في دين الله أفواجا؛ لذا يجب على المسلمين جميعا الانتباه إلى هذا الأمر، ونشره بكل ما

أوتوه من قوة حتى يحذر الناس ذلك؛ ويعلموا أن أخطاء البعض في سوء الفهم والتطبيق لاتعبّر عن الإسلام الصحيح.

وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كيف يُصنَعُ المواطن المنتمي والحامي للوطن؟
مسالكُ التنميَّة المركَّبة وذُلُلُ السُّنَّة النبويَّة

د. ناصر يوسف

باحث ومحرر ومشرف في مكتب البحوث والابتكار
الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا (الجزائر)

يقف هذا البحث على فرضية التنمية المركَّبة التي لا نراها تحصل إلا بتركيب ثلاثة عناصر، هي: السلطة والعامة والنخبة=(س، ع، ن)؛ حيث يكون الإنسان المواطن كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضه بعضًا، ويقف سدًّا منيعًا أمام الاختراق والاحتراق. نحاجج، أيضًا، بأن التنمية المركَّبة التي من داخلها يُصنَع المواطن المنتمي والحامي للوطن، تعد حلاًّ واقعيًا في مسائل تتعلَّق بحماية الأوطان من الفتن والإحن، والتي يصعب مواجهتها إلا بمواطن مركَّب؛ حيث نلفي في السُّنَّة النبويَّة، أقوالاً وأفعالاً، ما يعزِّز هذا الترصيص بوصفه حلاًّ أثبت نجاعته في مجتمع يثرب مثلاً، الذي كان مفكَّكًا ومخترَقًا وممزَّقًا، ولما تركَّب إنسانه تمكَّن من مواجهة التحدِّيات وتلافي الضربات وحمايته من كل الجهات لسد الثغرات؛ حتى بات مجتمع يثرب مركزًا عالميًا في التنمية الروحية والمادية، ومضرب الأمثال للوطن المتماسك، والمواطن الماسك بزمام أموره الداخلية والخارجية.

يستدعي حب الوطن توافر فعل الانتماء من منطلق أنه إذا لم يكن الإنسان منتميًا قد لا يكون محبًّا؛ فمن يحب يفنى في محبوبه ويدافع عنه ويحميه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً؛ حتى إذا انتمى المواطن إلى الوطن فإنه ينتمي إليه انتماء المتفانين في حبِّه غير الظانِّين برجالاته ظن السوء؛ ما يستدعي الإخلاص له وللقائمين عليه، والذب عنه وما حواليه. إذًا حماية الشيء تشترط حب الشيء والانتماء إليه، لاسيما إذا كان هذا الشيء من نضْح الأرض بعد أنِ استقرَّ في حضن الوطن.

وإذْ إن الحبَّ افتقادٌ وأملٌ في امتلاك؛ فإن حبَّ الشيء الذي افتقده الإنسان في طفولته، يشترط امتلاكه للشيء وهو في ريعان شبابه وافتتانه برجولته. كما أن حماية الشيء تشترط امتلاك الشيء؛ ومن ثم فإن حبَّ الشيء يدفع الإنسان غريزيًا -وشرعيًا- إلى حمايته، علاوة على أن الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم قدَّم درسًا تاريخيًا وحضاريًا في حب الوطن والشوق إليه والتعلُّق به، والعمل على إصلاحه وإعماره وتنميته والإحسان إلى أهله؛ إذْ قال الرسول صلَّى الله عليه

وسلَّم عن بلدته مكة التي غادرها مكرهًا وقد أُخرج منها: «وَاللهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللهِ وَأَحَبُّ أَرْضِ اللهِ إِلَى اللهِ، وَلَوْلاَ أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ».[1]

طبعًا، هناك تسلسل منطقي بين حبِّ الشيء وحمايته. هذا الحبُّ للشيء يقترن بمدى امتلاكه وتوظيفه والانتفاع به والإفادة منه، ومن ثم الدفاع عنه ضد القاصي منه والداني متى استدعت الحاجة إلى ذلك؛ إذْ يعد صاحبه شهيدًا، سواء أكان هذا الشيء الممتلك عِرضًا أم أرضًا أم بيتًا أم مالاً أم وطنًا؛ تعزِّزه السُّنَّة النبويَّة في قوله صلَّى الله عليه وسلَّم: «مَنْ قُتِلَ دُونَ دينه فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ».[2]

من وجهة أخرى، فإن الوطن غرس بيئي طيِّب؛ حيث يعد المواطن ثمرة هذا الغرس الطيِّب. وإذْ يأتي الغرس طيِّبًا، فإن الثمرة تأتي هي الأخرى طيِّبة؛ حيث إن الطيبة صفة ملازمة للوطن على مرِّ العصور والدهور. وإذا كان للإنسان أن ينتقل ويتقلَّب إلى درجة خيانة الوطن؛ فإن الوطن لا ينتقل؛ لأنه بيئة وأرض، ولا يتقلَّب؛ بل يبقى صامدًا يحتضن الإنسان ولا يمتهنه، وإنْ هو خانه أو أهانه. فالوطن هو الذي يحمي الإنسان من شر ضيره وغدر غيره.

وقد تعلمون أن الإنسان له قابلية غريزية للخيانة إذا شعر أنه يفتقد الشيء ولا يمتلكه، وهو يرى أن هذا الشيء مشاع للجميع (=العامة)؛ لكنه متاع رفيع لا يبلغه إلا من ارتفع (=السلطة) أو اندفع (=النخبة). ومع ذلك فإن الإنسان لا يخون عندما يكون موصولاً بربِّه؛ فالخيانة مقرونة بالمنافق المنفصل عن مجتمع المسلمين؛ لأن من علامات المنافق خيانة الأمانة، قال الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم:

١- أخرجه الترمذي في سننه وصحَّحه، كتاب المناسك، باب في فضل مكة، حديث رقم ٣٩٢٥؛ عن عبد الله بن عدي رضي الله عنه.

٢- أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الديات، باب ما جاء فيمن قتل دون ماله فهو شهيد؛ وقال حديث حسن صحيح، حديث رقم ١٤٢١؛ عن سعيد بن زيد رضي الله عنه.

(آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ).[1] إن الوطن أمانة وخيانته نفاق. مع ذلك إذا كان المواطن المنتمي معارضًا للقيادة؛ فإنه لا يعد بالضرورة خائنًا للسيادة.

من هذه القابلية للخيانة باتت مسألة كيفية حماية الأوطان مسألة مثارة بشدَّة للنقاش، وعصيَّة على الحل لدى صُنَّاع القرار ممن أصابت أوطانهم مصيبة الإرهاب والعذاب، لا سيما في وقتنا الراهن؛ حيث تكثر الأزمات والفتن التي ترهق من في قلبه مرض، وتقلق من في عقله غرض. لقد بات الوطن في عصر العولمة معرَّضًا للخيانة وفاقدًا للحماية من مواطن ضعيف الابتغاء وقليل الانتماء، قد يفقد ولاءه الوطني لأسباب شيئية ومعرفية ودينية. وعليه نجزم أنه لا يمكن الحديث عن الوطن وحمايته وإيجاد الحلول له من غير التطرق إلى الثلاثية الإنسانية: السلطة والعامة والنخبة، التي تعد مسؤولة عن الوطن وحمايته بحكم القيادة أو الإفادة أو الريادة.

سنحاجج بأن ثلاثة عناصر رئيسة، الناس فيها شركاء، هي من تحفظ الوطن: الشيء، والدين، والمعرفة (=ش، د، م)، كما نعتقد أن هذه العناصر إذا ما اشتطَّت على الإنسان واستعصت على التنمية، قد تكون سببًا في تعاسة الوطن وبؤس المواطن. كما سندافع عن فرضيتنا القائلة بأن تركيب السلطة والعامة والنخبة (=س، ع، ن) فيه تركيب للوطن وحمايته، علاوة على أنه مسلك من مسالك صناعة المواطن المنتمي حامي الوطن من الفتن؟ نظرًا إلى أنه في حالة التوزيع الإنمائي العادل للشيء والدين والمعرفة على مستوى أطياف المجتمع من غير استثناء، يسهل صُنع المواطن المنتمي المركَّب. إن التركيب الإنساني هو الذي يحمي؛ بينما المنتمي الإنمائي هو الذي ينمِّي.

١- رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، حديث رقم ٣٣؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

نجادل، أيضًا، بأن الدين يحفظ الوطن؛ إذْ إن حفظ الدين من حفظ الوطن، وإن الإنسان المبتغي لهذا الدين هو إنسان منتم للوطن؛ إلا إذا كان فهم هذا الإنسان للدين فهمًا مختلفًا يرقى إلى مرتبة الخلَاف مع الأمة التي قد لا تجتمع على خطأ. فعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله قال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي، أَوْ قَالَ: أُمَّةَ مُحَمَّدٍ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَيَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَمَنْ شَذَّ شَذَّ إِلَى النَّارِ».[1] وعليه فإن الانتماء للوطن يشترط حصول الدين في حياة الإنسان الخاصة والعامة عبادةً ومعاملةً؛ لأن ابتغاء دين الوطن يقوِّي من الانتماء للوطن ويحميه، وذلك نظرًا إلى أن المنتمي للوطن هو إنسان يُفترَض أن يتراحم مع دينه، أو يحترم دين غيره في مجتمع متعدِّد الأديان والأعراق والمذاهب، أو يكون فيه شيء من الدين الذي يكبح جماح رغبته في الخيانة والتمرد والعنف؛ حيث إن اللامنتمي هو إنسان متمرِّد على دينه ووطنه. ويفترَض في مسألة التخطيط لحماية الوطن واستشراف مستقبله، أن يكون الدين لباس (س، ع، ن). هذه الثلاثية الإنسانية قد لا يحصل لها الاستمرار في الاستقرار إلا بالتراحم مع الدين كحالة طبيعية، واحترامه من غير التضييق عليه، والرفق بالإنسان الذي اتَّسع له.

كما سنحاجج بأن الدين لا يكفي بمفرده لتأسيس دولة وترصيص أمة، لأن الوطن لا يُحفظ بالدين وحده؛ فذلك رهان خاسر أثبت الاستعمار عدم التعويل عليه إذا أتى معزولاً عن حامله ومفصولاً عن محموله، لاسيما إذا كان هذا الدين يحمله إنسان خامل غير فاعل، أو سافل غير عاقل، أو مكافح غير مسامح. يكون حامل الدين نافعًا للأمة وللعالم إذا كان يسير جنبًا لجنب مع التنمية؛ وذلك برهان كوني وسنني مبسوط في صفحات التاريخ والأحداث والوقائع، تشهد على ذلك الحضارة العربية والإسلامية التي وصلت بتوأم الدين والتنمية إلى قيادة شطر كبير من العالم في فترة وجيزة وعزيزة.

١- أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، حديث رقم ٢١٦٧، حسَّنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣/ ٣١٩).

فرضيتنا تقف على أن الوطن يُستعصى حفظه وحمايته من غير تنمية مركَّبة. إن كل الدول المتخلفة وإنْ تديَّنت فقد استبيحت أوطانها كما حدث مع الاستعمار القديم والحديث كليهما؛ فالاستعمار القديم استباحها بمنطق الشيء رمز القوة الغاشمة؛ أما الاستعمار الجديد فيستبيحها بمنطق المعرفة علامة القوة الناعمة. وفي كلتا الحالتين يكون الدين هو الضحيَّة والجاني معًا؛ ضحيَّةٌ عندما يُنعَت بأنه سبب بئيس في التخلف، وجانٍ عندما يُنعَت بأنه سبب تعيس في العنف؛ إلا أن الخاسر الأكبر هو الوطن الذي تصيبه لعنة الانقسامات فتفشل الدولة في إدارة الأزمات. وإذْ تعد الدولة القوية رمز الوطن المتماسك؛ فإن «أول ما يقع الهرم في الدولة انقسامها».[1]

ومن هنا سنناقش إشكالية مفادها أن التركيب -أو الترصيص- الإنساني يحمي، والمواطن المنتمي ينمِّي؛ ولكن المواطن لا يكون منتميًا ومنمِّيًا إلا إذا شعر بالعدالة؛ حيث إن العدالة لا تحصل من غير تركيب إنساني. فإن لم يكن الإنسان مركَّبًا لا يكون عادلاً، وإن لم يكن عادلاً لا يكون متَّقيًا لقوله تعالى: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ (المائدة: ٨). إن في التقوى مسالك مذلَّلة للحفظ والوقاية والحماية. وعليه سنقف على أن المواطن المنتمي هو المواطن المركَّب إنسانيًا على مستوى (س، ع، ن)، والعادل إنمائيًا في محتوى (ش، د، م).

١- مقدمة ابن خلدون، ج١، ص٢٩٢.

استشراف المستقبل لعمارة الأوطان وحمايتها كما تصوره السنة النبوية المباركة

د. علي حافظ سليمان

أستاذ الحديث المشارك بقسم الدراسات الإسلامية،

كلية الزلفي – جامعة المجمعة – السعودية (مصر)

لا يخفى ما للأوطان من مكانة في الجبلة الإنسانية، والفطرة البشرية، والنفوس السوية، ولم لا ؟! والوطن منبت الإنسان ومولده الذي ترعرع في حماه، وعاش على ثراه؛ افترش مهاده، والتحف سماءه... ومن ثم حفظت الشريعةُ للأوطان قيمتَها، وأبقت لها مكانتَها، فجعلت من الإيمان حبهَا وعمارتَها، ومن الجهاد صيانتَها وحمايتَها، حتى غدت المواطنةُ الصالحةُ فرضَ عينٍ على كل مواطن ومواطنة. وإن من أهم صور المواطنة الصالحة ومتطلباتها: استشرافَ المستقبل لأجل بناء الوطن وعمارته، وكذا لحمايته وصيانته.

ولما كان نبيُنا الهادي ﷺ الأنموذجَ الأكمل والمضرب الأمثل في المواطنة الصالحة فإن من الواجب علينا في هذا الموطن من التأصيل أن نتلمس هديه ﷺ ونتتبع سيرته من خلال التطواف حول نماذج من استشرافه ﷺ للمستقبل من أجل عمارة الأوطان وحمايتها، من ذلك:

- **استشرافه ﷺ في المجال الفكري**: عُني ﷺ بفكر الأمة وعقيدتها لما له من بالغ الأثر في استقرار الأوطان ونهضتها، وحمايتها وصيانتها فقام ﷺ بترسيخ منهج الإسلام القائم على الوسطية والاعتدال، ثم راقب ﷺ المسيرةَ الفكريةَ التي أرسى دعائمَها في المجتمع، وصوَب محاولاتِ الجنوح بها عن جادتها واعتدالها مستشرفاً بذلك أخطار الحيف بها أو عنها المدمرة للأوطان؛ القاصمة للبلدان، كما في حديث أَنَس بْن مَالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا...الحديث»[1].

وفي هذه الواقعة أراد الرهطُ الثلاثة ﷺ مزيداً من التعبد لله، وهم البشر المقصرون، لكنَّ النبيَّ ﷺ ردهم إلى الفهم الأمثل والطريق الأقوم، وحذرهم وحذر الأمةَ كلَّها بقوله: «فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي».

١- متفق عليه: رواه البخاري، حديث رقم: ٥٠٦٣، واللفظ له. ومسلم، حديث رقم: ١٤٠١، بلفظ مقارب.

ولما تطاول الخارجيُ الأول ذو الخويصرة التميمي على الجناب النبوي والمقام المحمدي بقوله: اعدل، استشرفه ﷺ واستشرف جماعته مبيناً صفاتهم المعوجة، ومحذراً من طريقتهم المنحرفة، فعن أَبي سَعيد الْخُدْرِيَّ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَقْسِمُ قَسْمًا أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ اعْدِلْ فَقَالَ وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ ائْذَنْ لِي فِيهِ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَقَالَ: دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ...الحديث»[1].

هذا! والأمة الآن تصطلي بنار هؤلاء الخوارج المارقين، فدمروا أوطاناً، وخربوا عمراناً، وأزهقوا أرواحاً، كل هذا باسم الدين، والدين منهم براء.

- **استشرافه ﷺ في المجال الاجتماعي**: لما شرع ﷺ في تأسيس دولة الإسلام وموطن الإيمان في دار هجرته كان مما بدأ به: توطيد الأخوة، وترسيخ التآلف، وشمع الشمل بين أطياف المجتمع الجديد، فكان بناء المسجد المبتدأ، ثم التآخي بين المهاجرين والأنصار، ثم دستور المدينة والمعاهدة مع اليهود، وذلك كله لبناء دولة قوية من أكبر دعائمها: تقوية الجبهة الداخلية، واللحمة الوطنية، ومن ثم واجه ﷺ بحسم بالغ ما عساه يصدع البنيان الاجتماعي للوطن، ويوهن نسيجه، بل وجاءت مواجهته ﷺ لهذه الأخطار مستشرفةً للمستقبل كما في حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه، قَالَ: كُنَّا فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ[2] رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمِعَ ذَلِكَ ﷺ فَقَالَ: «مَا بَالُ دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ»

١- متفق عليه: رواه البخاري، حديث رقم: ٣٦١٠، ومسلم، حديث رقم: ١٠٦٤.
٢- «كَسَعَ» أي ضرب دبره بيده. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث (٤ / ١٧٣).

فَسَمِعَ بِذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ، فَقَالَ: فَعَلُوهَا، أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا المُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعْهُ، لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»[1]، وفي الحديث: أن المعولَ عليه في التعامل والتعايش هو الظاهر، أما أمرُ السرائر فموكول إلى الله تعالى. وكذلك ضرورة استشراف المستقبل واستبصاره فيما يخص المجال الاجتماعي للأوطان من أجل حمايتها مما يهدد نسيجها، ويوهن صفها...وعلى إثر ذلك أقول: إن وطناً تفرق أتباعه، وتناحر أصحابه، وتقاتلوا فيما بينهم أنى له أن ينهض فضلاً عن أن يبقى؟!

- **استشرافه ﷺ في المجال العسكري**: علَّمنا رسولُ الله ﷺ أن حماية الوطن والذود عن حياضه يستلزم إعداد القوة، وقوة الإعداد، بل وعلمنا أن الأمر لا يقف عند الإعداد إنما لابد من استكشاف قدرات العدو، واستشراف سُبُل مواجهته، ووضع التدابير اللازمة لصده ودحره، كما فعل ﷺ في غزوة أحد فعَنِ البَرَاءِ رضي الله عنه، قَالَ: لَقِينَا المُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ، وَأَجْلَسَ النَّبِيُّ ﷺ جَيْشًا مِنَ الرُّمَاةِ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللَّهِ، وَقَالَ: «لاَ تَبْرَحُوا، إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلاَ تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلاَ تُعِينُونَا» فَلَمَّا لَقِينَا هَرَبُوا... الحديث[2].

فتأمل يا رعاك كيف أسند النبيُ القائد ﷺ مهمةً عسكريةً محددة إلى مجموعة محددة مستشرفاً في تعليماته لهم ما قد تؤول له الأحدث، فلما خالفوا أمره - إلا قليلاً منهم - وقع ما استشرفه، وتحقق ما توقعه. ﷺ

ومن استشرافه ﷺ في المجال العسكري أيضاً: قوله حِينَ أَجْلَى الله عز وجل

١- متفق عليه: رواه البخاري، حديث رقم: ٤٩٠٥ واللفظ له. ورواه مسلم، حديث رقم: ٢٥٨٤ بنحوه.
٢- أخرجه البخاري في كِتَاب المَغَازِي - بَابُ غَزْوَةِ أُحُدٍ، حديث رقم: ٤٠٤٣.

الأَحْزَابَ عَنْهُ: «الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلاَ يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ»[1] أي: لا ننتظر حتى يأتوننا في موطننا، بل نخرج لهم.

ومن الاستشراف النبوي في المجال العسكري: تعيين القائد البديل كما جرى في غَزْوَةِ مُؤْتَةَ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَمَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ مُؤْتَةَ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ قُتِلَ زَيْدٌ فَجَعْفَرٌ، وَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرٌ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ»[2]، وقد وقع ما استشرفه وأخبر به صلى الله عليه وسلم.

- **استشرافه ﷺ في المجال الاقتصادي**: لا يخفى ما للاقتصاد من أهمية وأثر في حركة حياة الناس، إذ هو عصب الحياة ومحور قوتها وتطورها، ومن ثم عُني الإسلام به، ووضع له من التشريعات، والتدابير، والضوابط ما يجعله دافعاً للتعاون والتكافل، ومحركاً للإنتاج، ومنبعاً للثروة، ومصدراً للقوة...ولأجل ذلك فإن استشرافَ مستقبل الأمة الاقتصادي وتوظيفَ ما لديها من موارد، وما يستجد من حاجيات من الأهمية بمكان، ولنا في هديه ﷺ القدوة، فقد استشرف ﷺ في هذا الجانب كما في حديث سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه قَالَ: عَادَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ مِنْ وَجَعٍ أَشْفَيْتُ مِنْهُ عَلَى الْمَوْتِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ بَلَغَنِي مَا تَرَى مِنَ الْوَجَعِ، وَأَنَا ذُو مَالٍ وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَةٌ لِي وَاحِدَةٌ، أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَيْ مَالِي؟ قَالَ: لَا. قَالَ: قُلْتُ: أَفَأَتَصَدَّقُ بِشَطْرِهِ؟ قَالَ: لَا، الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ، إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ...الحديث»[3]، وفي الحديث: أنه ﷺ يستشرف حالَ الورثة، ومصلحتَهم فينهى عن الإضرار بهم، كما يرشد

١- أخرجه البخاري في كتَاب المَغَازِي - بَابُ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ وَهِيَ الأَحْزَابُ، حديث رقم: ٥١١٠، من حديث سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ.

٢- أخرجه البخاري في كتَاب المَغَازِي - بَابُ غَزْوَةِ مُؤْتَةَ مِنْ أَرْضِ الشَّأْمِ، حديث رقم: ٤٢٦١.

٣- متفق عليه: رواه البخاري، حديث رقم: ٢٧٤٢، ورواه مسلم، حديث رقم: ١٦٢٨ واللفظ له.

الحديثُ إلى العمل على بقاء الجانب الاقتصادي قوياً لدى الأفراد إذ إن قوةَ اقتصاد الوطن من قوة اقتصاد أبنائه وأفراده، كما يُفهم منه أيضاً ضرورةُ إعمال النظرة الاستشرافية المستقبلية فيما يخص الجانب الاقتصادي للأوطان من أجل عمارتها، ونهضتها.

ولعل من استشراف المستقبل في هذا المجال أيضاً: امتهانَ المهن، واحترافَ الحرف طلباً للكسب، وهرباً من البطالة، ومذلةِ سؤال الناس، أو مشاركةً في صنع اقتصاد قوي للوطن الذي نستوطنه، وهذا ما دعا إليه النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم كما جاء من حديث الزُّبَيْر بْن الْعَوَّام رَضِيَ اللهُ عَنْه، عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ قَالَ: «لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَأْتِيَ بِحُزْمَة الْحَطَب عَلَى ظَهْرِه فَيَبِيعَهَا، فَيَكُفَّ اللهُ بِهَا وَجْهَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ، أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ»[1].

- **استشرافه ﷺ في المجال السياسي**: إن صور استشراف النبي ﷺ في المجال السياسي متعددة ومتنوعة، ولعل من أهمها في عمارة الأوطان وحمايتها: قضيةَ الحاكمية إذ من المقرر أن الحاكمَ رأسُ الدولة، وسائسُها الموجه، وعقلُها المدبر، الذي قوته قوة لها، وضعفه ضعف لها، لذلك عُنيت الشريعة به بدايةً من وجوب تنصيبه ومبايعته، ثم طاعته، والصبر عليه، ثم أخيراً حرمة الخروج عليه، وذلك كله محافظةً على الوطن من التيه والضياع. عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ: فَضَرَبَ بِيَدِه عَلَى مَنْكِبِي، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةُ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَة خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا»[2]، إن إجابته ﷺ أبا ذر رضي الله عنه لا تخلو من استشرافٍ للمستقبل واستبصار له، وذلك لأن الحاكم الضعيف لا يُنتج القوةَ للبلدان، ولا يصنع المجد للأوطان، وإنما يجلب لنفسه مسائلةَ الله له،

١- رواه البخاري، حديث رقم: ١٤٣٣، واللفظ له. ورواه ابن ماجه، حديث رقم: ١٩٠٦، بلفظ مقارب.
٢- رواه مسلم في كِتَاب الإِمَارَة - بَاب كَرَاهَة الإِمَارَة بِغَيْرِ ضَرُورَة، حديث رقم: ١٨٢٥.

وحسابَه على تقصيره، كما يجلب للأوطان الوهن والضعف.

وفي هدي نبوي آخر يستشرف ﷺ عن طريق الوحي كثرةَ الخلفاء فيأمر بوجوب الوفاء لبيعة الأول، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ؛ «كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمْ الْأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَسَتَكُونُ خُلَفَاءُ تَكْثُرُ، قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا قَالَ: فُوا بِبَيْعَةِ الْأَوَّلِ فَالْأَوَّلِ، وَأَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ»[1] ولما كان العقد لإمامين في عصر واحد لا يجوز لما يترتب عليه من الفتن، وسفك الدماء، وضياع البلاد والعباد وجّه ﷺ إلى مقاتلة الخليفة الثاني إذا ما استقر الأمرُ للأول، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا بُوِيعَ لِخَلِيفَتَيْنِ فَاقْتُلُوا الْآخِرَ مِنْهُمَا»[2].

ولما لأمر الملك من أهمية في حفظ البيضة، وحراسة الدين، وعمارة الوطن، ونهضته، وحمايته، وصيانته أمر رسول الله ﷺ بالسمع والطاعة للأمير، وإنْ جاءت به أقدارُ الله تعالى على غير المراد خلقة وخُلقا، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ»[3].

ومن نماذج استشراف المستقبل للنبي الأكرم ﷺ في المجال السياسي: استشرافه ﷺ -عن طريق الوحي- ضعف الأمة ووهنها، وتداعي الأمم عليه، فعَنْ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا... الحديث»[4].

١- أخرجه مسلم في كتاب الْإِمَارَة - بَاب وُجُوب الْوَفَاء ببَيْعَة الْخُلَفَاء الْأَوَّل فَالْأَوَّل، حديث رقم: ١٨٤٢.
٢- أخرجه مسلم في كتاب الإمارة - باب إذا بويع لخليفتين، حديث رقم: ١٨٥٣.
٣- أخرجه البخاري في الأحكام / باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، حديث رقم: ٧١٤٢.
٤- أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم: ٢٢٣٩٧، بإسناد صحيح.

وفي هذا المجال أيضاً: يستشرف ﷺ عن طريق الوحي غلبةَ الإسلام وتمكنَه وانتشارَه في كثير من الأقطار ما بلغ الليل والنهار، فعَنْ تَمِيم الدَّارِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ»[1].

إن استدعاء هذا الموعود النبوي الكريم واستشرافه في واقع أمتنا المؤلم ضرورةٌ لتبديد اليأس المتسلل إلى كثير من الناس، لكن ينبغي أن يكون استشرافاً يحدوه العملُ والسعيُ لتحقيقه.

كما إن من وظائف الدراسات الاستشرافية للمستقبل تسليطَ الضوء على الأهداف المرتقبة، والآمال الواعدة من أجل تحسين بيئة العمل والسعي على عمارة الأوطان، وحمايتها...!

وختاماً أقرر قائلاً: إن استشراف المستقبل لعمارة الأوطان وحمايتها، مقصدٌ شرعيٌ لا يُهمل، وضرورةٌ مجتمعيةٌ لا تُغفل.

وصل اللهم وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

١- رواه أحمد في المسند، حديث رقم: ١٦٩٥٧، واللفظ له. ورواه الحاكم في المستدرك، حديث رقم: ٨٣٢٦، بنحوه، وقال: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ ووافقه الذهبي.

التخطيط: استراتيجية نبوية لحماية الوطن

د. علي محمد أسمر أبوشحادة

دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن،

مساعد باحث في الجامعة الأردنية (الأردن)

يقوم البحث على بيان موضوع التخطيط من حيث هو استراتيجية نبوية لحماية الوطن، ويقصد بذلك: «التدبير الخفي المحكم لإنجاز أمر حماية الوطن على وجهها الأكمل». وبما أن القضية ليست حديثًا عن التخطيط عمومًا، وإنما عن التخطيط النبوي الشريف خصوصًا؛ فقد بُني البحث على استنطاق الأحاديث الشريفة الصحيحة، وأحداث السيرة النبوية الثابتة، لاستنباط عناصر هذا التخطيط النبوي، وما فيه من توجيهات وإرشادات ودلائل نحت منحى حماية الوطن والمحافظة عليه عبر هذه الاستراتيجية.

وللتخطيط بهذا المفهوم عناصر هامّة لا بد من استطلاعها وبيانها، تكفَّل البحث بإثارتها ودراستها في ثناياه، وهي متمثلة بأركان هذا التخطيط أولًا، ووسائله ثانيًا، وأهدافه ثالثًا، وثماره أخيرًا.

فأما أركان التخطيط النبوي لحماية الوطن، فهي ثلاثة أركان رئيسة؛ أولها فكر رائد يشكل فكرة محفزة إيمانية لهذا التخطيط، وثانيها إنسان قائد يحمل مهمة إنتاج هذا التخطيط ورعايته وإتمامه، وثالثها مجموعة من الأدوات المساعدة في تحقيق هذا التخطيط على وجهه الأكمل، تتكون من تمازج الاقتصاد «الثروة المادية»، مع الإعلام «الثروة المعنوية»، والتقنية «التكنولوجيا».

وتفصيل هذه الأركان فيما يأتي:

الفكر الرائد: هو المتمثل في ثقافة ديننا الحنيف المستندة إلى الإيمان الراسخ بالله سبحانه، وقد أسست لرفعة الأوطان.

الإنسان القائد: الذي تتولى مهمة التخطيط لحماية الوطن، وقدوتنا في ذلك سيد الخلق صلى الله عليه وسلم.

الأدوات المساعدة: هي أدوات يستعملها القائد بفكره الرائد وإيمانه السائد لبناء استراتيجية الحماية، وتتمثل في:

- الاقتصاد (الثروة المادية): يتحقق ذلك برعايتها، واستثمارها، وتنميتها، وحسن توزيعها، وتداولها، كل ذلك مما أكدته سنة نبينا عليه الصلاة والسلام، كي تكون هذه الثروة سياج الدفاع عن الوطن وحمايته.

- الإعلام (الثروة المعنوية): وذلك بالاهتمام به، وإرساء القواعد الصحيحة له، وجعله الصورة المشرقة للوطن، كل ذلك مما دعت السنة المطهرة إليه، وبينته، وحثت عليه.

- التقنية (التكنولوجيا): تتمثل في الانتفاع مما يجدُّ في العصر من منتجات ومخترعات ومكتشفات، والاستعانة بها في مجالها ودورها لنفع الوطن وأهله، كما كان دأب النبي عليه الصلاة والسلام في سيرته الشريفة.

وأما وسائل هذا التخطيط النبوي لحماية الوطن، فتنقسم إلى ثلاث مجموعات كذلك؛ المجموعة الأولى منها تشمل الوسائل الأساسية، نحو قراءة الواقع، واستشراف المستقبل، والتدرج في مراحل نهضة الوطن. ثم مجموعة وسائل بنائية تنفذ هذا التخطيط وتقيمه في الواقع، وتشمل مؤسسات الوطن المتنوعة، والخدمات التي تقدم للمجتمع، والعلاقات الاجتماعية التي يبنى عليها نسيج أبنائه. والمجموعة الأخيرة فهي وسائل مساندة للتخطيط، وتتجلى في المعرفة والرياضة والفن، بوصفها محاور لصناعة نهضة الوطن.

وفيما يأتي إطلالة على كل مجموعة منها لتوضيح وسائلها:

- **الوسائل الأساسية**: هي تلك الوسائل التي تتكون منها بنية استراتيجية التخطيط، وهي:

- قراءة الواقع: إذ بإجادة قراءته، وحسن مطالعته، ومعرفة وقائعه، يسهل التخطيط، ما من شأنه أن ينفع الوطن، ويديم تجدده، وانطلاقه مما يقيده ويؤخر مسيرة تقدمه.

- استشراف المستقبل: فالتخطيط في أساسه مبني على النظرة الاستباقية للمستقبل، وتجهيز اللازم، وإعداد المأمول، والاستعداد للمنعطفات والعوائق، وكل ذلك مما ثبتت معالجة السنة الشريفة له.

- التدرج والمرحلية: ذلك ليكون التخطيط في مستويات متعددة؛ مستوى بعيد له خطته، ومستويات أقرب موزعة على مراحل، لكل مرحلة منها استعداداتها وخططها، وهذا ما تمثل في سيرة المصطفى ﷺ مكيًا ومدنيًا.

- **الوسائل البنائية**: هي التي يقع عليها دور حمل التخطيط، وإنضاج ثمرته، وإنتاج آثاره، وإقامته واقعًا، وهي:

- المؤسسات: إن بناء مؤسسات الدولة، وتنميتها، وتطويرها، ورعايتها الدائمة، وجودة انتقاء القائمين عليها وموظفيها، والاهتمام بشؤونهم على الوجه الأكمل، وهذا ما أكدت السنة النبوية كونه سببًا في قوة الوطن.

- الخدمات: ذلك من خلال ما ينبغي تقديمه لمواطني البلد من صحة وتعليم ورعاية لأساسيات الحياة وضرورياتها، مما كفله الإسلام، وحضَّت السنة المطهرة على وجوبه وتشريعه والإلزام به.

- العلاقات: تتمثل في بناء اللحمة الوثيقة بين أبناء المجتمع من خلال مواثيق التواصل، والتكافل الاجتماعي، وألوان الأخوة من برٍّ ورحمة وحقوق ونصرة وتعاون على الخير، وغير ذلك مما شرعته السنة.

- **الوسائل المساندة**: هي تلك المجالات التي لا غنى للتخطيط عن الاستعانة بها، فهي دليله التقييمي، ومن خلالها تظهر نهضة الوطن وحسن تخطيطه وجودة مخططاته، وهي داعمة في القوت ذاته لخططه ومنفذة لها، وهي:

- المعرفة: سمة الثقافة والتربية، والمحور الفكري الأساسي لإعداد أبناء المجتمع

وبناء حماة الوطن.

- الرياضة: طريق القوة والقدرة، ومحور البناء المادي للمجتمع وصحته، فلا قوة لوطن أبناؤه ضعفاء.

- الفن: سبيل الوعي والتميز، ودليل الرقي والتقدم، ومحور التحضر والنهضة.

وإذا توفرت أركان هذا التخطيط السابقة، وتم تفعيلها بواسطة الوسائل المذكورة، فإن هذا كفيل بأن تتجلى أهداف هذا التخطيط لحماية الوطن؛ ويمكن تلخيصها في هدفين، تسعى هذه الاستراتيجية لتحقيقهما؛ هما:

- **بناء الوطن وتقويته**: هو هدف دافع، يعمل باتجاه إعلاء صرح منيع للوطن، ليكون ناهضًا منافسًا في مسيرة حضارة الأمم، وليحقق الأنموذج الراقي لما ينبغي أن تكون عليه الأوطان من تقدم وتميز وإبداع ونجاح.

- **حماية الوطن من أعدائه**: هو هدف مانع، يسعى للمحافظة على سيادة الوطن، وإبعاد أعدائه عنه، والمحافظة عليه سليمًا من كيدهم، وتتوزع هذه الحماية على مستويين، هما:

- مستوى الحماية الداخلي: بمواجهة المنافقين والكائدين والمندَّسين والدخلاء في المجتمع.

- مستوى الحماية الخارجي: بمواجهة الأعداء والمنافسين وأصحاب الأهواء والمصالح.

وبتحقيق قوة الوطن الداخلية، وحمايته من أعدائه في الداخل والخارج يكون التخطيط بوصفه استراتيجية حماية للوطن قد آتى أكله، وفي المحصلة النهائية له، سيحقق أهدافه بعد إرساء أركانه، وتطبيق وسائله، ويظهر ذلك من

خلال ثمار هذا التخطيط لحماية الوطن، والتي يمكن إبرازها عبر ثلاث ثمار، فيما يأتي تفصيلها:

- **الاستقرار**: يتشكل المجتمع المطمئن الآمن، ويستقر الوطن داخليًا، مما يهيئ الأحوال للنهضة وإقامة الحضارة.
- **الانتصار**: حيث ينتصر الوطن على أعدائه والمتربصين به، من منافقي الداخل ودخلائه، وأعداء الخارج ومنافسيه.
- **الاستمرار**: حيث لا يكتمل استقرار الوطن وانتصاره إلا بدوام ذلك واستمراره، وهو ما يحقق بقاء تقدمه وحضارته.

هذا؛ وقد بنيت كل هذه الأركان والوسائل والأهداف والثمار، واستدل لها في البحث على ما صح من الأحاديث النبوية الشريفة، وأحداث سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام، لأجل أن تكون أنموذجًا لما ينبغي أن يكون عليه التخطيط لحماية الوطن من قوة ومثالية ودور، ولما لسنة النبي ﷺ من إشراقات في هذا الميدان. وفيما يأتي جدول يبين مستند كل ركن، ووسيلة، وهدف، وثمرة من استراتيجية التخطيط النبوية لحماية الوطن:

عنصر التخطيط	مستند العنصر من السنة النبوية الشريفة
ركن الفكر الرائد	آيات القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية الشريفة
ركن الإنسان القائد	الأسوة الحسنة نبينا محمد ﷺ
أداة الاقتصاد (الثروة المادية)	المؤاخاة، ولجان الزكاة، والصدقات، والنظام الاقتصاد المتين – إباحة البيع وتحريم الربا
أداة الإعلام (الثروة المعنوية)	اتخاذ كتاب الوحي والخطباء والشعراء
أداة التقنية (التكنولوجيا)	الهجرة، والمؤاخاة، والبيعة، وحفر الخندق

أساس قراءة الواقع	الخروج للدفاع عن المدينة في غزوة أحد، وحفر الخندق أمام الأحزاب
أساس استشراف المستقبل	قتل كعب بن الأشرف وغيره، وإرسال الرسائل إلى ملوك الأرض
أساس المرحلية والتدرج	اختلاف المنهج بين مكة والمدينة
بناء المؤسسات	بناء المسجد أول دخول المدينة المنورة
بناء الخدمات	أهل الصفة، وتوزيع الغنائم، والزكاة
بناء العلاقات	المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ومعاهدة المدينة
وسيلة المعرفة	كتّاب الوحي، وتعلم زيد للعبرية، وفداء أسرى بدر بتعليم المسلمين
وسيلة الرياضة	الاهتمام بالصحة، والطب، والنظافة، وتعلم الرماية، ...
وسيلة الفن	الاهتمام بالشعر والخطابة، وتكريم الشعراء
هدف بناء الوطن وتقويته	نظام المدينة المنورة وبيئتها ومجتمعها زمن النبي ﷺ
هدف حماية الوطن داخليًا	منهج التعامل النبوي مع المنافقين والدخلاء
هدف حماية الوطن خارجيًا	الغزوات والصراعات من جانب، والمعاهدات والتحالفات من جانب آخر
ثمرة الاستقرار	سيادة الإسلام للجزيرة، وعام الوفود، وحياة المدينة المنورة
ثمرة الانتصار	الانتصار على المنافقين، وعلى قريش، وكفار العرب، واليهود، والروم
ثمرة الاستمرار	ما تلى العهد النبوي من الخلافة الراشدة ونهضة الإسلام وحضارته

حمى الله أوطاننا وحفظها من كل سوء... وجعلنا من جنده في أرضه إلى أن نلقاه... آمين... آمين

حماية الأمن الوطني في السنة النبوية

(مكافحة الفساد الإداري أنموذجًا)

أ. د. عبد المحسن بن عبد الله التخيفي

أستاذ الحديث وعلومه بقسم الدراسات الإسلامية بجامعة الملك سعود (السعودية)

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

لقد تطور مفهوم الوطن من مجرد المكان الذي يستوطنه الإنسان، إلى مفهوم سياسي يرادف مفهوم «الدولة» المعاصر. وتبعًا لهذا التطور؛ تطوّر مفهوم المواطنة من مجرد الانتماء والشعور بالشوق والحنين إليه. إلى عقد اجتماعي يقوم على الالتزام بالواجبات، والمحافظة على المكتسبات.

وتتعرض الأوطان إلى أنواع من المهددات التي تتربص بها شرًا، وتستهدف دينها، وأمنها، وقيمها الاجتماعية، ومنظومتها الأخلاقية، ومقدراتها الاقتصادية. وهي مهددات تتجدد بحسب ما يجد لدى الناس من أحوال.

ومن جملة المهددات البالغة الضرر: الفساد، وهو منظومة متصلة الحلقات، يؤثر بعضها في بعض، ويرقق بعضها بعضًا، فكل سلوك فاسد وراءه نفس تشربت الفساد، وبيئة موبوءة تنمو فيها الظواهر الفاسدة، ونظام إداري فاسد يمارس الفساد، أو يعجز عن إصلاحه.

ومن حلقات هذه المنظومة من الفساد: الفساد الإداري، فإنه المعوقُ الرئيس لخطط التنمية في جمع الدول، والمهدد الأبرز للأمن الوطني فيها.

ولا ينبغي النظر إلى الفساد الإداري على أنه مجرد ممارسة إدارية خاطئة، بل هو آفة تنخر في بناء الدول السياسي والاقتصادي والأمني والأخلاقي، ومن نظر في تاريخ الدول الغابرة والمعاصرة أدرك تأثير الفساد الإداري على بقائها، أو نمائها.

والفساد في الاستعمال الشرعي عام يضاد الصلاح، وهو كل فعل مذموم في الشريعة أو لدى أهل العقول الراجحة.، وقد عرَّفته منظمة الشفافية الدولية: «كل عمل يتضمن سوء استخدام المنصب العام لتحقيق مكاسب شخصية». وهذا

التعريف يشمل جميع المناصب الإدارية، ولا يستثني من الهرم الإداري أحدًا.

وفي السنة النبوية حديث مستفيض عن الفساد عمومًا وعن الفساد الإداري خصوصًا، يتجلى من خلالها تأثير الفساد الإداري على منظومة الأمن في الأوطان وتهديد السلم المجتمعي بين أفرادها.

وحديث السنة النبوية عن الفساد ينتظم ثلاثة عناصر: مظاهر الفساد الإداري، وأسبابه، ووسائل علاجه.

مظاهر الفساد: تتمحور مظاهر الفساد الإداري في النصوص النبوية في: إعنات الرعية والتشديد عليهم، والاحتجاب عنهم، وغشهم وعدم بذل النصح لهم، وقبول الهبات، وتولية المناصب غير الأكفاء، وتقصير المجتمع في واجب النصح، وعدم الاحتساب على المسؤولين.

وهذه المظاهر تمثل مؤشرات على تمكن الفساد الإداري في الدول، وقابليتها لاختلال الأمن فيها، ومن الأمثلة التطبيقية: إعنات الرعية والتشديد عليهم: عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: «اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ به»[1]. ولو لم يكن إعنات الرعية والتشديد عليهم فسادًا إداريًا؛ لما استحق فاعله الدعاء عليه من النبيﷺ. ولا يقتصر ضرر الإعنات على كراهية المسؤول، بل يتجاوز ذلك إلى كراهية الوطن بمؤسساته وهيئاته، فتصبح مقدرات الأوطان نهبًا بين أيدي من يُؤمل منهم حمايته. وفي بيئات الذل والقهر، تُقتل الكرامة والعزة في النفوس، ويضعف الولاء للوطن، ويصبح الأفراد صيدًا سهلا للأعداء يمدون إليهم حبال الإغواء لاستمالتهم تحت ذريعة الخلوص من الحرمان.

١- أخرجه مسلم، حديث رقم: ١٨٢٨.

أسباب الفساد الإداري ترجع أسباب الفساد إلى أسباب ذاتية مثل ضعف المسؤول، وتقصيره في اختيار المستشارين الأمناء، وأسباب خارجية مثل: تقصير المجتمع في واجب النصح، وعدم الاحتساب على المسؤول، وفساد الرعية.

فالأوطان لا يحمي أمنها إلا الأقوياء الأمناء، فإذا لم تجتمع في المسؤول هاتان الصفتان (القوة والأمانة)، فإن الفساد يتسلل إلى عمله إما لضعفه، أو لفجوره.

ومن الأمثلة التطبيقية: ضعف المسؤول: فإن الضعف يولد عجزًا عن القيام بأعباء العمل، والمسؤول لابد أن يكون قويًا مُهابًا؛ فإن الضعيف يجترئ الناس عليه، ولا يقوى على ردع الظالم ولا نصرة المظلوم، ولما سأل أبو ذر رسولَ اللهﷺ أن يستعمله، امتنع عن ذلك وعلَّل ذلك بقوله: (إني أراك ضعيفًا) أي عاجزًا عن القيام بأعباء الوظيفة، وليس قصورًا في عدالته وأمانته، وتأمل جمال التوجيه النبوي حين صرف أبا ذر عن تولي كل إمارة وإن قلَّ أفرادها «يَا أَبَا ذَرٍّ إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي لَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ»[1].

وسائل العلاج: علاج الفساد له جانبان: علاج وقائي يسبق وقوع الفساد بحسن اختيار المسؤول، وتعزيز قيم الصلاح في نفسه، ومراقبة عمله، وقطع الوسائل المفضية إلى الفساد. وعلاج بعد وقوع الفساد بمحاسبة المسؤول، وعزله عند تقصيره في أداء المهام الموكلة إليه.

إن أصحاب المسؤوليات العامة في الدولة ليسوا مطلقي الأيدي يتصرفون بحسب رغباتهم وأهوائهم الشخصية، بل هم محكومون بالأنظمة التي تحقق المصلحة العامة للدولة.

المثال التطبيقي: ما جاء في بعض ألفاظ حديث ابن اللُّتبية أنه لما جاء

١- أخرجه مسلم، حديث رقم: ١٢٠٣.

بالصدقات إلى رسول الله ﷺ «حاسبه»[1]، وقد بوب عليه البخاري: «باب محاسبة الإمام عماله»، قال ابن خزيمة: «بَابُ صِفَةِ إِتْيَانِ السَّاعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا غَلَّ مِنَ الصَّدَقَةِ، وَأَمْرِ الْإِمَامِ بِمُحَاسَبَةِ السَّاعِي إِذَا قَدِمَ مِنْ سِعَايَتِهِ». وفي رواية عبد الرزاق: (فَلَمَّا حَاسَبَهُ قَالَ: هَذَا لَكُمْ وَهَذِهِ أُهْدِيَتْ لِي)[2] قال الإمام الطحاوي: «فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مُحَاسَبَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ ابْنَ اللُّتْبِيَّةِ عَلَى مَا جَرَى عَلَى يَدِهِ مِمَّا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ اسْتَعْمَلَهُ عَلَيْهِ»[3].

فعلم المسؤول أنَّه محاسبٌ على عمله خيرٌ معين له على اتقان العمل، والسلامة من إغواء النفس وتزيينها. وليس في المحاسبة تخوينٌ للمسؤول، ولكن إعانة له على ضبط عمله وإتقانه. ومحافظة على المال العام، الذي في المحافظة عليه تعزيز لقوة الاقتصاد، وحماية للأمن الوطني، والسلم المجتمعي.

أبرز المرتكزات التي يقوم عليها المنهج النبوي في مكافحة الفساد:

١- أن المنهج النبوي في مكافحة الفساد يرتكز على الإصلاح الذاتي للفرد، فهو محور الإصلاح وإليه تتجه النداءات الشرعية التي تتنوع أساليبها، وتتحد غايتها في تزكية نفسه، وحثه على لزوم التقوى، ومجانبة الفساد. وتُذكره أنه خُلق على الاستقامة.

٢- إن اللوائح والأنظمة نصوصٌ جامدةٌ لا تُحدث صلاحًا بذاتها، ربما جعلها المسؤول أداة لممارسة فساده، ولوى أعناق نصوصها لتتفق مع رغباته. فصلاح المسؤول هو السبيل لجعل الأنظمة فاعلة في الواقع.

٣- أن الفساد الإداري حلقة في منظومة الفساد، تشمل الفساد الأخلاقي

١- البخاري، حديث: ٧١٩٧، ومسلم حديث: ١٨٣٢، وابن خزيمة، حديث: ٢٣٤٠، وغيرهما.
٢- المصنف، حديث: ٦٩٥٠.
٣- شرح مشكل الآثار، ١١ / ١١٨.

والتربوي والمجتمعي والمالي، وهي حلقات تتفاعل فيما بينها، ويؤثر بعضها في بعض، ومكافحة الفساد لابد أن تكون شاملة لجميع تلك الحلقات.

٤- أن الرقابة المجتمعية وسيلة فاعلة في مكافحة الفساد، وهي أمارة على عافية المجتمع وصلاح أفراده، فإن المجتمع كالسفينة يركبها الرشيد والسفيه، فإذا خُلي بين السفهاء وأفعالهم، تكاثرت الخروق في بنائها، وآذن ذلك بغرقها وهلاك من فيها.

٥- مبدأ المحاسبة أصل عظيم في المحافظة على المال العام، وتنمية الإحساس بالمسؤولية، وليس فيه تخوين للمسؤول بل إعانة له على ضبط عمله، وإتقانه.

٦- أن بذل النصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمارة على محبة العدل والخير، وهي وسيلة لبقاء ذائقة المجتمع حية يقظة تكره الفساد، وتمقت الفاسدين.

٧- التأكيد على قطع السبل الموصلة إلى الفساد، فإنَّ النفس لا تقتحم الحرام إلا بعد مقاربة حماه، فيزول منها شناعته، ويسهل عليها الجرأة على مقارفته.

والحمد الله على فضله وتوفيقه.

أثر سيادة القانون في حماية الوطن ومعالمها في السنّة النبويّة وإشكاليّاتها

(دراسة تأصيليّة ونقديّة)

أ. مأمون محمد الدحيّم

باحث في مرحلة الدكتوراه الجامعة الأردنيّة (الأردن)

الحمد لله ربّ العلمين والصّلاة والسّلام على سيّد المرسلين، وبعد،

فإنّ علاقة كلّ إنسان بوطنه لا تمثّل مجرّد تعلّق ببقعة جغرافيّة محدودة فقطْ، وإنّما تمثّل تاريخًا وحضارة ونحو هذه المعاني العميقة التي تتشكّل بمجموعها في حروف معدودة تسمّى: (وطن)، ويبقى المرء مدينًا إلى هذه الحروف بما تحمله من معانٍ قد لا يستطيع التّعبير عن مكنونها إلا أنّه يعلم يقينا بأنّها تعبّر عن وطنه، مهما كانت ظروف وطنه فإنّه لا ينبغي أن يفرط في انتمائه إليه وحبّه له وتعلّقه به.

وإنّ الانتماء إلى الوطن على الحقيقة يظهر من خلال ترجمة عمليّة في السّير في تطويره وتنميته في سبيل الالتحاق بالأمم المتطوّرة المزدهرة، وكذلك في حمايته من كلّ عقبة تقف أمام منطلقات ازدهاره، أو تحول بين الوطن والتّعايش السّلميّ وشرائحه المتنوّعة، أو بينه وبين أمنه سواء على الصعيد الداخليّ أم الخارجيّ، ونستطيع أن نقول: (انتماؤك للوطن يقتضي حمايته) على سياق قول القائل: «الوطنية تعمل ولا تتكلّم» في سبيل الانتقال خطوة من التنظير إلى العمليّة، ومن دعاوى الانتماء إلى ترجمتها وبرهنتها.

وإنّ وجود القانون في الأوطان التي تسعى لتطوير ذاتها ورقيّها وسيادته تعدّ من أهمّ سبل حماية الوطن من عواقب الصّراعات الداخليّة التي قد تمتدّ خارجيّا، وكذلك في وقايته من تفشّي الفساد في مؤسّساته وانتشار الوساطات وتوظيف غير ذوي الكفاءات، وكذلك في الحدّ من تكرار وقوع الجرائم، أو في عدم وقوعها أصالة لوجود قناعة تامة لدى المواطنين في أهمية فرض قانون رادع وعقوبات لا سبيل إلى عدم تطبيقها، أو عدم المساواة في تنفيذها أو الشّفاعة في تجاوزها.

وإذا نظرنا إلى التشريعات الإسلاميّة الواردة في القرآن الكريم والسنّة النبويّة فإنها تعدّ بمنزلة القانون الإسلاميّ، ثم إذا تتبّعنا سيرة القائد لهذه الدولة الإسلاميّة

التي تعدّ المدينة المنوّرة عاصمتها الكبرى والملاذ الأكبر لمواطنيها، فإنّنا نجدُ النبيّ الكريم ﷺ قد راعى مبدأ تطبيق سيادة القانون في المجتمع الإسلاميّ من خلال سنّه لقواعد عامّة تعبّر عن جوهرها وتؤكّد على أهميّتها في الأحاديث النبويّة.

وتكاد أن تختزل معاني سيادة القانون في تفسيرين: (شكليّ، وجوهريّ)، فأمّا التّفسير الشكليّ فهو الذي يعبّر عن انعدام الفوضى داخل الوطن من خلال وجود القانون وأنْ يكون المصدرَ الأساسيَّ في القرارات، وأمّا التّفسير الجوهريّ فهو الذي جعل الهيمنة للقانون داخل المجتمع المنظّم قانونا، ولا يتعلّق بوجود القانون أو عدمه؛ لأنّ القانون موجود ولكنْ تنقصه السّيادة، وبناء عليه فإنّ سيادة القانون لا تكتفي بوجود قانون ينص على قاعدة قانونيّة تحكم موضوعا معيّنا، بل تتطلّب فحص النصّ القانونيّ وكيفيّة تطبيقه وتقييمه وفق مبادئ ومعايير وقيم معينة.

وإذا نظرنا إلى بداية تشكّل مصطلح: (سيادة القانون) التي تحتّمت الحاجة إلى تأصيل معالمه بعد الحربين العالميتّين الأولى والثّانية إثر التقلّبات الاجتماعية والسّياسيّة الكبيرة، التي أدرك البشر إثرها بأنّ مبادئ سيادة القانون تحتاج إلى تعريف وتطبيق بصورة شاملة[1]؛ يتبيّن لدينا أنّ ظروف الحاجة إلى هذا المصطلح كانت عقب انعدام الاستقرار في تلك الأوطان ذات الحروب العالميّة وكأنّها إشارة إلى أنّ تفعيل مبادئ سيادة القانون سيكون سببًا في المحافظة على استقرار تلك الأوطان على الصّعيدين الداخليّ والخارجيّ، وذلك في سبيل عدم تكرار تلك التجربة التي كانت وبالا على الأوطان.

وتبرز الدّراسة أثر سيادة القانون في حماية الوطن من خلال قراءة في ميثاق الأمم المتحدّة ومقالاتها عن سيادة القانون التي تمثّل حماية الأوطان على الصّعيد الخارجيّ، وكذلك من خلال قراءة في الورقة النّقاشيّة الملكيّة السّادسة لجلالة

١- سامر أحمد موسى، مبدأ سيادة القانون، موقع إلكتروني.

الملك عبد الله الثّاني بن الحسين وبعض الدراسات التطبيقيّة لدور سيادة القانون على أوطان محدّدة التي تمثّل معالم مهمّة لحماية الوطن على الصّعيد الدّاخليّ بصورة أعمق.

وتبيّن مدى أهميّة سيادة القانون في حماية الوطن من عواقب الصّراعات الداخليّة والنّزاعات والحروب على صعيد خارجيّ، وتعدّ كفيلا أمينا لحقوق المواطنين والحدّ من الجرائم وتسلّط الأنظمة السّلطويّة وتفشّي الفساد بكافّة أشكاله، وتعزّز الإدارة الحصيفة للأوطان ذات الانتماءات المتعدّدة من حيث الدّين، أو العرق، أو القبيلة، أو الأقليّات، وتسهم في حماية الوطن من عوائق تقدّمه ورقيّه وازدهارها. وظهر بصورة جليّة أنّ المنظّمات الدوليّة والخطابات السياسيّة قد أولتْ العناية الكبيرة بسيادة القانون وربطتها بأمن الأوطان وتحقيق السّلام وحمايتها من ويلات الحروب والنّزاعات والتحوّلات الجذريّة الإقليميّة، التي كان أحد أسبابها انعدام سيادة القانون. ولقد ظهر أثر تطبيق سيادة القانون في حماية الأوطان المتحضّرة في الحدّ من الجرائم والعنف، وأنّ تفعيل القوانين كان الحلّ الأنجع في تطويق الجريمة لمعالجة ظاهرة باتت تنخر استقرار الدول المتطوّرة.

وفي إطار التشريع الإسلاميّ فإنّ الوحي المنزّل على الرسول ﷺ قرآنا وسنّة بمنزلة قانون المجتمع الإسلاميّ، الذي بدأت تتضّح معالمه في الفترة المدنيّة بحكم بداية تشكّل معالم الدولة الإسلاميّة متمثّلة بالقائد الأكبر: (رسول الله ﷺ) والمجتمع ذي الانتماءات المتعدّدة الدينيّة والقبلية، و«يتّسق الفكر القانوني الإسلامي في أصوله مع مفهوم سيادة القانون طبقا لدلالته العامة المشتركة، فهو يتّفق مع التفسير الشكلي للمفهوم والمتعلّق بوجوب وجود قانون ينظّم شؤون المجتمع ووجود قواعد تحكم العلاقات بين النّاس»[1].

١- خيري، مفهوم سيادة القانون في الفكر القانوني المقارن، موقع إلكتروني (بتصرّف).

وعلى الرّغم من تأصّل مبادئ سيادة القانون في القرآن الكريم ابتداء من خلال الأمر بالتّحاكم إلى الله والرّسول في شؤون الحياة وظروفها؛ إلا إنّ الدّراسة قد سلّطت الضوء على معالم سيادة القانون في التطبيق العمليّ لإدارة المجتمع الإسلاميّ من خلال ما جاء من قواعد تدعمها وتؤكّدها في الأحاديث النبويّة، وإنّ في تلك المعالم القانونيّة النبويّة دلالة على السّبق العلمي القانونيّ في تنظيم المجتمع الإسلامي وتأصيل أسس سيادة القانون وقواعدها وبذور مبادئها التي تتمحور حولها ولا تكتمل إلا من خلالها. ولقد تبيّنت معالم السيادة للقانون في السنّة النبويّة من خلال سنّ شعار يجعل القانون فوق الجميع وتطبيقه وفق مبدأ المساواة، وكذلك في الحزم في تنفيذ القوانين ونزاهة القضاء وتفعيل مبدأ المحاسبة والمساءلة، وكذلك في عدم التّحاكم دون قانون أو التحايل عليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

السنة النبوية وحماية الوطن
من خلال تأمين النشاط الاقتصادي للمجتمع

د. عزالدين بن زغيبة

رئيس قسم الدراسات والنشر والشؤون الخارجية

بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث (الجزائر)

تعد حماية الوطن من كل ما يؤدي إلى اختلال أمنه وانهيار اقتصاده وتفكك نسيج مجتمعه من آكد ضروريات الحياة وأعظمها خطرا، وبخاصة أمنه الاقتصادي منها، فهو ركنها الركين، وأسها المتين، وهو مطلب فطري، يسعى الناس لتحقيقه وإقامته أفرادًا وجماعات وأممًا، لأن به تطمئن النفوس، وتنشط به الهمم، ويُمكّن فيه البريء، ويأنس الضعيف.

وتتأكد هذه الحماية للوطن بتوفير الأمن لأبنائه والمقيمين فيه؛ لأنه إذا فقد الأمن حل محله الخوف الذي يقبض الناس عن مصالحهم، ويحجزهم عن تصرفهم، ويكفهم عن أسباب المواد التي بها قيام نفوسهم، وانتظام جمعهم، واستمرار حياتهم، فتضيق سبل معاشهم، وتسوء بذلك حالهم، مما يفضي إلى تبدل طبائعهم، فيكونون بذلك إلى الفتنة أقرب، وعن السلامة أبعد.

وتبلغ حماية الوطن تمامها عندما يستولي حبه على قلوب الناس فتصير نفوسهم رخيصة من أجل سلامته، فيبذلونها له وما يملكون دون تردد.

أولا: أهمية إقامة الأمن وأثره في حماية الوطن: إن لإقامة الأمن في حياة الأمم والشعوب أهمية بالغة ومكانة خطيرة لما له من أثر حاسم في حماية الأوطان واستقرارها من كل يد عادية أو عابثة خارجية كانت أم داخلية، فلذلك جعله الله تعالى وصفا لبيته الحرام وخاصية من خصائصه، فقال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ (البقرة: ١٢٥). ولما أقسم سبحانه بمكة المكرمة وصفها بالأمن، فقال: ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ (التين: ٣)؛ لأنها موضع البيت الحرام الذي جعل أمنا للناس، كما أنه تعالى جعل جزاء الذين أخلصوا في إيمانهم ولم يخلطوه بظلم أن يمنحهم الأمن في الحياة الدنيا، فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (الأنعام: ٨٢). وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ (النور: ٥٥).

وقد أثنى الله تعالى على المتصدين للتجارة والمتقلبين بأموالهم في الأسفار، ورفع من منزلتهم وقدرهم، حتى قرن بينهم وبين المقاتلين في سبيل الله، فقال: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (المزمل: ٢٠).

وروي عن عبد الله بن عمر أنه قال: «ما موت أحب إلي بعد الشهادة في سبيل الله من أن أموت متجرا؛ لأن الله قرن بين التجارة والجهاد في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾»[1]، واعتمادا على المعنى الذي يجعل من إقامة التجارة - التي هي عمود الاقتصاد في كل حضارة - وتحقيق الأمن لها أمرين متلازمين.

ثانيا: حماية ثروة الأمة والمال العام وأثرها في حماية الوطن: إن صيانة الأوطان وازدهارها وتحقيق رغد العيش في أكنافها للمقيمن بها وزائرها مرهون بتأمين ثروة الأمة وحماية المال العام والخاص وصيانته عن الأيادي العادية والعابثة، فقد ورد في ذلك أحاديث كثيرة، منها ما هو بصيغة العموم فيتناول الأموال عموما، ومنها ما هو خاص، فيتناول نوعًا منها بعينه فقط.

فقد دعت السنة المطهرة المسلمين إلى الاقتصاد في إنفاق المال وحسن تدبيره وإصلاحه والقيام عليه؛ لأن في ذلك وقاية من العالة والفاقة وحفظا للمجتمع من ضيق العيش المؤدي إلى اختلال النظام وانخرام العمران، فقال رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا عَالَ مَنِ اقْتَصَدَ»[2]، وقبل: «حسن التدبير مع الكفاف خير من الكثير مع الإسراف»[3]، قال الإمام المقري في قواعده: «من مقاصد الشريعة صون الأموال عن الناس، فمن ثم نهى عن إضاعتها، وعن بيع الغرر والمجهول»[4].

١- ابن عاشور، مقاصد، ١٧٥-١٧٦.
٢- أخرجه الإمام أحمد في مسنده، حديث رقم: ٤٣٥٥.
٣- ابن أبي الدنيا، إصلاح المال، ٢٣٧.
٤- القواعد، مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس تحت رقم ١٤٦٨٢ ورقة ١١١.

وكان عمر بن الخطاب يحذر أصحابه من الإسراف، ويدعوهم إلى إصلاح المال ولو كان قليلا؛ لأنه في رأيه أن القليل مع الإصلاح لا ينقص، لكن الكثير مع السرف لا يبقى منه شيء، حيث قال: «الخرق في المعيشة أخوف عندي عليكم من العوز، لا يقل شيء مع الإصلاح ولا يبقى شيء مع الفساد»[1]، لأن تسلل الفساد إلى الموكلين بإدارة النشاط الاقتصادي للمجتمع والمشرفين على تسيير ثروته، يؤدي حتما إلى سوء توزيع الثروة، وانحصار عدد المستفيدين بها، مما يؤدي إلى ثورة الفاقد على الواجد، والتي تنعكس بشكل مباشر على انتظام المجتمع واختلال أمن البلاد والعباد وتعطل عجلة التنمية وانحصارها وركود النشاط الاقتصادي وتراجعه، مما يورث في نفوس المواطنين الإحباط وفقدان الأمل والخوف من المستقبل مما يؤدي إلى تناقص الروح الوطنية المؤدية إلى تعاظم المخاطر المحدقة بالوطن.

ولعل من أعظم المهددات خطرا على حمى البلاد، وأكثرها تدميرا لثروة الأمة ونشاطها الاقتصادي وعلى النظام العام للمجتمع عموما هو تزوير النقود، ولذلك نجد العلماء يشددون في عقوبتها، ويطالبون الحكام والولاة بالتغليظ على مرتكبيها، والمداومة في تفقد الأسواق ومراقبة النقود.

ثالثا: السنة وتأمين النشاط الاقتصادي وأثرها في حماية الوطن: إن تحقيق الأمن للنشاط الاقتصادي في أي أمة يعزز في أفرادها روح المبادرة والابتكار، ويزيد في قوة الفاعلية والأداء لديهم ويكسبهم القدرة على التحمل، كما أنه يعزز في الوقت نفسه النمو والتنمية.

ولا يمكن أن يتصف أي اقتصاد بالفعالية وبالإنسانية ما لم تتوفر فيه تدابير وإجراءات كافية لتأمين نشاطات الفاعلين فيه والمحركين له؛ حيث يكون بمقدور الناس أن يستجيبوا لتحديات الحياة، ويتكيفوا مع التغيرات الاقتصادية

١- أبو بكر الخلال، الحث على التجارة والصناعة، ٣٣ - ابن رشد، البيان والتحصيل، ١٧ / ٥٩٨.

والاجتماعية التي تحيط بهم، ويدرؤوا عن أنفسهم خطر الكوارث والآفات، ويتمكنوا من تنمية إمكاناتهم البشرية لتوفير حياة أفضل وسبل معيشة أكثر أمانا، ويدعم الاستقرار الاجتماعي الذي يحمي الوطن ويكسبه حصنا منيعا من أي خطر داخلي أو تهديد خارجي.

وتحصل هذه الحماية للاقتصاد الوطني بأمرين مهمين هما: حسم كل العوائق المعطلة لمسالك الرواج الاقتصادي. والثاني: تقييد تصرفات المكلفين لتأمين النشاط الاقتصادي. وسأتعرض لهذين العنصرين بالشرح والتفصيل.

١- **حسم كل العوائق المعطلة لمسالك الرواج الاقتصادي**: إن المقصود بالرواج ليس نقل السلع من سوق إلى سوق، أو من مصر إلى مصر فحسب، وإنما الرواج الحقيقي هو إنتاج تلك السلع وإيجادها سواء بطريق الزراعة أو بطريق الصناعة؛ لأنه اذا انعدم الإنتاج فلن تكون هناك سلع، وإذا انعدمت السلع فليس هناك ما يتم ترويجه، حينها تكون البلاد عالة على غيرها من البلدان، وتكون سيادتها مرهونة بيد الدول المزودة لها باحتياجاتها مما يؤدي إلى انخرام عنصر الحماية واستقلال القرار الوطني، من أجل ذلك جاء حث السنة للمسلمين على الاهتمام بالإنتاج والعناية بمسالكه، حيث قال صلى الله عليه وسلم: «ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة»[1].

وجاء في الصحيح قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ مُسْلِم يَغْرِسُ غَرْسًا إِلَّا كَانَ مَا أُكِلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةً، وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَتِ الطَّيْرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَلَا يَرْزَؤُهُ أَحَدٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ»،[2]

١- أخرجه البخاري، كتاب المزارعة، باب (فضل الزرع والغرس إذا أكل منه) ٢ / ٤٥ - مسلم، كتاب المساقاة، باب (فضل الزرع والغرس)، ٣ / ١١٨٨

٢- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، الحديث رقم: ٧.

وقال أيضا: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ»، ولما كان زَمن عمر، فكثر المال، وحدثت الأعطية، فكف الناس عن طلب المعيشة وإصلاح أموالهم، وتعطل إنتاجهم شعر عمر رضي الله عنه بخطر هذا التصرف من أصحابه، وأن ما راج بأيديهم من أموال غير دائم، وإنما الذي يدوم إنتاجهم واصطناعهم في أموالهم، فدعاهم لذلك، فقال: «أيها الناس أصلحوا معايشكم؛ فإن فيها صلاحكم وصلة لغيركم»[1].

ونظرا لأهمية مسلك الرواج في تحقيق الأمن الاقتصادي للدولة والمجتمع لم تحصر الشريعة التعامل بالبيع والشراء وغيره من عقود المعاوضات في دائرة المسلمين فقط، مثل ما فعلت في النكاح، بل سمحت للمسلمين بالتعامل مع غيرهم من أهل الديانات الأخرى ومتاجرتهم إذا قدموا بأمان[2]، فقد روي عن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق قال: «بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاء رجل مشرك مشعار طويل بغنم يسوقها فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أبيعا أم عطيه أم هبة» فقال: بل بيع، فاشترى صلى الله عليه وسلم شاة[3]، وبوب البخاري رحمه الله تعالى على هذا الحديث باب (البيع والشراء مع المشركين وأهل الحرب).

٢- **منع الاحتكار**: إن جريمة الاحتكار هي من أكثر الجرائم قدمًا وأبعدها ايغالًا في تاريخ التبادل التجاري البشري، نظرًا لارتباطها بالمعاملات اليومية للناس كافة والمتعلقة بالبيع والشراء للسلع الضرورية والكمالية.

١- ابن أبي الدنيا، إصلاح المال، ١٧٥.
٢- ابن رشد، المقدمات، ٢ / ١٥٤-١٥٦ - الونشريسي، المعيار، ٦ / ٤٣٣ - بدران، العلاقات الاجتماعية، ٢٣٢٢- ابن عبدالسلام، قواعد الأحكام، ٢ / ١٥١ - ابن المنذر، الإشراف، ١ / ٧٠.
٣- أخرجه البخاري، باب البيع والشراء مع المشركين وأهل الحرب، ٣ / ٣٨.

والمقصود بالاحتكار اختزان السلعة وحبسها عن طلابها، والتربص بها حتى يتحكم المختزن في رفع سعرها؛ لقلة المعروض منها وانعدامه فيتسنى له أن يغليها كيفما شاء[1].

والاحتكار بهذا المعنى منع السلع الضرورية لحياة الناس، وما يحتاجون إليه من الوصول إلى أسواق الاستهلاك، كما أنه عمل مضاد لتحقيق مقصد رواج الأموال وتداولها ودورانها بين أيدي الناس، فالاحتكار إذن أمر يهدد أمن وسلامة الوطن إلى حد كبير وله تأثيرات سلبية على النشاط الاقتصادي وكذلك على الناحية الاجتماعية برمتها، بل إن بعض الدول الكبرى أصبحت تستخدم أسلوب الاحتكار من أجل التحكم في الشؤون السياسية والاقتصادية بل الاجتماعية في كثير من الحالات للدول الأخرى، مما يؤدي إلى انخرام السيادة الوطنية أو تلاشيها

ومن هنا جاءت النصوص الشرعية ناهية عن هذا التصرف ومحذرة من عواقبه الأخروية، حيث قال صلى الله عليه وسلم: «لَا يَحْتَكِرُ إِلَّا خَاطِئٌ»[2]، وقال: «الْجَالِبُ مَرْزُوقٌ، وَالْمُحْتَكِرُ مَلْعُونٌ»[3]، وجاء عن مالك، أنه بلغه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لَا حُكْرَةَ فِي سُوقِنَا، لَا يَعْمِدُ رِجَالٌ بِأَيْدِيهِمْ فُضُولٌ مِنْ أَذْهَابٍ، إِلَى رِزْقٍ مِنْ رِزْقِ اللهِ نَزَلَ بِسَاحَتِنَا، فَيَحْتَكِرُونَهُ عَلَيْنَا، وَلَكِنْ أَيُّمَا جَالِبٍ جَلَبَ عَلَى عَمُودِ كَبِدِهِ فِي الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ، فَذَلِكَ ضَيْفُ عُمَرَ، فَلْيَبِعْ كَيْفَ شَاءَ اللهُ، وَلْيُمْسِكْ كَيْفَ شَاءَ اللهُ»[4]، وعن مالك أنه بلغه أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان ينهى عن الحكرة[5].

١- النووي، المجموع، ١٣ / ٤٦.

٢- أخرجه مسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم الاحتكار في الأقوات، ٣ / ١٢٢٨ - الإمام أحمد، المسند، ٣ / ٣٥٣.

٣- أخرجه الدارمي، كتاب البيوع، باب في النهي عن الاحتكار، ٢ / ٢٤٩ - سنن ابن ماجة، كتاب التجارات، باب الحكرة والجلب، ٢ / ٧٢٨ -أخرجه الحاكم، المستدرك، كتاب البيوع، ٢ / ١١.

٤- كتاب الموطأ، كتاب البيوع، باب، الحكرة والتربص، ٢ / ٦٥١.

٥- كتاب الموطأ، كتاب البيوع، باب، الحكرة والتربص، ٢ / ٦٥١.

٣- **تقييد تصرفات المكلفين لتأمين النشاط الاقتصادي**: ومما يدخل في هذا الباب تقييد الشريعة لحرية التصرف بقيود راجعة إلى حفظ مقاصد الشريعة في الأمة، إما لدرء مفسدة عامة أو مضرة خاصة، ويحصل هذا عندما يكون التصرف نفسه فيه إضرار بالغير، ودليل هذا قوله صلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم: «لَا يُمْنَعُ فَضْلُ الْمَاءِ لِيُمْنَعَ بِهِ الْكَلَأُ»[١]، فمنع فضل الماء المملوك جائز؛ لأنه تصرف في المملوك بناء على عدم وجوب المعروف، وهو قول المالكية، ولكن لَمَّا اتخذ حيلة لمنع الكلأ الذي حوله، صار منع الماء منهيًا عنه؛ لأن الرعاة لا يرعون مكانًا لا ماءَ فيه لسقي ماشيتهم.[٢]

وفي الأخير أظن أنني قد أتيت على المقصود من الموضوع، وقد بذلت فيه غاية المجهود، وبهذا العمل آمل أن أكون قد ساهمت مساهمة متواضعة في تحقيق رسالة هذه الندوة وكذا المشاركة في إنجاز بعض أهدافها.

ومن خلال المدة التي قضيتها في البحث مع هذا الموضوع أجمع شوارده، وأقيد أوابده، وألم أطرافه، واستخرج أصوله وفروعه، وأحرر معانيه وأفكاره، خرجت بهذه الخلاصة التي أعتبرها نتيجة وفي الوقت نفسه هي توصية لهذه الندوة الموقرة.

١- يعد الأمن من أوكد ضرورات الحياة وأعظمها خطرا، ومطلبا فطريا يسعى الناس إلى تحقيقه وإقامته أفرادا وجماعات؛ لأنه إذا فقد المجتمع الأمن حل محله الخوف الذي يقبض الناس عن مصالحهم، ويحجزهم عن تصرفاتهم، ويكفهم عن أسباب المواد التي بها قيام نفوسهم وانتظام جمعهم، ولما كان نماء الأموال وإصلاحها بالاتجار والاستثمار وانتقالها بين أسواق الأقطار والأمصار مرهون بمدى تحقق الأمن في تلك البقاع والطرق الموصلة إليها

١- أخرجه مسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم فضل بيع الماء، ٤٠٨٩، ١٠ / ٢٠٨.
٢- انظر، مقاصد الشريعة، ابن عاشور، ٢٩٥.

كان الأمن شرطا أساسيا لنجاح أي نشاط اقتصادي مهما كان نوعه، وعنصرا ضروريا لتطور البلدان وازدهارها، فأصبح بذلك الأمن والاقتصاد أمرين متلازمين فلا تنمية اقتصادية دون أمن ولا أمن دون رخاء اقتصادي.

٢- وللأمن الاقتصادي أهمية عظمى تتعدى أهمية الأمن الصحي والثقافي والغذائي في حماية الوطن وهو ما حرصت عليه السنة النبوية كما بيناه في البحث.

حماية الدخل القومي
في السنة النبوية وأثر ذلك في حماية الوطن

د. محمود فهد أحمد مهيدات

مدير مكتب إفتاء لواء الكورة

دائرة الإفتاء العام الأردنية (الأردن)

السنة النبوية هي المصدر الثاني للتشريع، وقد أمر الله تعالى بطاعة النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ (النور: ٥٤). ولها منزلة عظيمة من القرآن الكريم؛ فهي مؤكِّدة ومقررة لما جاء فيه، ومفصلة ومبيِّنة وموضحة لما أُجمِلَ في آياته، ولذلك فهي الطريق الذي ينير لنا معالم الحياة بجميع جوانبها، فنهتدي بها إلى أرشد أمورنا.

ومن الجوانب التي رعتها السنة النبوية الجانب الاقتصادي الذي ينظم حياة الناس من حيث معيشتهم ليحقق لهم حياة كريمة وطيبة. فلا غرو أنّ الدخل القومي وهو مجموع الدخول التي يحصل عليها أفراد المجتمع مقابل مساهمتهم في عملية الإنتاج خلال فترة زمنية معينة سنة في الغالب هو الدالُّ على مدى استقرار الاقتصاد من عدمه من خلال التباين بين حجمه ومقداره بين سنة وأخرى.

وبذلك فهو مؤشر لقياس مدى التطور والنُموّ والتقدم الاقتصادي في أي وطن. وهو الدال على مستوى الرفاهية والعيش الكريم لأفراد المجتمع، لذلك فإنّ السنة النبوية شرعت منظومة من الأحكام الشرعية من شأنها المحافظة على الدخل القومي من حيث العبث به أو الاعتداء عليه، ويتمثل ذلك في حمايتها مصادر دخول الأفراد من جانبي الوجود والعدم؛ أما جانب الوجود فمن خلال ما جاءت به من نصوص نبوية كفلت هذا المقصد، وهي: ثبوت الحق للفقراء في أموال الأغنياء؛ حيث أثبتت للفقراء حقاً مالياً في مال الأغنياء عبر آلية الزكاة، وكفالة حق العامل «الموظف العام» لمقومات الحياة؛ قال ﷺ: «مَنْ كَانَ لَنَا عَامِلًا فَلْيَكْتَسِبْ زَوْجَةً، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ خَادِمٌ فَلْيَكْتَسِبْ خَادِمًا، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَسْكَنٌ فَلْيَكْتَسِبْ مَسْكَنًا قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أُخْبِرْتُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنِ اتَّخَذَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَهُوَ غَالٌّ أَوْ سَارِقٌ»، ووضع الجائحة: قال ﷺ: «لَوْ بِعْتَ مِنْ أَخِيكَ ثَمَرًا فَأَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ، فَلَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُ شَيْئًا، بِمَ تَأْخُذُ مَالَ أَخِيكَ بِغَيْرِ

حَقٍّ؟»، والحث على العمل: قال ﷺ: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»، وكذلك الحث على استغلال الأرض واستثمارها؛ قال ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَزْرَعْهَا، أَوْ لِيَمْنَحْهَا، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلْيُمْسِكْ أَرْضَهُ»، وحرم الكنز أيضا؛ قال ﷺ: «يَكُونُ كَنْزُ أَحَدِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ».

أما من جانب العدم: ففي نصوص السنة الدالة على حماية دخول الأفراد من انعدامها وتلاشيها، وهي: تحريم الاعتداء على أموال الناس؛ قال ﷺ: «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم... الحديث، ووجوب الوفاء بالأجر: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ اللهُ: ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ»، وتحريم الغش والتدليس، ولو من غير قصد؛ نحو قوله ﷺ: «مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟ قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ، يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ؟ مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي». والنهي عن مماطلة الدائن: عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ، وَإِذَا أُتْبِعَ أَحَدُكُمْ عَلَى مَلِيٍّ فَلْيَتْبَعْ». وقطع يد السارق: قال صلى الله عليه وسلم «تُقْطَعُ يَدُ السَّارِقِ فِي رُبُعِ دِينَارٍ». وتحريم الاحتكار: قال ﷺ: «لَا يَحْتَكِرُ إِلَّا خَاطِئٌ»، والنهي عن تلقي الركبان وعن بيع الحاضر لباد؛ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ: «نَهَى أَنْ تُتَلَقَّى السِّلَعُ حَتَّى تَبْلُغَ الْأَسْوَاقَ»، و النهي عن الإسراف: قال النبي ﷺ: «كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَةٍ».

يمكن القول إذاً: إنّ ما جاءت به السنة النبوية من تشريعات لحماية مصادر دخول الأفراد هو حمايةٌ من الاعتداء عليها، وبما أن الدخل القومي هو مجموع دخول الأفراد الذين شاركوا في عمليات الإنتاج، فإنّ حماية السنة النبوية لدخول الأفراد حمايةٌ للدخل القومي، وحمايةٌ للوطن من كافة الأخطار الأمنية،

والسياسية، والدينية «التطرف»، والاقتصادية التي تخل بأمن الوطن وتُضيِّقُ على المواطنين معيشتهم. ويعني هذا أنّ ثمة ارتباطاً وتكاملاً بين تحقق الأمن واستقرار الدخل القومي؛ فكل منهما ضروري لتحقق الآخر، فلا عيش كريم إلا بتوفر الأمن، ولا أمن إلا بتوفر العيش الكريم. ولا غرو أنّ هذا سينعكس أثره على فكر المواطنين، فيصلح فهمهم ويحسن قصدهم، لأنّ من أهم الأخطار التي تخل بأمن الوطن والمواطن الخطر الاقتصادي الذي يتمثل في عدم توفر أسباب العيش الكريم، لكن حينما ينعدم هذا الخطر ويتلاشى بتوفر دخل حقيقي يفي بكافة ضروراتهم وحاجاتهم، لا يبقى لديهم مسوغًا للتفكير فيما فيه إخلال بأمن الوطن واستقراره، إنما يتولد لديهم الرِّضى عن أداء دولتهم والولاء للوطن، فيحرصون على أمنه واستقراره حرصهم على أمنهم وعلى مستوى عيشهم الكريم، ورفاهيتهم التي هي مطمع كل مواطن. ويتحقق هذا كله بالتزام الدولة والأفراد بما جاءت به السنة النبوية من التشريعات الاقتصادية لحماية دخول الأفراد «الدخل القومي»، ونجملها بما يلي:

١- **عدالة التوزيع**: تتحقق عدالة التوزيع بإعطاء كل ذي حق حقّه دون بخس ولا تأخير، ومنع الظلم بجميع صوره وأشكاله، من خلال نظام إعادة التوزيع وهو: عبارة عن سحب جزء من الدخول الموزعة وظيفياً، وإعادة دفعها إلى مستحقين آخرين بحسب اعتبارات غير وظيفية اجتماعية أو إنسانية، وذلك باعتماد آلية للزكاة تعيد توزيع الدخول وبعض الثروات حولياً (كل عام) على أساس الحاجة.

٢- **تشجيع الاستثمار والتحذير من الاكتناز**: الاستثمار هو: توظيف الفرد المسلم ماله الزائد عن حاجاته الضرورية بشكل مباشر أو غير مباشر في نشاط اقتصادي لا يتعارض مع مبادئ الشرع ومقاصده العامة، والاكتناز هو: الاحتفاظ بالثروة بغير استثمار، ومقصد ذلك كله إشباع الحاجات الأساسية

وتحقيق الرفاهية، وإزالة كافة الأسباب الرئيسة للمتاعب، وتحسين نوعية الحياة معنوياً ومادياً[1]. وأي مجتمع تتحقق له هذه النعم لن يفكر أبناؤه إلا بما يحمي وطنهم من كل خطر يتهدد أمنه.

٣- **الحث على العمل والكسب**: من وسائل لحصول على عائد يستعين به الفرد على إشباع حاجاته وضرورياته، ومتطلبات حياته العمل؛ فيه تتحقق زيادة دخول الأفراد، وزيادة الدخل القومي، ورفع مستوى المعيشي لهم، وتحقيق الأمن الاجتماعي، وتقليل الجريمة بكل أنواعها، وتحصل بذلك حماية الوطن من كل ما يهدد أمنه واستقراره.

٤- **ضبط الإنفاق (الاستهلاك أنموذجاً)**: ما ينفقه المستهلك على السلع والخدمات ليست سوى سعي لتحقيق منفعة أو إشباع حاجة. وهو الشرط المادي لاستمرار حياة الإنسان. لذلك أوجبت الشريعة عليه أن يستهلك بالقدر الذي يكفل له هذا المقصد دون إسراف ولا تجاوز في الحد. ومن هنا، اعتنت الشريعة بترشيد الاستهلاك، ودعت إلى الاعتدال في الإنفاق، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾ (الفرقان: ٦٧) وقد أكدت السنة هذا المبدأ بقوله صلى الله عليه وسلم «كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا في غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَةٍ»، ولذلك فإنّ للزيادة في الاستهلاك وتجاوز حد الحَاجة سيكون لها أثرًا على تدني الدخل النقدي الحقيقي، لأنه أنفق جزءًا من دخله في غير حاجة أو ضرورة. هذا النقصان سيكون على حساب حاجات أخرى هو بحاجة لإشباعها فيضطر عندها إلى سلوك تصرفات سلبية، ممكن يسرق، أو يحتال، أو يغش..الخ، فضلاً عن الأثر الصحي الذي سيكون سبباً في تدني مستواه الصحي فليحق الضرر بنفسه، لما سيصيبه من الأمراض، فيترتب عليه نفقات علاجية ستكون على

١- شابرا، عمر، نحو نظام نقدي عادل، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٢، ١٩٩٠، ص٤٧.

حساب مخصصات إنفاقه على حاجاته، وكلها في النهاية ستتسبب في تدني مستوى الرفاهية ومستوى العيش الكريم، وسيكون لها أثر واضح في الإخلال بأمن الوطن والمواطنين.

٥- **صيانة المال من الاعتداء عليه**: تتمثل صيانة المال من الاعتداء عليه بتحريم أي تصرف أو أسلوب أو طريقة غير ما شرع الله تعالى يأخذ بها الإنسان مال الغير. لذلك أوجبت الشريعة العقوبة على كل من يعتدي على مال غيره، نحو قطع السارق مثلاً، وما ذاك إلا صيانة للمال من الاعتداء عليه بغير حق. ولا شك أنّ هذه الصيانة للأموال حمايةٌ لدخول الأفراد، وحماية للدخل القومي، وزيادة في رفع مستوى الرفاهية للأفراد؛ فيشعر كل فرد بالطمأنينة على مصدر عيشه، وتتولد لديه ثقافة الانتماء لوطنه، ما يدفعه إلى كف فكره وجوارحه عن كل ما من شأنه أن يخل بأمن وطنه.

وخلاصة القول: فإنّ من مستلزمات حماية الوطن حماية الدخل الوطني بتحسين الأوضاع الاقتصادية للمواطنين، وصولاً إلى تحقيق الاستقرار الاقتصادي، بتنمية اقتصادية حقيقية في الدولة تسهم في توفير الأمن الاقتصادي بتوفير كافة متطلبات رفاهيتهم ومعيشتهم من ضرورات وحاجيات. وهذا ما جاءت به السنة النبوية، وقررته في تشريعاتها.

والحمد لله رب العالمين.

مكانة حماة الوطن والشهداء وحقوقهم في السنة النبوية وأثر ذلك في حماية الوطن

د. باسم حسن وردة
دكتوراه في الحديث النبوي
وزارة الأوقاف الأردنية (الأردن)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وبعد،

أوطاننا هي أرض الله التي استخلفنا فيها لعمارتها بأفضل شكل ممكن وفق منهج الله عز وجل، وهذه الأوطان تحتاج لحماة يحمونها من كيد الأعداء الذي يتربصون بنا ويطمعون بثرواتنا، وما أكثرهم هذا الزمان!

وإن الصراع بين الحق والباطل قديم قدم البشرية، ولا بد لكل أمة تطمح في أن تعيش حياة عزيزة وكريمة، أن يكون لها قوة تعتمد عليها وتحميها من أعدائها، وقوة الأمة تكون بجيشها المكون من أبنائها الأشداء الأوفياء.

إن وجود جيش قوي للدولة يجعل أعداءها يهابونها، ويحسبون لها ألف حساب، بينما الدولة إن كانت بلا جيش، أو بجيش ضعيف تكون عرضة للعدوان والذل والهوان، ويطمع بها المعتدون، وقد سارع النبي ﷺ بعد الهجرة وتأسيس الدولة الإسلامية، إلى تكوين جيش إسلامي من المهاجرين والأنصار لحماية الدولة الإسلامية الفتية.

والجيش له مهمات كثيرة منها: أنه يحفظ للأمة هيبتها، ويوطد أركان الدولة، ويحافظ على مقومات الأمة، ويحقق فريضة الجهاد في سبيل الله، ويحافظ على الأمن الداخلي، لكن مهمته الكبرى حماية الوطن وحراسة الحدود من الأعداء، ومن المهربين المجرمين الذين يُدخلون لأوطاننا مواد مدمرة للمجتمع كالمخدرات وغيرها.

وقد حث النبي ﷺ على الرباط وحراسة الحدود في أحاديث كثيرة، منها حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول ﷺ قال: «رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا».[1]

١- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، حديث رقم ٢٨٩٢.

كما بينت السنة النبوية أن الجندي المسلم له صفات يجب أن يتصف بها، وعليه واجبات يجب أن يقوم بها، ومن أهم هذه الصفات والواجبات: الولاء والإخلاص لله عز وجل، والصبر والإكثار من الذكر والدعاء خاصة عند لقاء العدو، وتنفيذ أوامر القيادة، والانضباط العسكري، وأن يكون الجندي ذا همة عالية، وحرصٍ على التدريب والارتقاء بمستواه العسكري باستمرار، وحرصٍ على حماية القيادة.

هذه الصفات العظيمة التي اتصف بها جند الإسلام في عصر النبوة وما بعد عصر النبوة، هي التي مكنتهم من الانتصار على أعدائهم في معظم المعارك التي خاضوها، رغم أنهم كانوا في أغلب الأحيان أقل عدداً وعتاداً من أعدائهم.

وكشفت السنة النبوية أن الجنود كما عليهم واجبات فكذلك لهم حقوق يجب على القادة العسكريين وولاة الأمور مراعاتها، ومن أهم هذه الحقوق: مراعاة أحوالهم والرفق بهم والحرص على سلامتهم، واستشارتهم واحترام آرائهم، وحماية أهلهم في غيابهم، وتدريبهم والارتقاء بمستواهم العسكري، وتوفير العيش الكريم لهم. وقد كان النبي ﷺ يوزع أربعة أخماس الغنائم على الجيش، وكذلك ما يأتي بيت مال المسلمين من أموال كان النبي ﷺ يوزعها على صحابته المجاهدين حتى يؤمن العيش الكريم لهم، وقد سار الخلفاء بعد النبي ﷺ على نهجه، ففي عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنشأ ديوان الجند وسجل فيه أسماء الجند، وفرض لهم العطايا بما يكفيهم، ويؤمن العيش الكريم لهم، وقال: (لَئِنْ كَثُرَ المالُ لأفرض لكلِّ رجلٍ أربعةَ آلافٍ درهم: ألفاً لسفرهِ، وألفاً لسلاحه، وألفاً يخلفه لأهله، وألفاً لفرسهِ ونَعْلِه).[1]

إن هذه الحقوق العظيمة التي أعطاها الإسلام لحماية الوطن، لم يعطها لهم أي مذهب من المذاهب الغربية والشرقية المعاصرة، وبهذا يكون للإسلام السبق

١- البلاذري، فتوح البلدان، ذكر العطاء في خلافة عمر، ص ٦٣٣.

الحضاري في احترام حماة الوطن وتكريمهم، وإعطائهم حقوقاً تدفعهم إلى الإبداع والاستبسال في حماية الوطن، وبذل الغالي والنفيس من أجله، والقيام بواجبهم خير قيام.

وبينت السنة النبوية المطهرة مكانة الشهداء وفضلهم، وبينت أن الشهادة في سبيل الله من أعظم الدرجات عند الله عز وجل، وأن للشهداء فضائل عظيمة كثيرة منها: أن الشهيد لا يجد ألم القتل، وأنه يتمنى أن يرجع إلى الدنيا ليقتل عشر مرات لما يجد من الكرامة، وتُكَفِّر عنه كل خطاياه إلا الدَّين، ورائحة دمه مسك يوم القيامة، وتظلله الملائكة بأجنحتها، وجسده لا تأكله الأرض، وينمى له عمله إلى يوم القيامة، ويجار من فتنة وعذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر يوم القيامة، ويرى مقعده من الجنة، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويشفع في سبعين من أقاربه، ويزوج اثنتين وسبعين من الحور العين. وقد جاءت هذه الفضائل في أحاديث كثيرة، منها حديث المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «للشَّهيد عِنْدَ الله ستُّ خصَال؛ يُغْفَرُ لَهُ في أَوَّل دُفْعَة، وَيَرَى مَقْعَدَهُ منَ الْجَنَّة، وَيُجَارُ منْ عَذَاب الْقَبْر، وَيَأْمَنُ منَ الْفَزَع الأَكْبَر، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسه تَاجُ الْوَقَار الْيَاقُوتَةُ منْهَا خَيْرٌ منَ الدُّنْيَا وَمَا فيهَا، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْن وَسَبْعينَ زَوْجَةً منَ الْحُور الْعين ، وَيُشَفَّعُ في سَبْعينَ منْ أَقَاربه».[1]

هذه الفضائل العظيمة للشهادة والشهداء، ينبغي في هذا الزمان أن تدفعنا نحن وأولادنا وإخواننا والمسلمين جميعاً، لنكون من حماة الوطن والدفاع عنه، في زمن تكالبت فيه علينا الأمم كما تتكالب الأكلة على قصعتها، وكي نكسب شرف الشهادة في سبيل الله.

١- أخرجه الترمذي، أبواب فضائل الجهاد، باب في ثواب الشهيد، حديث رقم ١٦٦١. وأخرجه ابن ماجه، كتاب الجهاد، باب فضل الشهادة في سبيل الله، حديث رقم ٢٧٩٩. صححه الترمذي وقال: حديث صحيح غريب، وحسنه ابن حجر في فتح الباري (٢٠ / ٦) وصححه الألباني في أحكام الجنائز، ص ٣٦، وفي صحيح الترمذي (١٣٢ / ٢).

بينت السنة النبوية أن لأسر الشهداء حقوقاً يجب على القادة العسكريين وولاة الأمور مراعاتها ومنها: زيارتهم وتفقد أحوالهم، وجبر خواطرهم، وقد جاء ذلك في أحاديث كثيرة، منها حديث عبدالله بن جفر بن أبي طالب رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْهَلَ آلَ جَعْفَرٍ ثَلَاثًا أَنْ يَأْتِيَهُمْ، ثُمَّ أَتَاهُمْ فَقَالَ: «لَا تَبْكُوا عَلَى أَخِي بَعْدَ الْيَوْمِ» ثُمَّ قَالَ: «ادْعُوا لِي بَنِي أَخِي» فَجِيءَ بِنَا كَأَنَّا أَفْرُخٌ فَقَالَ: «ادْعُوا لِي الْحَلَّاقَ» فَأَمَرَهُ فَحَلَقَ رُؤُوسَنَا.[1]

وكذلك من حقوق أسر الشهداء الإنفاق عليهم، وتوفير العيش الكريم لهم، وقد كان النبي ﷺ يعطي أسر الشهداء مما يأتي من أموال لبيت مال المسلمين، وحثّ على كفالة اليتامى وقال: «أَنَا وكَافِلُ اليَتِيمِ فِي الجَنَّةِ هَكَذَا»، وقال بإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ والوُسْطَى.[2] كما وحث على مساعدة الأرامل وقال: «السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالمِسْكِينِ كَالمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ كَالَّذِي يَصُومُ النَّهَارَ وَيَقُومُ اللَّيْلَ».[3]

وقد اعتنى الخلفاء بعد الرسول ﷺ بأسر الشهداء وأكرموهم وفضلوهم على غيرهم بالعطايا، فقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه «لَمَّا فَرَضَ لِلنَّاسِ فَرَضَ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ حَنْظَلَةَ الغَسِيلِ[4] أَلفَيْ درهم فَأَتَاهُ طَلْحَةُ بِابْنٍ أَخٍ لَهُ فَفَرَضَ له دُونَ ذَلِكَ فَقَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِين فَضَّلْتَ هَذَا الأَنْصَارِي عَلَى ابْنِ أَخِي! فَقَالَ:

١- أخرجه أبو داود، كتاب الترجل، باب في حلق الرأس، حديث رقم ٤١٩٢. وأخرجه النسائي، كتاب الزينة، باب حلق رؤوس الصبيان، حديث رقم ٥٢٣٧. وأخرجه أحمد في المسند، حديث رقم ١٧٥٠. صححه الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: رجاله رجال الصحيح (١٥٩ / ٤). وصححه الألباني في أحكام الجنائز (ص ٢١)، وصححه أحمد شاكر في تحقيق المسند (١٩٢ / ٣)، وصححه شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند وقال: صحيح على شرط مسلم (٢٧٨ / ٣).

٢- أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب فضل من يعول يتيما، حديث رقم ٦٠٠٥.

٣- أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الساعي على الأرملة، حديث رقم ٦٠٠٦ واللفظ له. وأخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم، حديث رقم ٢٩٥٢.

٤- الصحابي حنظلة بن أبي عامر استشهد في غزوة أحد (انظر: سيرة ابن هشام، ٦٠ / ٣).

نَعَمْ لِأَنِّي رأَيْتُ أَبَاهُ يَسْتَنّ[1] يَوْمَ أحدٍ بِسَيْفِهِ كَمَا يَسْتَنّ الجَمَل». [2]

وذكر الفقهاء أن من مات أو قتل من جنود المسلمين، فإنه ينفق على امرأته حتى تتزوج، وعلى ابنته الصغيرة حتى تتزوج، وعلى ابنه الصغير حتى يبلغ، ثم يُجعل من المقاتلة إن كان يصلح للقتال. [3]

وينبغي في هذا الزمان أن يكون في بلداننا الإسلامية مؤسسات رسمية وخيرية لرعاية أسر الشهداء، وأن تكون متخصصة، بعضها لرعاية حاجاتهم المادية، وبعضها للجانب التعليمي لأبنائهم، والبعض الآخر للجانب المعنوي والنفسي والإرشادي لهم.

إن هذه الحقوق العظيمة التي أعطاها الإسلام للشهداء وأسرهم، فيها دافع وحافز عظيم لأبناء الشهداء وأسرهم للاقتداء بهم والسير على نهجهم، في حماية الوطن والاستبسال في الدفاع عنه بشتى السبل الممكنة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

١- يستن: أي يمرح ويخطر به- دلالة على الشجاعة- (النهاية في غريب الحديث، ص ٤٤٠).

٢- أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، ذكر مناقب حنظلة بن عبدالله، حديث رقم ٤٩١٨. وأخرجه ابن المبارك في كتاب الجهاد، حديث رقم ٨٧، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق، ١٢٦ / ١٢.

٣- انظر: ابن قدامة، الكافي في فقه ابن حنبل (٤ / ٣١٩-٣٢٠). وابن تيمية، مجموع الفتاوى (١٤ / ٥٨٦).

الرباط فضله وأثره في حماية الوطن
في ضوء السنة النبوية

أ. عمران محمد المزوري

باحث في مرحلة الدكتوراه

مدرس الحديث بكلية العلوم الإسلامية بجامعة صلاح الدين – أربيل (العراق)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وأصحابه الغر الميامين، أما بعد،

فإن الإسلام نظام شامل لجميع مناحي الحياة، فلم يهمل في تشريعاته وقوانينه أي أمر يمس حياة الناس إلاّ وقد وضع له قواعد ضابطة له، ولم يترك غاية إلا وقد جعل لها وسائل كفيلة للوصول إليها.

هذا؛ وإن حماية الوطن من شرّ الأشرار، وتوفير حياة آمنة ومريحة لأهله من الغايات السامية في الشريعة الإسلامية، وأكدّ على تحقيقها في نصوصها لا سيما السنة النبوية الشريفة؛ وذلك بالترغيب في هذا العمل العظيم والحث على القيام به، وبيان فضل القائمين بهذه الوظيفة المباركة ومنزلتهم عند الله تعالى، ومن ثَمَّ وضع ضوابط ووسائل موصلة لذلك الهدف الغالي، وهذا يدل على مكانة الوطن ومنزلته في الإسلام لأنه لا يخفى على أحد أن الدين وشعائره لا يمكن أن تمارس بشكل طبيعي وحقيقي بدون وجود وطن آمن للمتدينين؛ لذا فإن من أولى خطوات نشر أي فكرة أو دين وترسيخ مبادئه بين الناس هو توفير موطن محروس ومحمي لأتباعه ومعتنقيه، ولو كانت زاوية صغيرة في قرية أو مدينة.

ومن إحدى الوسائل التي جعلها الإسلام أساساً لحماية الوطن هي حماية حدود الوطن وثغوره من أن يتسلل منها الأعداء والأشرار ليشكلوا خطراً على أمنه وسلامته، وذلك بتشريع الرباط وتجنيد الجنود الخاصة لملازمة ثغور البلاد والإقامة فيها؛ لمراقبة أي حركة أو خطر يهدد الوطن وأهله، ومن ثَمَّ مواجهته بكل قوة وثبات ليرهبوا بذلك عدو العباد والبلاد.

وبما أنّ حراسة الحدود وحماية الوطن تحتاج إلى رجال صابرين صامدين مثابرين؛ فنجد السنة النبوية عبرت عن هذه المهمة الشاقة والشيقة بـ"الرباط" الذي في استعماله اللغوي والقرآني والنبوي يدور حول معاني الشد والثبات،

ومرابطة الخيل، والإقامة في الثغور، والمواظبة على الأمر، وهذا إشارة إلى أن المرابط يجب أن يتحلى بهذه الصفات ليتمكن من القيام بهذا الأمر العظيم شأنه، كما لا يستحق لقب المرابط.

ولشأن الرباط هذا نجد القدامى من المحدثين والفقهاء قد أولوه عناية فائقة بتأطير مفهومه وبيان مسائله، وفيما يخص مفهوم الرباط عندهم فبالنظر في كتبهم يظهر أنهم قد خصوا الرباط بالإقامة في الثغور المتاخمة لحدود البلاد الإسلامية، أو بمكان يخاف منه التهديد والهجوم عليه من قبل العدو، وأكثر الظن وقوع هذا منهم كان وفق مقتضيات زمنهم، لكن بما أن الظروف الجغرافية والسياسية في يومنا هذا قد تغيرت، والتهديدات قد تعددت، والثغور والفروج إلى البلاد قد تنوعت ولم تعد مقصورة على الحدود البرية؛ بل توسعت لتشمل الحدود البحرية والجوية أيضاً؛ وليس هذا فحسب بل يجب أن تشتمل سور كل بيتٍ من بيوت المسلمين بواسطة التكنولوجيا والإلكترونيات المعاصرة كالإنترنيت وما حواها من خطر على الشعوب والدول من تجسس وغزو فكري ونشر الفساد بكل أشكاله، ووفقًا لمعطيات عصرنا يمكننا أن نوسع في معنى الرباط ومفهومه؛ ليشمل كل مكان وزاوية في الوطن ولتندرج تحته مجالات أخرى حديثة غير المجالين العسكري والأمني؛ كالمجالات الفكرية والصحية والإعلامية، وذلك بالإضافة إلى التجديد والتوسع حتى في المجالين المذكورين في ضوء التقنيات العسكرية الحديثة (في حماية الوطن) بجوانبها ومجالاتها المعاصرة، فالقائمون على أجهزة الرادار التي ترصد التحركات الخفية براً وبحراً وجواً التي من شأنها الإضرار بالوطن وأهله يدفعها ومواجهتها؛ فهؤلاء مرابطون حيثما كانوا سواء كانوا على الحدود البرية أم في السماء أو في البحر أو حتى في قلب الوطن. وكذا القوات الأمنية الداخلية التي تسهر الليالي للحفاظ على أمن الوطن وحماية المواطنين من كلّ مكروه فلا تقل منزلة من حراس الحدود القائمين في الثغور، وأيضا القائمون على

شبكة الإنترنيت لدفع أضرارها عن الوطن وأهله، وما أدراك ما أضرارها الجسيمة والخطرة على الجوانب العقدية والفكرية والأمنية والسياسية. فهذه مفاهيم كلها جديدة ومجالات حديثة يمكن أن يتحقق فيها معنى الرباط لأنها من صلب حماية الوطن وسيادته التي شرع من أجلها الرباط.

وترغيباً في هذا العمل الكبير، وتنويهاً بدوره العظيم في حماية الوطن وأهله فقد حثّ النبيﷺ المسلمين على الرباط في أحاديثه الشريفة بذكر فضائله وبيان مكانة المرابطين عند الله تعالى، وما سيحصلون عليه من أجر عظيم وثواب جزيل في الآخرة بسبب رباطهم ومرابطتهم في الثغور، ومن الفضائل التي نصت عليها السنة النبوية، وهي:

١- أنه خير من الدنيا وما فيها بمعنى أن ثواب اليوم الواحد في الرباط - وهو من المغيبات - خير من المحسوسات التي عهدناها من نعيم الدنيا وملذاتها.

٢- وخير من صيام التطوع وصلاته.

٣- وأمان من عذاب القبر وعذاب النار.

٤- وأجره جارٍ لا ينقطع حتى بعد الموت، بل يصل إليه ثواب عمله أبداً وينمى ويضاعف له أجره حتى يوم القيامة، وهذه فضيلة مختصة بالمرابط لا يشاركه فيه أحد.

٥- ويبعث المرابط على ما مات عليه، فكما أن المحرم يبعث ملبيا، فالمرابط يبعث مرابطاً، والمجاهد يبعث مجاهداً بالكيفية التي يريدها الله عزوجل.

ففي هذه الفضائل إشارة واضحة إلى مهمة الرباط العظيم، وآثاره الجميلة في حماية الوطن التي يمكن أن تلخص فيما يأتي:

١- **تعزيز لجيش المسلمين وشدّ أزر له وسدّ للباب أمام تسلل العدو للبلاد:** فالرباط أمان للجيش الذي يحمي الوطن ويقاتل من أجل حفظه وحمايته حيث يشعر بأنه مؤزر بقوة أمينة حافظة، فهذا الشعور يمنحه الطمأنينة والقوة ليقوم بما عليه من دفع شرّ المعتدين على الوطن.

وهذا التعزيز وصدّ هجوم المعتدين كما يكون بالحراسة والمرابطة في الثغور، يمكن أيضاً أن يتحقق بالتقنيات العسكرية الحديثة المعاصرة- كما سبق الإشارة إليها- مثل عمل القائمين على جهاز الرادار وغيره من الأجهزة الحديثة التي ترصد التحركات الخفية للعدو براً وجواً وبحراً لصدها والحيلولة دون تحقيق أهدافها المضرة بالجيش والوطن، فهم أيضا مرابطون حيثما كانوا، ولهم ما للمرابط في الثغور المتاخمة للحدود من الأجر والثواب والفضيلة.

٢- **تأمين المواطنين على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم:** حماية الوطن هي من أجل المواطنين، فلا وطن بدون مواطن، ومن إحدى العوامل الأساسية لتوفير الأمن والأمان للمواطنين هي حماية حدود الوطن من أن تخترق من قبل المعتدين، والرباط هو ما يوفر هذه الحماية، وليس ذلك فقط بل القوات الأمنية الداخلية أيضا تشارك حراس الحدود في هذه المهمة النبيلة لذا فأجرهم في ذلك لا يقل عن أجر المرابطين في الثغور إذا أحسنوا النية وأخصلوا في العمل.

٣- **حماية تجارة الوطن واقتصاده:** الاقتصاد المستقر والمزدهر يشكل العمود الفقري لكل دولة يراد لها القيام والدوام لا سيما في العصر الحاضر، وأساس هذا الاقتصاد هي التجارة المستقرة التي تعتمد على طريق آمن ومسلك محروس، وهذا ما يقوم به المرابط في ثغره ورباطه من حماية حدود الوطن وطرقه الخارجية وتأمين التجار على تجارتهم.

٤- **تعزيز الوطن من الناحية السياسية**: الحدود رمز لسيادة الأوطان والبلاد، فهي لها بمثابة العرض من الإنسان، ولذا حمايتها من خرقها والتعدي عليها يعدّ نقطة قوة وعزة للوطن تجاه مقابله.

٥- **حماية الوطن من الناحية الفكرية**، من المجالات الحديثة في حماية الوطن التي يمكن أن يتحقق فيها الرباط بتجنيد الجنود الخاصة، لحماية الوطن وأهله من الناحية الفكرية وتحصينهما ضد الهجمات الفكرية والثقافية التي تترى اليوم على بلادنا الإسلامية؛ لتغزوا عقيدتنا وثقافتنا وحضارتنا وتشوه فكر أبنائنا وأجيالنا تجاهها وتمسخ عقولهم وبالتالي تهدد كياننا ووجودنا وهذا ما يسمى اليوم بالغزو الفكري الذي لا يقل في ضرره من الغزو العسكري؛ بل يفوقه في خبثه وأضراره الجسيمة.

٦- **حماية الوطن من الناحية الصحية**: وهذا أيضا مجال آخر من المجالات المعاصرة البارزة للرباط، فالقائمون على المؤسسات الصحية التي تتولى أمر الهجمات الجرثومية على الوطن من خلال الدماء والماء والأغذية والأدوية الملوثة بأنواع الجراثيم والأمراض لا يقلّ عملهم أهمية ومنزلةً من عمل المرابطين في الثغور إذا أحسنوا النية والعمل وكرّسوا أنفسهم للبحث والدراسة والفحص والتحليل لمآكل المواطنين ومشاربهم ومآويهم، وكذا الذين يقيمون على المنافذ الحدودية والمطارات؛ لمراقبة المواد الغذائية وغيرها مما يُستَورد للوطن؛ للحيلولة دون دخول أيِّ مادة ضارة بالوطن والمواطنين.

٧- **حماية الوطن من الناحية الإعلامية**: وهي أيضا من المجالات الحديثة للرباط، ولا يخفى أن الإعلام بأنواعه الثلاث (المسموع، والمقروء، والمرئي) في يومنا هذا له دور بارز سلباً وإيجاباً على المجتمع توجيهاً وتربية وتثقيفاً وعلى الأمن الوطني والقومي؛ ولذا فحماية المواطنين من الإعلام الرامي لإفساد أذهانهم وأفكارهم تجاه دينهم وعقيدتهم وحضارتهم ووطنهم أمر

في غاية الأهمية، وذلك بتأسيس إعلام هادف يربي الأجيال على الفضائل وصالح الأعمال والأفكار ويتولى أمر الإشاعات الإعلامية التي تروم النيل من عقيدتنا وحضارتنا؛ لتصبح تهديداً على أمننا الوطني والقومي، وعليه فالإعلاميون العاملون في هذا المجال الخطر والناذرون أنفسهم لهذه المهمة الشاقة فهم أيضاً مرابطون، وعملهم هذا نوع من الرباط في سبيل الله تعالى؛ لأنه يرمي إلى تحقيق المقصد الذي شرع من أجله الرباط وهو حماية الوطن وأهله مما يسيء إليهما ويضر بهما.

وعليه فقد تبين لنا بأن للرباط آثارًا عظيمةً في حماية الوطن من نواحي شتى كحماية حدوده من أن يتسلل منها شرّ إلى البلاد، وهو تعزيز لجيش المسلمين وشدّ أزرهم، وله دور كبير أيضاً في حماية الوطن من الناحية الأمنية والاقتصادية والسياسية والتجارية، وكذا الفكرية والصحية والإعلامية، وتوفير حياة سعيدة هنيئة للمواطنين.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وأصحابه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

رعاية أبناء الشهداء وأثرها في حماية الوطن

في ضوء السنة النبوية

د. علي بن محمد بن إبراهيم الشبيلي

جامعة الإمام (المملكة العربية السعودية)

إن المتأمل في التوجيهات النبوية الساعية لتحقيق حماية الوطن يجد شمولية التوجيه؛ فما تركت ركناً من أركان أمن المجتمعات والأوطان إلا ووجهت نحو عمله ورعايته.

والمدقق في هذا الشأن يجد أن ثمة عنايةً خاصةً وجهتها السنة النبوية لفئة أبناء الشهداء وأسرهم ؛ حيث قد يَغفِلُ المجتمع عنها، وقد بذل مُعيلها(الشهيد) أغلى ما يملك لتحقيق مقصد عظيم ألا وهو حماية الأوطان..

لقد حققت السنة النبوية أمن الأوطان في رعايتها لأبناء الشهداء وأسرهم، من جانبين اثنين هما:

الجانب الأول: حينما ينظر حماة الأوطان إلى ما توليه السنة النبوية لأبناء الشهداء وأسرهم من الرعاية والعناية، يشعرون بالأمن والأمان على أسرهم من بعدهم؛ وحينما يقدموا كل غالٍ ونفيسٍ في ساحات الدفاع عن الوطن وحمايته، تكون هذه الرعاية من أسس حماية الوطن المهمة.

الجانب الثاني: حينما تتحقق الرعاية والكفالة لأسر الشهداء بعد قضاء مُعيلهم في الدفاع عن الوطن، يكون من أهم ثمارها سلامة الأبناء وحمايتهم، وبحمايتهم نحقق حماية الوطن؛ فقد فقدوا بفقدانِ المعيلِ الموجّهَ والناصحَ والأمينَ؛ فإذا لم يجدوا الرعاية والعناية في هذا الجانب أضحوا خطرًا على أمن المجتمع ، لا سيما أن نظرتهم إلى لمجتمع ستصبح نظرة مقارنة بين تضحية أبيهم وتخلي المجتمع عنه، ما يسبب ثغرة أمنية خطيرة في جدار المجتمع الحصين، يورث الفساد والخوف على المجتمع وأمنه وأمانه، بينما تحقق رعايتهم وكفالتهم أساسًا آخر من أسس حماية الوطن.

ومن المهم في هذا السياق أن نكشف عن هذه التوجيهات النبوية التي تحقق

الأمن لأبناء الشهداء وترعاهم، ما يُسهم مع غيرها من التوجيهات في تكامل وشمولية الرؤيا الأمنية المحققة لحماية الأوطان، ومن هذه التوجيهات:

أولًا: تحقيق الأمن النفسي: اهتمت السنة النبوية بالبعد النفسي لأسر الشهداء، ذلك أن الاستقرار النفسي لهذه الفئة يُسهم بشكل فعال في الاستقرار النفسي للمجتمع برمته، مَا يحقق له حماية في مجال من أهم مجالات حماية الوطن؛ المجال النفسي. ومن هذه التوجيهات النبوية في هذا الشأن:

بشارة أبناء الميت بدرجته في الجنة تخفيفا عنهم، كما في حال عبد الله بن عمرو بن حرام، والد الصحابي الجليل جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

مواساة أبناء الشهداء، كما حصل في مواساته صلى الله عليه وسلم لأولاد جعفر رضي الله عنه، وذلك بنهيهم عن البكاء، والثناء عليهم، والدعاء لهم، والالتزام برعايتهم.

إدخال السرور على أبناء الشهداء، واحتواؤهم، كما فُعِل مع ابنة سعد بن الربيع، ومداعبتها بعد مقتل أبيها سعد بن الربيع في غزوة أحد.

فكم أسهمت هذه التوجيهات في الاستقرار النفسي لهؤلاء، ما جعلهم فاعلين في بناء أوطانهم وحمايتها.

ثانيًا: تحقيق الأمن الاقتصادي: اهتمت السنة النبوية بتحقيق الأمن الاقتصادي لأسر الشهداء؛ فغياب الأب المسؤول عن أبنائه يورث حالة من العوز والحاجة، ونجد ذلك في سنّةِ النبي صلى عليه وسلم في حديث جمل جابر. وقد سار على هديه عمر رضي الله عنه بإعطاء عبد الله بن حنظلة أكثر من غيره مالا، وبيَّن السبب في ذلك، وهو موت والده حنظلة الغسيل رضي الله عنه في أحد شهيدا.

وقد راعت السنة النبوية ما يؤرق أهل الشهيد على ميتهم من الحقوق المتراكمة عليه للناس، لا سيما إن كان في ذمة الشهيد دين؛ فبيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهمية قضاء ديون الشهداء لمن لم يخلِّف من المال ما يسد عنه دينه؛ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ : تُوُفِّيَ أَبِي وَعَلَيْهِ دَيْنٌ، فَعَرَضْتُ عَلَى غُرَمَائِهِ أَنْ يَأْخُذُوا التَّمْرَ بِمَا عَلَيْهِ فَأَبَوْا، وَلَمْ يَرَوْا أَنَّ فِيهِ وَفَاءً، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ : إِذَا جَدَدْتَهُ فَوَضَعْتَهُ فِي الْمِرْبَدِ آذَنْتَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجَاءَ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، فَجَلَسَ عَلَيْهِ وَدَعَا بِالْبَرَكَةِ، ثُمَّ قَالَ : ادْعُ غُرَمَاءَكَ فَأَوْفِهِمْ، فَمَا تَرَكْتُ أَحَدًا لَهُ عَلَى أَبِي دَيْنٌ إِلَّا قَضَيْتُهُ».

ولا يخفى أيضا أن أكثر ما يشغل الإنسان أهل بيته من زوجة وأولاد، وهو في حال الحياة، فضلا عن التفكير بهم بعد موته، فحرصت الشريعة على الاهتمام بأسرة الغازي لتوضح له أنه مكفيٌّ في أهله ماديا وغيره. وهذا ما يجعله يشعر بالاطمئنان عليهم في حال غيابه في الدنيا وعن الدنيا. ولذا جاءت النصوص ببيان الأجر المترتب على الإحسان إلى أهل الغازي، ويتنوع هذا الإحسان من قضاء حاجة لهم، وإنفاق عليهم، ومساعدتهم في أمرهم، وصونا لهم ولأعراضهم.

وحينما يُحقق هذا البعد نأمن على المجتمع من أصحاب العوز والحاجة، ويُحمى الوطن من أفعال أهل العوز.

وقد تنوعت أساليب السنة النبوية في الاعتناء بهذا الجانب المهم، ومن ذلك:

إكرام أبناء الشهداء أكثر من غيرهم، وذلك حفظاً لحق شهيدهم وجميل فعله في خدمة دينه والدفاع عن وطنه.

سدّ حاجتهم المادّية من بيت المال، وعدم تكفف الناس وسؤالهم عما يغبنهم، وفي ذلك الدعم المادي تخفيفٌ لمصابهم، وبيانٌ لعظيم حقهم بسبب عِظَمِ حق

شهيدهم، ولا يخفى ما لهذا من أثر على نفوسهم.

الحثّ على كفالة اليتيم مادياً حتى يعيش حياة مستقرة مادياً، ويشعر بتكاتف الناس معه.

تحمل الميت في ديونه، حتى لا تكون عبئاً على ورثته.

رعاية الغازي في أهل بيته، وترتيب الأجر العظيم على ذلك الأمر.

ثالثًا: تحقيق الأمن الاجتماعي: أسهبت السنة النبوية بتحقيق الأمن الاجتماعي لأسر الشهداء، ما نجد له الأثر الطيب عليهم، ويحقق دمجهم في المجتمع، وما يسبب قوة اجتماعية تُسهم في حماية الوطن. ومن مظاهر تحقيق الأمن الاجتماعي ما يأتي:

حرصت السنة على رعايته وكفالته، وجعلت جزاء ذلك الجنة، ومرافقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يكون هذا الجزاء العظيم مترتبا إلا على عمل عظيم، وتشمل الرعاية بناءه علميا، وتربويا، واجتماعيا، ما يجعله شخصية قوية تسير في الحياة باقتدار لا يشعر بالعجز، أو المهانة.

ولم يقف اعتناء السنة النبوية عند أبناء الشهداء فقط، بل تجاوز ذلك إلى أمهم التي فقدت زوجها وعائلها، بأن حرصت السنة على وجود عائل آخر داخل المنزل يسد ثغرة الغياب في البيت، فوردت أحاديث عدة في الحث على تزويج أرامل الشهداء لكفايتهم في احتياجاتهم الطبيعية.

ولأن فقدان الابن ليس بالأمر اليسير على نفس الأم، فقد جاء في السنة ما يدل على عناية المجتمع المدني بمواساة الأم ودعمها؛ فمما ورد في ذلك مواساته صلى الله عليه وسلم لأم حارثة بن سراقة الذي قتل يوم بدر، فبيّن لها منزلته، وأنه في الفردوس الأعلى من الجنة، وهذه قمة ما يواسى به الإنسان عند الفقد، ولولا

مثل هذه المواساة لما صبر حبيب على حبيبه، وكذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع شهداء أحد؛ حيث بيّن أيضا منزلتهم في الجنة، وأنهم في جوف طير خضر ترد الجنة. وكل هذا من أجل تطييب خاطر المكلوم، وإدخال السرور عليه، والمشاركة الوجدانية معه في مصابه.

بيان منزلة الأم الراعية: ولأن القيام على الأبناء بعد موت والدهم ورعايتهم بدلا عنه، وحبس النفس على تربيتهم ليس أمرا سهلا على المرأة، فإن السنة النبوية أولت ذلك عناية خاصة، فبينت منزلتها عند الله تعالى إذا هي قامت بهذا العمل، وأنها في الجنة، وليس ذاك إلا لتعزيتها بسبب يتمهم، وصبرها عن الرجال، وعن التوسع في النفقة لأجل الأولاد.

يشمل الجميع فقد تجاوزت النصوص الشرعية في رعايتها الحانية للأبناء، والزوجات، والأمهات إلى جبر قلوب الأخوات اللاتي فقدن عزيزا عليهن، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرحم أم سليم بنت ملحان لفقدها لأخيها حرام بن ملحان، وكان يزورها في بيتها رحمة بها، وهذا عينه مما تراه اليوم من ذوي الهيئات من الأمراء والعلماء في توافدهم على بيوت الشهداء للتعزية والمواساة، والوقوف إلى جانب الأسرة مما يرسل رسالة للمجتمع كله بأنه متكاتف متآلف.

تدلنا هذه المظاهر على شمولية التوجيهات النبوية لتحقيق الأمن الاجتماعي لأسر الشهداء، وبتحقق الأمن الاجتماعي نضمن التكافل الاجتماعي، وهو من أهم ركائز حماية الأوطان.

أثر الأسرة في حماية الوطن
في ضوء السنة النبوية

أ. د. مفرح بن سليمان القوسي

أستاذ الدراسات العليا بكلية الشريعة

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض (السعودية)

يمكن تصنيف آثار الأسرة في تحقيق حماية الوطن في ضوء السنة النبوية في جانبين رئيسين:

- أحدهما جانب إعدادي تأسيسي، يتمثل في تعزيز القيم المثلى للانتماء للوطن في نفوس الأبناء وتنشئتهم على تحقيق الأمن فيه، ولا سيما الأمن الفكري.
- والثاني: جانب وقائي تحصيني، يتمثل في مواجهة التحديات التي تواجه حماية الوطن وتحقيق الأمن فيه، وتحول دون حمايته والولاء له والذود عنه.

الجانب الأول: الإعدادي التأسيسي: تُعدّ الأسرة أهم المؤسسات التي تقع عليها مسؤولية التنشئة الاجتماعية لأفرادها منذ مرحلة الطفولة وإلى مرحلة المراهقة والشباب وما بعدها من مراحل. والقيم الصالحة المكتسبة عن طريقها هي قيم أساسية راسخة؛ لتلقي الفرد لها في سني عمره الأولى، ولأن الفرد يبني عليها بعد ذلك كل ما يتلقاه - من وسائل التنشئة الاجتماعية الأخرى - من مبادئ ومعتقدات ومفاهيم ومعايير ونحو ذلك، وقد بيّن رسول الله ﷺ ذلك في قوله: **(كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ)**. ولعل من أبرز مقومات الانتماء الوطني والأمن الفكري التي للأسرة أثر في تعريف الأبناء بها وتنشئتهم عليها كما ورد في السنة النبوية المطهرة ما يأتي:

١- **ترسيخ العقيدة الإسلامية الصحيحة**: لا شك في أن رسوخ عقيدة الإيمان والتوحيد لها أثر كبير وفاعل في تحقيق الأمن، فقد كفل الله لأهل الإيمان الحصول على الأمن والهداية، كما أن من لوازم الإيمان حصول الطمأنينة والتحرر من مصادر الخوف والاضطراب. وإذا حرصت الأسرة المسلمة على ترسيخ العقيدة الصحيحة في نفوس أبنائها فسيكون لذلك أثر بالغ في تحقيق الأمن في المجتمع، فالمواطن لا يكون مؤمناً حقاً إلا إذا جسَّدَ إيمانه في كفالة الأمن وإشاعته له في الحياة، يقول ﷺ **(الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ**

مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ)، كما أن رسوخ عقيدة الإيمان بالله تعالى في نفس المسلم يُمثّل حصانة عقدية وفكرية له، فلا تزل قدمه في التزامه بدينه، ويسلم من الانحراف عن محجة الحق.

٢- تربية الأبناء على الاستقامة على منهج الإسلام وهديه: يقول ﷺ في الحث على هذه الاستقامة: **(اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا وَاعْمَلُوا، وَخَيْرُ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةُ)**. وإذا دأبت الأسرة على تربية أبنائها منذ الصغر على هذه الاستقامة المطلوبة وعلى الالتزام بهدي الله وشرعه وصراطه المستقيم، فإنه حتماً لن تتقاذفهم المذاهب والمناهج الفكرية المعوجّة، ولن تتجاذبهم البدع العقدية ولا الأهواء الفكرية، وسيسلمون من التخبط في تحديد وجهتهم في العبادة والتدين، كما أن من شأن هذه التربية أن تنمّي في الأبناء فضيلة محاسبة النفس على الدوام، ومراقبة الله في السر والعلن، وعمارة الفكر والسلوك بخلوص النية وصدق التوجه إليه سبحانه، فتكون الاستقامة هذه نوراً يسعى بين أيديهم يهديهم الطريق المستقيم، وقيمة تُكسبهم السكينة والطمأنينة في معتقداتهم وأفكارهم.

٣- **حب الوطن**: لا يتحقق الانتماء الصحيح للوطن وحمايته والحفاظ على أمنه الفكري لدى الأبناء إلا إذا استقر حب الوطن في أنفسهم، ولن يكون هذا الحب إلا إذا تأصلت بذرته في نفوس الأبناء منذ الصغر، وكلما كبروا واشتد عودهم كبر فيهم هذا الحب، وامتلأت به عقولهم واطمأنت إليه قلوبهم، وهذا مما يؤكد أثر الأسرة في تأصيل حب الوطن وتعهده ورعايته لدى الشباب. ويتمثل هذا الأثر في أمور عديدة لعل من أهمها ما يأتي:

- **أولاً**: إقناع الأبناء بأن حب الوطن قيمة مهمة من القيم العليا التي جاء بها ديننا الحنيف وتمثّلها نبينا محمد ﷺ في حياته في حبه لمكة المكرمة والمدينة المنورة، فقد قال ﷺ عن مكة: **(مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلْدَةٍ، وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي**

أَخْرَجُونِي مِنْك، مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ)، وقال عن المدينة: **(اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ)**.

- **ثانياً**: إظهار محبة الوطن وتقديره واحترامه والشوق إليه لدى الأبناء، وهذا ما كان عليه النبي ﷺ في إظهار محبته وتقديره للمدينة المنورة، وإظهار مشاعر الشوق إليها إذا غاب عنها، وفي حرصه على غرس ذلك في صحابته الكرام، فقد صح عنه أنه قال لما أشرف على المدينة قادماً من غزوة تبوك **(هَذِهِ طَابَةُ، وَهَذَا أُحُدٌ، جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ)**، وكان إذا أشرف على المدينة قَادماً من سفر حرك دابته بيده الشريفة أو بعصا ليحثها على السير من شدة شوقه إليها.

- **ثالثاً**: تعريف الأبناء بأهمية الوطن ومزاياه وفضائله والجوانب المشرقة من تاريخه، وقيمته وقدره بين سائر الأوطان، وكذا مقدراته وإنجازاته وخيراته، وما أنعم الله على المواطنين فيه من نعم كثيرة، ومنها نعمة الأمن والأمان والاستقرار.

٤- **الولاء للوطن**: يُعدُّ الولاء للوطن من أهم مقومات حماية الوطن والذود عنه، وهذا الولاء لابد أن ينعكس على سلوك الشباب، من حيث الاعتزاز بالوطن وقيمه وثوابته، والحفاظ على ممتلكاته ومنجزاته، وتقدير رموزه وعدم الإساءة إليهم، ومن حيث الدعاء للوطن وحب الخير له والاسهام في تطوره ورقيه، وشاهد ذلك ما جاء في السنة النبوية من أن النبي ﷺ دعا بالخير والأمن والازدهار للمدينة المنورة حين سكنها، فقال: **(اللَّهُمَّ اجْعَلْ بِالْمَدِينَةِ ضِعْفَيْ مَا جَعَلْتَ بِمَكَّةَ مِنَ الْبَرَكَةِ)**، وقال: **(اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وَفِي ثِمَارِنَا، وَفِي مُدِّنَا، وَفِي صَاعِنَا بَرَكَةً مَعَ بَرَكَةٍ)**. ولا شك أن للأسرة الأثر البالغ في غرس هذا الإحساس والشعور لدى الأبناء منذ نعومة أظفارهم، وتقديم القدوة الحسنة لهم فيها.

٥- **الالتزام بالأنظمة والقوانين**: الالتزام بأنظمة الوطن وقوانينه من أهم صفات المواطن المسؤول، فهذه الأنظمة والقوانين لم توجد إلا لتنظيم شؤون الوطن وتطويره وتحسين أحواله وأوضاعه في كل مجالات الحياة، ولا شك أن أي إخلال بهذه الأنظمة والقوانين يؤثر تأثيراً سلبياً على أمن الوطن واستقراره. وأمام الأسرة الكثير من الفرص لتربية الأبناء على احترام الأنظمة والقوانين والالتزام بها، انطلاقاً من قناعاتهم بضرورتها وأهميتها، لا خوفاً ووجلاً من العقاب على خرقها وإهمالها، ومتابعة تقيد الأبناء بهذه الأنظمة والقوانين ومدى تنفيذهم واحترامهم لها.

واحترام الأنظمة وتطبيقها وعدم مخالفتها دليل على الاجتماع والائتلاف والحرص على مصلحة الوطن والحفاظ عليه، فلا يُقبل من المواطن تحقيق الخير والمصلحة لنفسه على حساب إخوانه المواطنين؛ لأن تحقيق المصلحة الشخصية على حساب الجماعة مخالف لأمر الله تعالى الذي أمر بالتعاون والمحبة بين المسلمين، يقول ﷺ: (**اللهَ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْمَرْءُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ**)، ويقول كذلك: (**لَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا**).

٦- **التسلح بالعلم والمعرفة**: يُعدّ التسلح بالعلم والمعرفة، وتنمية العقول وتطوير المهارات لخدمة الوطن من أهم مقومات حمايته والذود عنه، فالعلم يحرِّر العقول من الأوهام، ويَقضِي على الكساد والفساد، ويُدِير حركة الإنتاج، ولابد منه لتحقيق الرقي والنهضة، وهو شرط لتحقيق النصر على الأعداء. وقد أكدت السنة النبوية على فضل العلم وأهمية طلبه، ومن ذلك على سبيل المثال: قوله ﷺ: (**طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**)، وقوله: (**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ**). ولا شك أن الناشئة من الطلاب والطالبات في المدارس والمعاهد والجامعات هم أولى الناس اليوم بالتزود بالعلوم والمعارف في مختلف المجالات، ولن يتحقق

هذا التسلح بالعلم والمعرفة إلا بجهود الآباء في تعليم أولادهم، وذلك بغرس حب العلم في أنفسهم منذ الصغر، وتشجيعهم على خوض غمار كل العلوم والمعارف التي توافق ميولهم وتناسب قدراتهم، وتهيئة كل الإمكانات والسبل التي تُمكّنهم منذ ذلك، وتذليل كل الصعاب والعقبات التي تعترض طريقهم في هذا التعلم.

٧- **التمسك بملامح الهوية الوطنية**: يُقصد بالهوية الوطنية هنا: السمات والقسمات العامة المشتركة والثوابت التي تُمثّل شخصية الوطن وذاتيته، ويعتز بها المنتسبون إليه، ويمتاز بها عما سواه من الأوطان الأخرى. ومن الأحاديث الشريفة التي تؤكد على الأمة الإسلامية وجوب المحافظة على دينها - باعتباره أول مكونات الهوية - ما جاء في التحذير من التشبه بالمشركين، فقد صح عنه ﷺ أنه قال: (**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**)، وذلك لتبقى أمة الإسلام محافظة على هويتها مستقلة بذاتها، ولذا كان ﷺ حريصاً في توجيهاته لأمته في أمور دينها ودنياها على ضرورة حفاظها على مكونات هويتها التي تمتاز بها من سائر الأمم الأخرى. ويتمثّل أثر الأسرة في تمسك أبنائها بملامح الهوية الوطنية في حرص الأسرة على هذه الملامح والحفاظ عليها، وتنمية ذلك كله في الأبناء وحفزهم عليها، ومن حيث عدم التفريط بها بحجة اللحاق بكل ما هو عصري وجديد.

٨- **الشعور بالمسؤولية وتحمُّلها**: تستطيع الأسرة أن تنمي هذا الشعور عند أبنائها من خلال تعويدهم بالتدريج منذ الصغر على التمسك بأركان العقيدة الإسلامية الصحيحة وأصولها، والاهتمام بأداء العبادات الدينية، ومراعاة المبادئ والقيم الخلقية، واحترام المواعيد في حياتهم اليومية، ونحو ذلك مما ينمي لديهم روح الشعور بالمسؤولية. ومن خلال تكليفهم بالمهام الأسرية بحسب ظروفهم وإمكاناتهم، مع تشجيعهم ومكافأتهم عند الإصابة،

وتصويبهم عند التعثر والوقوع في الأخطاء، مع منحهم الثقة والأمل والتصميم على النجاح. كل ذلك انطلاقاً من قول النبيﷺ: **(كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)**.

٩- **العناية بالعمل وتقديره**: من أهم واجبات المواطن أن يعمل، وأن يكون فرداً منتجاً في وطنه؛ للإسهام في نمو الوطن ورفعته وتحقيق استقلاله الاقتصادي؛ وللنأي بالمواطن عن أن يكون عالة على غيره في المجتمع، كما أن العمل هو السبيل لعمارة الأرض التي أُمر الإنسان بها باعتباره خليفة الله تعالى في أرضه. ومن لوازم العناية بالعمل وتقديره: إحسان العمل وإتقانه والإجادة فيه، ذلك أن الإسلام يحض على إتقان العمل وزيادة الإنتاج، ويَعدّ ذلك أمانة ومسؤولية، ومدعاة لنيل محبة الله ومرضاته سبحانه، يقول النبيﷺ: **(إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ)**. ويمكن للأسرة أن تدعم ذلك كله بتربية أبنائها ليكونوا أفراداً منتجين في وطنهم لا مستهلكين، فتنمية الوطن لا تتم إلا بسواعد أبنائه ولا سيما الشباب منهم، فهم طاقة الوطن وجنوده الذين لا يستطيع الاستغناء عنهم في هذه التنمية.

١٠- **تقوية الروابط والصلات بين أفراد الوطن وفئاته**: من أهم مقومات حماية الوطن والذود عنه: تقوية الروابط بين أفراد الوطن، وتوثيق عرى الصلات بين فئاته وأطيافه المختلفة، والقضاء على الطائفية المقيتة، وكل أشكال التفرقة العنصرية، استجابة لقولهﷺ: **(دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ)**. ولا شك أن للأسرة أثر بالغ الأهمية في ذلك، من حيث تربية أبنائها على مبادئ المحبة والتواضع والاحترام والتسامح والتعايش والتكاتف مع الآخرين في منظومة الوطن الواحد، ونبذ كل مظاهر العنف والشقاق والكراهية والاستعلاء على المواطنين الآخرين أو ازدرائهم والحط من قيمتهم وقدرهم أو غمطهم حقوقهم التي تكفلها لهم أنظمة الوطن وقوانينه.

الجانب الثاني: الوقائي التحصيني: يواجه الانتماء الوطني والأمن الفكري في المجتمع المسلم المعاصر تحديات كثيرة ومتنوعة، ولعل من أبرزها مما له علاقة مباشرة بموضوع البحث هنا ما يأتي:

١- ما تبثه وسائل الإعلام المختلفة ووسائل التواصل الاجتماعي من أفكار وطروحات كثيرة تروج لعقائد باطلة ودعوات مغرضة لإثارة الفتن وبث روح الخلاف والشقاق والنزاع بين أبناء الوطن وفئاته، وإثارة العصبيات المذهبية والنعرات الطائفية والانقسامات الحزبية التي من شأنها تفتيت الوطن والقضاء على وحدته.

٢- ولع كثير من الشباب بالتمرد على الأنظمة والقوانين والقيم والأعراف الاجتماعية المعتبرة في المجتمع، وسعيهم إلى تبني العنف والثورات على ساسة الوطن وقياداته الأمنية بدعوى تغيير المجتمع وتطويره، وانخداعهم بالكثير من الشعارات والوعود المقدمة لهم - غالباً - من جهات خارجية تتربص بالوطن الدوائر وتكيد له.

٣- عزوف كثير من الشباب عن التفاعل الإيجابي المثمر مع مؤسسات الوطن وتطلعاته وبرامجه وخططه التنموية وإنجازاته الحضارية، وانصرافهم عن خدمته ونصرة قضاياه.

٤- تخلي كثير من الآباء عن واجباتهم في توجيه الأبناء وإرشادهم إلى السلوك السليم، وضعف أو انعدام مهمتهم الرقابية على أبنائهم، ويترتب عليه غياب الحوار البناء داخل الأسرة بين الآباء والأبناء، وتأثر كثير من هؤلاء الأبناء برفقاء السوء.

٥- هيمنة العولمة الغربية، وسعيها إلى محو الهويات الوطنية وإزالة الحواجز والخصوصيات بكل أنواعها بين شعوب العالم، وفرض النمط الغربي عموماً

على حياة الناس وثقافتهم وسلوكهم.

٦- فشو ظاهرة التكفير والغلو في الدين والخروج على ولاة الأمر فيها لدى كثير من الشباب في البلاد الإسلامية، تأثراً بجهات خارجية مغرضة، وانحرافاً عن محجة الحق في منهج التلقي من نصوص الكتاب والسنة.

وتستطيع الأسرة مواجهة هذه التحديات ونحوها من خلال القيام بما يأتي:

- **أولاً**: توجيه الأبناء إلى حسن استخدام وسائل الإعلام والاتصال وترشيده، والتنبيه على أنها وسائل ذات حدين إيجابي وسلبي، وأنها تحمل في طياتها نفع عميم أو شر عميم، وتحذيرهم من أضرارها بأسلوب واضح سلس قائم على الحجة والإقناع مع احترام عقولهم ووجهات نظرهم، وتوجيههم إلى الاستفادة من وسائل الإعلام المتّزنة ذات الأهداف السليمة.

- **ثانياً**: السعي إلى إيجاد وازع ديني وضابط أخلاقي لدى الأبناء، وتحصينهم بالقيم الفاضلة والأخلاق الحسنة الحميدة، ليستطيعوا التمييز بين النافع والضار والغث والسمين مما تنتجه وسائل الإعلام من مواد إعلامية مختلفة، وعرض هذه المواد على موازين الدين والعقل وقيم الوطن وأمنه ووحدته، فما وافقه منها أُخذ وقُبل، وما عارض رُد ورُفض، يقول النبي ﷺ: (**لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً؛ تَقُولُونَ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ؛ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا**).

- **ثالثاً**: ربط الأبناء عموماً والشباب منهم خصوصاً بقضايا مجتمعهم وتعويدهم على الاهتمام بها، انطلاقاً من قوله ﷺ: (**الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**)، والاستثمار الجيد لأوقات الفراغ لدى هؤلاء الأبناء، والسعي إلى تجنيبهم الوقوع في السلوكيات المنحرفة عن طريق حثهم على الانخراط في الأعمال التطوعية والخيرية، ونحو ذلك مما يزيد من احساسهم

بقيمتهم وأثرهم في بناء مجتمعهم.

- **رابعًا**: العناية بالحوار الهادف البناء مع الأبناء داخل محيط الأسرة، لكونه من أهم وسائل الاتصال الفاعلة بين أفراد الأسرة وتعزيز العلاقات الأسرية، ومن أفضل طرق غرس المحبة والإلفة وإشاعة روح التفاهم بين الآباء والأبناء، وهو دعامة أساسية من دعائم استقرار الأسرة وتماسكها وعاملٌ أساس في بناء الشخصية المتوازنة للأبناء. ولأهمية الحوار مع الأبناء والناشئة حاور النبي ﷺ العديد منهم واستمع إليهم، ولاطفهم وداعبهم، ولم يستصغر عقولَهم، ولم يهمل مشاعرهم.

ولا شك أن إتاحة الفرصة للأبناء في الحوار داخل محيط الأسرة، له ثمرات إيجابية كثيرة، لعل من أبرزها ما يأتي:

١- أنه يتيح الفرصة للآباء لتقوية الوازع الديني لدى الأبناء عن طريق القدوة الحسنة، وبنائهم فكرياً بناءً سليماً.

٢- أنه يساعد في احتوائهم وعلاج مشكلاتهم، ويسهم في إشباعهم إشباعاً عاطفياً، وفي قطع الطريق على المتربصين بهم الدوائر من أهل الأهواء الذين يريدون بهم وبأمتهم ومجتمعهم الشر والفساد وإثارة الفتن.

٣- أنه يعزز ثقتهم بأنفسهم وتحقيقهم لذواتهم، ويتيح الفرصة لهم للتعبير عمّا يجول بخواطرهم من أفكار ومشاعر.

٤- أنه يحررهم من مشاعر الخوف والقلق والانطواء والكبت لديهم، ومشاعر العدائية تجاه المخالفين لهم في الرأي، ويتيح الفرصة لمناقشة أفكارهم وتصحيحها، وتصويب مسارهم، وتقويم سلوكهم.

٥- أنه يتيح الفرصة للآباء لغرس القيم الإسلامية الفاضلة فيهم، أمثال: قيم

الوسطية، والوفاء بحقوق ولاة أمور المسلمين، واحترام آراء الآخرين ووجهات نظرهم، واحترام العلماء الراسخين في العلم، وتلقي العلم الشرعي الصحيح منهم.

- **خامساً**: التصدي للتيار الجارف للعولمة عن طريق بناء شخصية سوية متزنة للشباب، معتزة بهويتها الوطنية، متحررة من التقليد والتبعية، مستقلة بفكرها وسلوكها، ربانية في وجهتها وغايتها، تأخذ من الواقع المحيط بها والوافد إليها ما كان صالحاً ولو تركه أكثر الناس، وتترك ما كان فاسداً ولو أخذ به معظم الناس، وتعمل على إصلاح ما كان قابلاً للإصلاح

- **سادساً**: حماية أفكار الأبناء من الغلو والتطرف، لما فيهما من تعدٍ على حدود الشرع، وخروج عن مقتضيات العقل السليم والفطرة القويمة، واتباع لنزغات الشيطان وتلبيساته، ولذا حذّر النبي ﷺ من الغلو في أحاديث كثيرة، منها قوله: (**إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ**)، وانعقد اجماع أهل العلم على تحريمه والتحذير من عواقبه. وبما أنَ الأسرة هي الأساس الاجتماعي في بناء شخصيات أفراد المجتمع، فإنها إن قامت بهذا الواجب، وهو حماية أفكار الأبناء من الغلو والتطرف، فستُسهم حتماً في وقايتهم من الوقوع في هذه المزالق العقدية والفكرية، وتجنيب البلاد والعباد شرورها، ومن ثمَّ تحقيق قيم الأمن الفكري المنشود في المجتمعات الإسلامية المعاصرة.

تقصيد وسائل التواصل الاجتماعي نحو خدمة القيم النبوية

(قيمة حماية الوطن نموذجاً)

أ. يونس الخمليشي

باحث دكتوراه

بجامعة عبد المالك السعدي بتطوان، كلية أصول الدين (المغرب)

إن البحث يعالج إشكالاً صيغته: «**كيف يمكن إشغال كافة الوسائل – وسيقتصر هذا البحث على وسائل التواصل الاجتماعي– في سبيل تبليغ هذه القيمة النبوية – وسيقتصر هذا البحث كذلك على قيمة حماية الوطن بصفتها قيمةً نبويةً – والإمعان في إيصالها للناس والأفراد وتعميق تأثيراتها وآثارها في النفوس والسلوك والمجتمعات العامة والمسلمة**»؟ انطلاقاً من هذا الإعضال هدف هذا البحث إلى معالجته وفق التالي:

إن الواجب هو الكلمة بالقرآن والسنة كلاماً دائماً، إذ الصمت -عنهما هنا- يصنع الكوارث والمنكرات وكافة تنويعات المفاسد، كما أن الكلمة بهما تصنع مجمل المحاسن ومظاهر السلم وأجواء الحماية ونعم اللذات وكافة تنويعات المصالح. وعدم اتخاذ وسائل الإعلام مضموناً ووسيلةً لتبليغ الوحي هو تحمل لجريمة الصمت وتحمل لكافة المشقات التي سيصنعها الصمت عن القرآن والسنة الشريفين. بينما الصدع بالقرآن الكريم والسنة النبوية -في الإعلام بالخصوص، وبالأخص في وسائل التواصل الاجتماعي- هو درء لمفاسد الصمت وذنوبه، وجلب لمصالح الكلام وأجوره. وإن البلاغ يقتضي وسائل للتبليغ. وبالنسبة إلى أمته؛ فقد تتخذ أشكالاً مختلفةً مادامت تحافظ على قصد تبليغ القرآن الكريم والقيم النبوية للناس. وتلواً لذلك؛ فمن بين أنجع وسائل التبليغ، الإعلام بمختلف تشكيلاته. ومن بين أبرز أنواعه هو التشكيل الشبكي، ومنه خصوصاً، وسائل التواصل الاجتماعي.

إنه لمن القيم النبوية الواجب تبليغها للناس عبر وسائل التواصل الاجتماعي هي قيمة حماية الوطن التي ترجع في الأساس إلى جذر لغوي؛ (ففي العربية مثلاً) يحدد الوطن على أنه مكان إقامة الإنسان الذي ألفه وانتمى إليه كما هو مشهور في اللسان العربي، فالوطن يضايف الألفة أي الحب لغوياً، والحب يستلزم الحماية للمحبوب. وهذه القيمة، وهي حماية الوطن، قد يتم تجذيرها من النصوص

النبوية كتدليل على أن قيمة الحماية للوطن هي قيمة نبوية خالصة؛ فعن أَنَس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه كان يَقُولُ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، فَأَبْصَرَ دَرَجَاتِ المَدِينَةِ، أَوْضَعَ نَاقَتَهُ، وَإِنْ كَانَتْ دَابَّةً حَرَّكَهَا». فهذا الحديث يدل على جمال استعجال القدوم للبلد وجلال استعجال الحب والوَحشة للوطن وحمايته من الأضرار، وخصوصاً عند ظهور محفزات نحوه تتجلى في فورة الشوق إليه أو رؤيته والاقتراب منه أو تعرضه لمكيدة أو دسيسة أو حرب.. أو ما شابه ذلك من مختلف المحفزات.

وطالما عكس الوطن الحضن الحامي والموفر للأمان الذي يرتاح المرء عنده، فالنَّبِيِّ ﷺ كَانَ يَقُولُ لِلمَرِيضِ: بِسْمِ اللهِ تربَةُ أَرْضِنَا، بِرِيقَةِ بَعْضِنَا، يُشْفَى سَقِيمُنَا، بِإِذْنِ رَبِّنَا. فتربة البلد تعكس دواخل أهله من الحب وتُفَصّل حماية الوطن لأبنائه من العلل والمهالك لدرجة أن المريض عند وضع تراب بلده على مكان ألمه مع ذكر اسم الله تعالى قد يكون أداةً فعالة في طلب الشفاء من الله تعالى له، ربما لحنين المريض للأرض التي جاء منها عموماً، وحبه وشوقه وحنينه لأرضه التي استوطنها خصوصاً كالأم أو كأمه التي يستطيب حضنها ويستأمن جانبها ويستكين بحجرها، **لكن يلزم من حماية الوطن لأبنائه البرور به من قِبَلهم وحمايتهم له بالضرورة.**

قد وجب أن نقوم بتطبيق قيمة حماية الوطن كقيمة نبوية عملياً على تفعيل وسائل التواصل الاجتماعي كوسيلة تبليغ لهذه القيمة النبيلة. ولذا يقال: إن وسائل التواصل الاجتماعي Social networking sites تنحدر من الشبكة (Network) التي تستمد منها تعريفها. وهذا التعريف متشكل من:

١- الحضور في فضاء افتراضي بهويته التي يصنعها في هذه الشبكة التواصلية، والتي يظهر بها.

٢- إمكانية إيجاد مستعملين آخرين، وإمكانية تحليل خصائص المستعملين الآخرين عبر تحديد نوعية الذين يمكن أن يتواصل معهم. لكن، كيف يمكن استثمار هذا الفضاء الافتراضي لخلق إقناع وحياني في منخرطيه لتمرير قيمة حماية الوطن النبوية؟

إن وسائل التواصل الاجتماعي قد توفر لنا مظاهر لحماية الوطن متنوعة لم تك تظهر بدونها أو لا تصادَف بالأحرى، وذلك لكونها تلبي للمرء احتياج السيطرة على الذات وتحديد نوع الأصدقاء المرجَوْن وحذف ما لا يحتمل أو يرفض. إن تحديد المرء لواقعه الافتراضي هذا وبناءه لنوع الحياة التي يريد العيش بها ونمط الذات التي يريد الظهور بها يلبي احتياجه الكامل في تحسره على عدم قدرته على السيطرة على فضائه الحقيقي، **وهذا يخفف من أي سُخط محتمل فخلق اضطراب ممكن تجاه واقعه الحقيقي أي الوطن**. وأيضاً؛ فإن دخول وسائل التواصل الاجتماعي في الحياة اليومية نظراً لسهولة الارتباط بشبكاتها ومشاركتها لليومي والأسبوعي من قبل الذات والآخر؛ أ- سهَّل احتواءها لليومي والأسبوعي وإمكانَ نشر قيمة حماية الوطن النبوية في أغلب لحظات وأوقات المنخرط، ويُسْرَ تسليك الوحي في الوعي المستمر وتذكيرَ الناس به بشكل يومي. ب- كما أن كشفها لليومي في الآخر سهل الاطلاع على احتياجاته التي يعانيها في ساعة ما من نهار أو في يوم ما من أسبوع. **وهذا أشَّر على أي نوع جرعة حماية الوطن التي يمكن إيفاده بها ومن ثم تحقيق عمق التأثير الملائم للطبيعة النفسية أو الحالة الاجتماعية التي يعيشها المنخرط.**

لذا، فإن وسائل التواصل الاجتماعي تلبي افتقارات نفسية واحتياجات سيكو-اجتماعية كثيرةً. وإن تطعيمه بقيمة حماية الوطن النبوية بما يلبي ذلك الاحتياج عبر قناة هذه الوسائل؛ يؤدي إلى التأثير الكامل، نظراً لأن قيمة حماية الوطن النبوية ستلامس منطقة الاحتياج النفسية والاجتماعية التي عرفناها عبر

معرفتنا للحاجات التي يجر الناس لاستعمال هذه الوسائل، ولأن المنخرط قصد هذه الوسائل التواصلية كأداة محقِّقة لذلك الاحتياج، أي أودع ثقته النفسية والاجتماعية فيها. فاتخاذها كغلاف لإبلاغ قيمة حماية الوطن النبوية عبرها يؤثر بأسرع وأشد، لاتخاذها وسيلته التي أدوع فيها ثقته، لننقل هذه الثقة إلى قيمة حماية الوطن النبوية عبرها، حتى نحقق التأثير بالوسيلة وبمضمون الوسيلة.

إن من أهم محلول تتميز به وسائل التواصل الاجتماعي هو مفهوم الفرصة. إنها تتيح فرصة إعلامية للاطلاع على أكبر قدر ممكن من الأفكار بشكل مختصر ومركب، والاطلاع على عديد هائل من المثقفين بمختلف جغرافياتهم، كما تتيح عرض الذات الفكرية والذات الثقافية على الآخر وتوفيرها لهم. مع سهولة استعمال هذه الوسائل التي لا تتطلب قدراً ثقافياً جزلاً. إذا جمعنا هذا المفهوم بمفهوم التيسير الذي يختص به القرآن والوحي لذكره، وكونه متاحاً للعالمين؛ الدارس وغير الدارس كل يقرؤه ويفهمه على قدر عقله؛ مع سهولة الحصول على المصحف وبطون السنة ودراستها؛ كان استثمار هذين المفهومين تحت ظل واحد هو تعزيز للمشترَك الذي يقرب هذه الوسائل إلى القرآن والعكس، مما يسهل تشحين قيمة حماية الوطن النبوية في هذه الوسائل وإشباعها به. **فإذا كانت تفتح فرصاً ميسورةً لمستعمليها، وإذا كان القرآن ميسوراً سهلاً لذكره؛ فإن استغلال تلكم الفرصة بمدها بهذا الميسر يخلق فرصةً ميسرةً ثالثة لتسليك قيمة حماية الوطن النبوية في هذه الوسائل وفي مستعمليها على حد سواء.**

وعليه؛ يمكن تحديد **استراتيجيات تسليك قيمة حماية الوطن النبوية في الذهن والسلوك عبر:**

١- **استراتيجية استثمار كل وسائل التواصل الاجتماعي المتنوعة والكثيرة:** وذلك عبر إحضار كيفي ومكرور لقيمة حماية الوطن ونشر أكبر عدد ممكن من موادها كمّاً لتنشيط الذهن نحو تصديقها والتعلق بها، وكيفاً باستعمال

الصور والألوان والفيديوهات والصوتيات في مختلف البقاع وعلى متنوع الحالات والأصوات والطرق. وهذا يعزز الهيمنة على الذهن بأقصى كمٍّ وكيف ممكنَيْن عبر تكرار إحضار قيمة حماية الوطن النبوية عند المنخرط في أي شبكة انخرط، وفي مجموع كل الشبكات التي فيها انخرط.

٢- **استراتيجية تهديف الاحتياج**: وذلك من حيث إن وسائل التواصل الاجتماعي تكشف عن احتياجات مهمة في سلوك المنخرط النفسي والاجتماعي، فلا بد من استثمار احتياجهم الذي يجدونه في هذه الوسائل بالقيم الشرعية المتنوعة وتمرير قيمة حماية الوطن النبوية عبرها لتلبية احتياجهم هذا.

٣- **استراتيجية العمل والمنافسة**: تقوم وسائل التواصل الاجتماعي على المنافسة الإعلامية، المنافسة في كسب أكبر كم من الجماهير. وإن خلق منافسات وحيانية طي هذه الوسائل بمنطق «وفي ذلك فليتنافس المتنافسون» لا يقف مرامه الجمالي عند الحفاظ على الممتلكات النفسية للجمهور وحسب؛ وإنما حتى على تكثير كم الجماهير وكيفهم، وتعميق التأثير في نفسياتهم وذهنياتهم. إن الفوز بموضع قدم في الذهن يترجم سلوكياً، على الأقل، بوجه ما. وإشباع الذهن بقيمة حماية الوطن النبوية سيبلور القصدَ نحو السلوك الذي بذلك سيمتلئ بقيمة حماية الوطن النبوية ويترجمها. فإحراز تربية وحيانية في السلوك يكون بتمرير الأفكار في الذهن وإعادة صياغة السلوك لها فعلياً ليكون كمثال عملي يشخص المعنى في الذهن ويُمِد من هذا المعنى في بعد جديد وهو البعد السلوكي.

وإذا كان هذا التأثير الذهني منعكساً على السلوك بالضرورة وبينهما تعانق مطلق واستلزام غير مشروط؛ فإنا نكون هنا قد وقفنا في الصف الذي يتيح لنا ربط السلوك التربوي بوسائل التواصل الاجتماعي بالمواد القرآنية والقيم النبوية

الكريمة وأبرزها قيمة حماية الوطن. وهذا سيجلب مصالح لا عد لها للوطن كون سلوكات وذهنيات أبنائه مشبعة بقيمة حماية الوطن النبوية، كما سيدرأ مفاسد لا حد لها عنه كون أعداء الوطن لا يجدون وسائل التواصل الاجتماعي شاغرة عن القيم الصحيحة فيتخذونها رافعة من روافع نشر القيم الرديئة.

أخلاقيات القائم بالاتصال والدور المفترض في حماية الوطن

د. رقية بوسنان

أستاذة في علوم الإعلام والاتصال

بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية (الجزائر)

تعد الكتابة في مجال أخلاقيات القائم بالاتصال من منطلق نصوص السنة النبوية وعلاقتها بحماية الأوطان واستقرارها وسلامتها، ضرورة علمية، وشرعية، واجتماعية وحضارية، نظير ما تعيشه معظم المجتمعات العربية من إحن ومحن ومشاكل متعددة، فرضتها عليها الظروف الداخلية والخارجية، وانتشرت معها مظاهر التخلف، والتطرف، والإرهاب، والاقتتال، والجريمة، والفساد، والفقر، وتعاطي المخدرات، مما ينذر بالفوضى والاضطراب والانهيار في البنيان الاجتماعي ماديا وقيميا.

وتحرص نصوص السنة النبوية على إقامة مجتمعات قوية، يسودها الأمن والأمان والسلام والعدل، وهي تركز بذلك على مجال هام من مجالات الحياة، وهو مجال الاتصال بجميع مستوياته، الفردية، والجماعية، والجماهيرية، والحضارية، وتعدّ هذه النصوص مسؤولية الكلمة كونها أصغر وحدة في الخطاب الاتصالي والإعلامي من أعظم المسؤوليات، في زمن يشهد السيطرة الإعلامية والاتصالية الغربية على قيادة العقول والتلاعب بها، بمختلف التقنيات التقليدية والحديثة، التي تحولت معها المجتمعات إلى كتلة واحدة تتقارب فيها أنماط الحياة، بفعل عولمة متغولة فرضت فرضا على الأنسجة الاجتماعية المسلمة، الصغيرة منها والكبيرة، وتكاد تعصف بالقيم الأصيلة للمجتمعات العربية، وهي التي بنيت على قواعد متينة في عهد الدول الإسلامية التي قادها خير البرية محمد صلى الله عليه وسلم.

وفي الأحاديث النبوية تأكيد على ضرورة بناء أخلاقيات القائم بالاتصال على أسس متينة، ليقوم بوظائفه المتعددة، من أجل حماية الوطن ودعم استقراره ونشدان تطوره وتحضره، وقدرته على صد كل محاولات تشويه منظومته الدينية، ورفض ثقافة الاستلاب والاستتباع الحضاري، وهي بذلك تؤسس لميثاق شرف مهني، يتجاوز ما أقرته المؤسسات الدولية والمحلية في مواثيقها، أو تتجاور مع

بعض بنودها السليمة، والتي أسست لطبيعة ممارسة المهنة الاتصالية والإعلامية من منظورها الفلسفي الوضعي وما يعتريه من التحريف والنقصان، على غرار نصوص السنة النبوية الصحيحة المؤيدة بالوحي والتمكين الإلهي.

وتتناغم النصوص الحديثية في الإعداد لميثاق أخلاقي مهني، ينطلق منه القائم بالاتصال، لمعالجة كل الأحداث والقضايا السلبية التي تزعزع استقرار الأوطان، فهي تركز على الجوانب المختلفة لهذا الإعداد، ومنها الجانب المعنوي، والجانب السلوكي، والجانب التنفيذي، فالقائم بالاتصال من هذا المنطلق، مطالب ومجبر على اقتفاء سنة الرسول صلى الله عليه وسلم في حسن تواصله مع الأفراد والجماعات والمجتمعات والحضارات، بالامتثال لأخلاقه وسلوكاته التي غيرت الكثير من مظاهر الانحراف والتشتت والعنصرية والطائفية في مجتمع مكة وما جاورها من مجتمعات.

و المفترض ان يمتثل القائم بالاتصال في ضوء نصوص السنة للأخلاق السامية ويتمثلها في ممارسة عمليته الاتصالية، أثناء القيام بوظائفه، وذلك في جميع المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، والأمنية، وهي وظائف خدمة الوطن بأمانة ومسؤولية، تكليفا لا تشريفا، وهو ما يفتقد في الزمن الحاضر -والحكم ليس على الإطلاق-، حيث تسود مظاهر الشهرة والنجومية والإثارة، واستنساخ كل ما هو أجنبي وإضفاء الصبغة المحلية عليه، بالرغم من خطورة ذلك على تلاحم البنيان الاجتماعي التي تحل فيه القيم الهجينة المرفوضة اجتماعيا، والتي تؤدي بطريقة أو بأخرى إلى تراجع القيم الأصيلة التي تسهم في المحافظة على أمن المجتمعات واستقرارها، فالواقع يحكم على اغتراب القائم بالاتصال عن قيمه، كمسؤول على المؤسسة الاتصالية أو الإعلامية، أو مقدم برامج، أو داعية له منبر إعلامي أو اتصالي، وتقمصه لأدوار دخيلة تحمل من بذور التمرد على المحلي الأصيل ما تحمله من تداعيات سلبية على الوحدة الاجتماعية

أو الوطنية، انطلاقا مما يسميه انفتاحا وتطورا وهو بعكس ذلك تماما.

ويشهد الواقع على هذا التوجه ويسوق له عبر العديد من فضاءات الاتصال، من صحف ورقية، وقنوات فضائية، وشبكات اجتماعية، ومواقع الكترونية، تحل فيها حرية التعبير المنفلتة، والخطاب اللامسؤول، ومظاهر السخرية من الدين، والتكفير، والتجريح، والسب، والقذف، والتحريض، على العنصرية، والدعوة للانقسام والاقتتال، بما لا يخدم ولا يسهم في حل القضايا العويصة التي تعصف بمعظم المجتمعات العربية وتزيد من تخلفها وانهيارها، فالمشاهد العربي وهو يتابع النشاط الاتصال لهذه الفضاءات يشعر في معظم الأحيان بالقلق والاكتئاب لأن ما يقدم لا يخدم بأي شكل من الأشكال الوعي بالمحافظة على استقرار المجتمعات العربية، والحال يتضح مع المضامين السياسية التي تحاول تأجيج أوضاع الصراع بين الدول العربية بدل من الإسهام في وضع الحلول والرؤى الاستراتيجية لنشدان الوحدة واستتباب الأمن والسلم والسلام.

ويتوجب على القائم بالاتصال من منطلق السنة النبوية، ومن أجل حماية الأوطان واستقرارها، نشر الوعي بالثقافة الأمنية وتبنيها كمشروع حضاري يهدف إلى تحقيق الكثير من مظاهر التلاحم والتعاضد، ومحاربة كافة أنواع الجريمة، من عنف، وتطرف، وإرهاب، واختلاس للأموال، وإزهاق للأرواح، وهي تعي بذلك مسألة أهمية الأمن بأنواعه، الفكري، والاقتصادي، والثقافي، والاجتماعي، والأسري، والفردي، فالمجتمعات الآمنة تسود فيها مظاهر العدل، والتكافل، والمحبة، والسلام، وإقامة الحدود، وحفظ الحقوق والحريات، وهي مجتمعات قوية في اقتصادها وبنيانها مهما كانت ملتها.

وتلزم السنة النبوية القائم بالاتصال بالحرص على نشر الآداب وبناء أخلاق الأفراد داخل جميع المؤسسات الرسمية وغير الرسمية، باعتماد استراتيجية تربوية لا تستثني أي فئة من الفئات، فإقرار مفهوم التربية في جميع المجالات من شأنه أن

يقلص المظاهر السلبية، فيعمل كل فرد في حدود تكليفه بمسؤوليات عملية، بنوع من الالتزام والحرص والمراقبة الذاتية على أداء الأفضل والأنفع للمجتمع والبيئة التي تحتويه، والتربية إن قويت مشاريعها واستنفذت الطاقات لتطبيق أسسها، تعدّ مخرجا قويا لبناء مجتمعات أقوى، كما تحث هذه النصوص وفقا للمنهج التربوي على إشاعة مظاهر التكافل، والتعاون، والإغاثة والرحمة، وهي قيم مارسها الرسول في سلوكاته اليومية، مع الأطفال، والنساء، والشباب، وحتى الحيوانات، فيما تنشده اليوم المنظمات الدولية من إقرار بحقوق هذه الفئات، ومن حق العيش الكريم في المأكل، والمشرب، والملبس، وحق العمل والتعليم، وحق صون الكرامة الإنسانية.

وتشدد النصوص على اليقظة التامة لمحاصرة الشائعات، واستئصال منابت انتشارها، لأن لها من المخاطر الشديدة ما يفتك بالنفس والدين، والمال والعرض، وما يزعزع من الاستقرار ودعائمه، وقد تجلى بوضوح تحذير الرسول صلى الله عليه وسلم منها، وأظهر سوء وخاتمة تداعياتها في الدنيا والآخرة، وهو يحرص بذلك على قيام مجتمعات معافاة، تمقت الفاحشة والفحش، وتنشد الطهر والفضيلة، وكم من شائعات أوقعت الأفراد والمجتمعات في شر البلايا، فانقلب الإخوة إلى خصوم، وسادت مظاهر العداوة والتشقق.

وتبرز الأحاديث النبوية مدى الأهمية التي يجب أن يحظى بها المخالف في الرأي أو الملة، أو النحلة، أو الدين، في فتح باب الحوار والمعاملة الحسنة، خاصة في المجتمعات التي تنتشر بها الطوائف المختلفة، للمحافظة على النسيج الاجتماعي، ودعم الوحدة المجتمعية، وإقرار التعايش ونشر ثقافة السلم داخلها، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم حريصا كل الحرص على التعامل مع المخالفين، بإقرار السياسة والحكم الرشيد في استيعابهم وتوجيههم إلى اعتناق قيم الدين السمحة، فكان خطابه الدعوي السمح موجه لجميع الفئات والأصناف

على اختلاف خصائصهم الفردية والجماعية والاقتصادية، من ملوك وحكام، ومقاتلين، ومرتدين، ومعتدين، ولعل في خطبه الشهيرة إلى قيصر، وكسرى، وغيرهما ما يؤكد هذا التوجه الحكيم من رسول البشرية عليه الصلاة والسلام.

وتشكل السنة النبوية في بنيتها النصية المتماسكة دستورا أخلاقيا، على غرار الدساتير الوضعية، التي أصبحت المرجعية التشريعية لمعظم الدول العربية الإسلامية مع الأسف، هذا الدستور الاخلاقي أسهم بفاعلية في وضع أسس الحضارة الإسلامية التي زهت في عصور ماضية وبخاصة في العصر النبوي، ومنظومة قيمها التي حرصت على التفوق والتطور في شتى المجالات، وهي المنظومة نفسها التي تؤسس الآن ومستقبلا بنصوصها المعجزة، لأخلاقيات القائم بالاتصال، كل من موضعه، ومنصبه، وكل حسب قدرته، فقد اشتمل هذا الدستور على كل ما يوجه العمل الاتصالي والإعلامي في العصر الراهن، وهو العمل الذي تتعرض فيه قيم الاتصال لمختلف الهزات والتناقضات على مستوى مضامينه وتوجهاته.

وتتنوع أخلاقيات الممارسة الاتصالية والإعلامية من منظور السنة النبوية، وتتعدد أساليب ممارستها، التي تتمثل في فنون الحوار، وفنون العرض، وفنون تدعيم وتعميم ونشر القيم الاتصالية على تغير وعائها الحامل لها، فلم يكن للعنف اللفظي والمادي مكان في ممارسات الرسول صلى الله عليه وسلم الاتصالية، فقد كان يتعامل مع الجميع بالكلمة الطيبة الرزينة والمسؤولة التي تحبب الأفراد في مشروعه الدعوي المؤيد بالوحي الرباني، وتخلق جوا من التسامح مع الذات ومع الآخر، وتجمع الشمل ولا تفرق، وتنصح للخير والفضيلة وتحذر من الشر والرذيلة، وبالرغم من منهج الرسول صلى الله عليه وسلم المعتدل والوسط في اتصاله الداخلي والخارجي بعد التمكن من إظهار رسالته، لم يخلق مجتمعا مثاليا، إلا أن الشعور بلذة الاستقرار والأمان في مجتمعي مكة والمدينة كان سائدا مع

مظاهر المحبة والتعاون والإيخاء.

هذه الأساليب النبوية تصوغ وتنشر قيم المسؤولية وقاعدتها الحرية، والصدق والإخلاص والأمانة في القول، والعدل والنزاهة والحياد في العمل، واحترام كرامة الإنسان وكلها من أجل صون الأوطان، مما يحتم على القائم بالاتصال، حسن استخدام الوسائل المتعددة والتعامل معها وفقا للمقاصد والضرورات الشرعية، ونحن نشهد الانفجار التكنولوجي خاصة الذي أصبح لغة للعصر، وصورة من صور التحضر والرقي، فالنظام الاتصالي الذي يفقد قيمه الأصيلة، مصيره الانهيار ولو طال به الزمن، كيف لا وحديث الصادق المصدوق يبشر الفرد بنجاح الفرد وفلاحه وينأى به عن التيه وضلاله، هذا إن التزم باتباع القرآن الكريم المعجز بألفاظه ونصوصه والسنة المطهرة الشارحة له «تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ»[1].

١- موطأ الإمام مالك - كِتَابُ الْقَدَرِ - النهي عن القول بالقدر، رقم: ٣٣٣٧، حديث منقطع.

أثر الشائعات في تهديد الوطن ودور السنة النبوية في مواجهتها

د. عماد حمدي إبراهيم

أستاذ مساعد في الدراسات الإسلامية، بجامعة سوهاج (مصر)

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد، ، ،

فإن الأوطانَ هي بيوتُ الناس، والأمم، والحضارات، وأرضُ الله التي استُخلف فيها المستخلفونَ لأجل العمارة والتّعمير، فلا بِدعَ إن نَطَقَت الآيُ البيِّناتُ، والأحاديثُ الواضحاتُ، وسيرُ السَّلَف الصَّالح بضرورة الذَّوْد عن بَيضَة الأوطان، وَصوْنها عن ذرائع التَّهارُج، وفوْت الأمانَ؛ وعلَّةُ ذلكَ أنه لا قيامَ لدين، أو حضارةٍ، أو رسالةٍ في ظلِّ تَصَدُّعاتٍ تَنْخُرُ من الوطن بُنْيَانَه الرُّوحيَّ والمادِّيَّ.

ولاشك أن تداول الشائعات، وانتشارها؛ يُعد من أخطر مُهدِّداتُ حمايَة الوَطَن، وخاصة ما يكون منها مرتبطاً بالأمور الخطيرة، والجليلة، التي تَمَسُّ العرض، أو الدين، أو الكرامة، أو مقدرات الوطن، تلك التي ما إن انتشرت في مجتمع إلا وتحول أمنه قلقاً ورعباً، وترابطه فرقةً واحتراباً، وتآلفه حقداً، وبغضاً، ونفوراً... ومن ثم زعزعة أمن المجتمعات وسلمها.

وتكمن خطورة الشائعات في كونها تدخل في كافة جوانب الحياة؛ السياسية، والاقتصادية، والعسكرية، والأمنية، والاجتماعية...وعلى المستويين المحلي، والعالمي...كما أنها تنتشر بسرعة مرعبةٍ ومخيفةٍ، لا سيما في أوقات المحن، والأزمات...وخاصة مع انتشار وسائل التواصل الاجتماعي التي أسهمت في رواج الشائعات والأراجيف بشكل كبير؛ فالشائعة لم تعد منطوقة فقط بل أصبحت مكتوبة أيضًا، وتنتشر عبر الصحف، والمجلات، والمواقع الإخبارية.. حتى أنها لتصل إلى الملايين خلال دقائق معدودة..

حتى أصبحت أمتنا، وأوطاننا تعاني حالة مزمنة من (الغثائية الثقافية) التي تملأ الفضاء والأجواء، ويسيطر عليها الإعلام بكل وسائله، وأدواته، ويُسهم الكثير

من تلك الوسائل، في صناعتها، وترويجها؛ من خلال ما يتم بثُّه من حوارات، ومناقشات، ومقابلات، وتحليلات، وإن شئت فقل: (تضليلات)...هذا الواقع الغوغائي، وهذه الحالة الغثائية، التي غالباً ما تقتصر على الإذاعة، والإشاعة، والهيجان، والحماسة، والأخذ، والرد، والضجيج، والخوض، والدوران ضمن الحلقات نفسها...هي تلك الحالة التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (النساء:٨٣).

ومن المؤلم، بل والمؤسف؛ أننا نفتقر في أغلب الأحيان إلى الأبجدية الصحيحة، التي تحسُن قراءتها بشكل صحيح؛ فتُدرك أبعادها، وتخلص إلى الحلول من ظواهرها، وتستنبط الأوعية الشرعية الملائمة لوقاية الأمة، من آثارها، وحمايتها من أضرارها.. على الرغم من أن قرآن ربنا، وسنة نبينا تضع بين أيدينا الحل الأمثل للخروج من هذه الحالة؛ فيقول الحق سبحانه: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (النساء:٨٣).

ولعل ما يزيد من خطورة الشائعات؛ ذلك الكم الهائل من الآثار والأضرار التي يمكن أن تُلحقها بالوطن، وأبنائه على حدٍ سواء، وعلى رأسها؛ إثارة الرعب، ونشر الفزع، والقلق، بين أبناء الوطن، وزلزلة القلوب، وتحطيم الروح المعنوية.. ومن تفريقٍ للكلمة، وشقٍ للصفوف، ونيلٍ من وحدة الوطن، وتماسكه؛ وذلك لما لها من قدرةٍ عجيبةٍ على التلاعبِ بعقولِ أبناء الوطن، ومن إرباكٍ وبلبلةٍ للرأي العام؛ ذلك أن الناس أمامها بين مصدقٍ ومكذب، ومترددٍ ومشوش الذهن... حيث تتعدد الروايات، وتتناقض الأخبار؛ فهذا ينفي، وذاك يثبت، وهذا يشكك، وذاك يجزم ويؤكد...فتشيع الفوضى ويعم الاضطراب، مما يؤدي إلى تهديد

أمن الوطن، وسلمه، وزعزعة هدوئه، واستقراره.. فتكثر الفتن والاضطرابات، وتتوالى المحن والأزمات، بأشكالها المختلفة؛ السياسية، والعسكرية، والاقتصادية، والاجتماعية...مما يؤذن بفساد الديار، وخراب العمران.

ناهيك عما يمكن أن يسببه انتشار الشائعات؛ من النيل من رموز الوطن، وتشويه صورة قادته وزعمائه...مما يجعل الساحة خالية من القيادات والزعامات السياسية، والفكرية، والاجتماعية والدينية.. التي يحترمها أبناء الوطن، ويثق فيها، ويتخذها نماذج وقدواتٍ يُحتذى بها؛ فيسْهُل الطريق أمام الأعداء للغزو الفكري والثقافي، وتتاح لهم الفرصة لنيل مآربهم، وتحقيق أهدافهم وتمرير أفكارهم.

وإذا كانت الشائعات تمثل أحد أهم وأخطر الظواهر السلبية الكفيلة بإفساد المجتمعات، التي لايكاد يخلو منها مجتمع من المجتمعات، أو عصر من العصور؛ فقد جاءت السنة النبوية تصور أثر الشائعات، وتبين خطر الأراجيف على الأوطان والمجتمات، وذلك من خلال بعض الحوادث اليسيرة التى وقعت في المجتمع النبوي، والتي قام بافتعالها وإثارتها الماكرون من المنافقين، وأخذت في طريقها وأوقعت بعض الصالحين، من أصحاب الفضل، وشاء الله (ﷻ) أن يكون ذلك في العصر النبوي، وهو خير القرون، لتكون عبرةً ودرساً للخلف من بعدهم، فيدركوا خطر الشائعات، التي لا يسلم من نارها إلا من تمسك بالقيم الربانية، والهدي النبوي الشريف.

والمتأمل في نصوص السنة النبوية المطهرة، يجد فيها منهجاً متكاملاً في مواجهة الشائعات، ومحاصرتها، والتصدي لها؛ وذلك بحرصها على توزيع المسؤوليات، وتقسيم الأدوار أثناء تلك المواجهة؛ ذلك أن للزعماء، والقادة، والعلماء.. دورهم ومسئوليتهم في مواجهة الشائعات، كما أن لجماهير الشعب، وكافة أبناء الوطن دورهم أيضاً؛ فمسؤولية حماية الوطن من هذه الآفة الفتاكة مسئولية مشتركة.

ولا عجب في ذلك فالوطن في ضوء الهدي النبوي ورؤيته؛ أَشْبَهُ بالسفينة التي يركب على متنها جميع من يعيش على تراب هذا الوطن، ويستظل بسمائه... وحماية هذه السفينة، والحفاظ عليها، والذود عنها، من كل ما يحيط بها من أخطار، ويهددها من مهددات؛ مثل الشائعات، والأراجيف، وأفكار الغلو، والتطرف، والأمية، والجهل، والعصيان، والتمرد، والخيانة، وغيرها...مقصد شرعي، وضرورة مجتمعية.

وتظهر عظمة السنة النبوية، وتبرز عبقرية المنهج النبوي في مواجهة الشائعات من خلال استخدامها لنوعين من الوسائل والآليات، في عملية المواجهة، وذلك على النحو اللآتي:

أولاً: آليات ووسائل قَبْليَّة: تهدف إلى الوقاية من الشائعات، وسد ذرائع ذيوعها وانتشارها، قبل وقوعها، ومن بين تلك الوسائل؛ اجتناب الكذب والافتراء، والحرص على القول النافع، أو التزام الصمت، والبعد عن القيل والقال، وعدم الإكثار من الكلام دون داعٍ، والحذر من تداول كل ما يُقال أو يُسْمَع وترديده، وضرورة رد الأمور إلى مصَادرها الأصلية، والتثبت من صحة ما يُقال ويُسمع، والعمل على تنمية منهج التقويم، والنقد، والمراجعة لدى أبناء الوطن، بالإضافة إلى الشفافية والوضوح، وفتح قنوات الحوار والتواصل، بين القادة والزعماء من ناحية، وبين أبناء الوطن من ناحية أخرى، وضرورة استثمار طاقات الشباب من أبناء الوطن، وشغل أوقات فراغهم بالعمل الجاد النافع لهم ولأوطانهم..

ثانياً: آليات ووسائل بَعْديَّة؛ وذلك لمواجهة الشائعات، ومحاصرتها، والحد من آثارها، وتخفيف أضراراها على الوطن والمواطنين بعد ذيوعها وانتشارها، ومن بين تلك الوسائل؛ كتمان الشائعة، وعدم تكرير الحديث عنها، ومحاولة التخفيف من وقعها السيء، ومواساة من أُوذي بها، ومواجهتها بالحقائق الثابتة، والأدلة القاطعة، ومحاولة رفع الروح المعنوية لأبناء الوطن، وبث الأمل

والتفاؤل بين جماهير المواطنين..

ولعل السؤال الذي يطرح نفسه الآن: أين نحن من وحي ربنا، وسنة نبينا (ﷺ) التي وضعت لنا المنهج، واختصرت لنا الطريق في مواجهة الشائعات؛ تلك الآفة الفتاكة التي تهدد الوطن وأبناءه؟!

وأين نحن من إقامة المراكز العلمية المتخصصة، التى تقرأ إذاعات وإشاعات الأمن والخوف، وشتى شئون الواقع الإنساني، وتستنبط الحلول، وتُخلِّصنا من حالة التبعثر، والضياع، والهيجان، والإذاعة، والإشاعة، والإدعاء؟! وكيف لنا أن نصل إلى القناعة؛ بأن لكل شأنٍ من شئون الحياة خبراؤه ومتخصصوه.

ومن زاويةٍ ثانية؛ إذا كان أولئك الذين يحاولون نشر الأراجيف، ويسعون إلى ترويج الشائعات يشكلون - وبلا شك - بؤرة فاسدة في جسد الوطن، وطفح جلدي منتن، وآفة فتاكة، تهدد أمن الوطن وسلمه.. فأين نحن من العمل على محاربة هذه الفئة، واستئصالها، وانتزاعها من جذورها.. لتبقى الأوطان قويةً، متماسكةً، مترابطةً، ذات هدفٍ واحدٍ؛ لتبني مستقبلها ولتقف ضد أي أخطار تعترض مسيرتها.. وأين نحن من العمل على تفعيل قوانين محاسبة من يحاول نشر الأراجيف، وترويج الشائعات فى كل المجالات، وليس السياسى فقط، فالشائعات الاقتصادية، والدينية، والأخلاقية، والفنية.. تهيئ المناخ لأي شائعات أخرى.

ومن زاوية ثالثة: إذا كان الوطن في الهدي النبوي أَشْبَهُ بالسفينة التي يركب على متنها جميع من يعيش على تراب هذا الوطن، ويستظل بسمائه.. فأين نحن من التزام الشفافية، والوضوح، والحرص على تقديم التفسيرات للقرارات السياسة، التي تمس مصلحة الوطن والمواطنين.. وأين نحن من فتح قنوات الحوار والتواصل، والإبقاء عليها بين القادة وصناع القرار، وبين أبناء الوطن؛

سداً لذرائع الفوضى والهرج، وقطعاً للطريق أمام مروجى الشائعات لبث السموم، والأراجيف.

ومن زاوية رابعة؛ فإذا كان الإعلام في وقتنا الراهن؛ يشكل جانباً من جوانب الحياة في غاية الأهمية، ومكونات المجتمع ؛ حتى إنه لم يعد يكتفي برصد الحدث، وإيصال المعلومة، بل أصبح - بما يمتلك من قوة وعوامل تأثير وضغط وتحكم...- يصنع الحدث، والتحضير له في الوقت نفسه.. حتى إنه ليوظف الترفيه لأداء رسالة، والتسلية لإيصال فكرة، وتشكيل عقل، وصناعة ذوق عام، وزراعة اهتمامات معينة...حتى أصبح الإعلام في كرتنا الأرضية (كالجهاز العصبي) الذي يشد أجزاء الجسم برباط واحد!

فأين نحن من فتح الآفاق لحرية الصحافة، والتعبير، والبحث العلمى؟! وأين نحن من تخفيف حدة الرقابة القَبْلية من الجهات الرسمية؛ تلك التي تفتح الباب على مصراعيه أمام التكهنات والاحتمالات حول ما يُتَّخذ من قرارات، وما يُتَّبع من سياسات.

وأين نحن من مؤسسة إعلامية تعي دورها، وتستشعر مسئوليتها الوطنية، في حماية الوطن من الشائعات؛ وذلك من خلال رد الأمور إلى مصادرها الأصلية، والاستعانة بأهل الخبرة والاختصاص كلٌ بحسب تخصصه ومجاله.

أين نحن من مؤسسة إعلامية؛ تكونُ على قدر ومستوى المسئولية عند نشر المعلومات، وإذاعة الأخبار المتعلقة بالظروف العسكرية، والاقتصادية، والاجتماعية للوطن.. لتفوت الفرصة على أعداء الوطن، الذين يحاولون تصيد هذه الأخبار والتقاط هذه المعلومات، ومن ثم جمعها والاستفادة منها...مؤسسة إعلاميةٍ تتعامل مع أسرار الوطن بوصفها مصلحةٌ عليا مقدسة، وأن المساس بها مساسٌ وإضرارٌ بالوطن نفسه.

مجالات حماية الوطن في السُنّة النبويّة ومنهج الإدارة النبويّة في بنائها

د. محمد شريف مُشوّح

حاصل على دكتوراه في الإدارة الإسلامية «مصارف إسلامية» (سوريا)

الحمد لله الذي ألّف بين قلوب المؤمنين بمنّه وفضله، الذي أمرهم بالاعتصام بحبله، فجعلهم بنعمته إخواناً، وجنّبهم بإتلاف قلوبهم على توحيده ذنوباً ونيرانا، ممتثلين بذلك لأمره في قوله: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

والصلاة والسلام على من أرسله ربه للعالمين رحمة، الذي حمى وطن الإسلام بالعدل والحزم والحكمة، وبعد:

فإن حماية الوطن والذود عنه لا يمكن أن تكون بالشعارات، ولا بالصورة التقليدية والمتمثلة بالجيش الذي يرابط على الحدود، ويعمل ليل نهار على حماية الأمن في البلد وحسب، بل تتعدّى تلك الصورة النمطية إلى مفهوم أوسع وأشمل، لتغطّي التأسيس القيمي للمجتمع، ولتهتمّ بالتشريع والسياسة، وكذلك بالروابط الاجتماعية الموحّدة للمجتمع، وبتحسين الأوضاع الاقتصادية للمواطنين، وذلك عن طريق حكومة قوية قادرة على إدارة شؤون البلاد، وقادرة على قيادة عجلة التنمية بكافة المجالات؛ لتتشكّل بذلك وحدة مجتمعية متجانسة فكرياً وثقافياً وماديّاً، فتكون قادرة فعلاً على حماية الوطن في كل حين، ومن كل خطر، وعليه:

فقد جاء بحث: «**مجالات حماية الوطن في السُنّة النبوية ومنهج الإدارة النبوية في بنائها**» نتيجة الحاجة لتأصيل آليات التطبيق النبوي، ولمنهج الإدارة النبوية في حماية الوطن في مختلف مجالات حمايته، والتي تشمل المجالات: الدينية، والتشريعية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والعسكرية، والتي قام النبي ﷺ ببنائها وتطبيقها وتوحيد المجتمع الإسلامي وجمعه - على المستويين القيمي والتطبيقي - على مبادئها؛ وذلك لاستلهام التجربة النبوية الشريفة المؤيدة بالوحي، واعتمادها نموذجاً يمكن الاستفادة منه في إدارة وحماية وتحصين الأوطان على الصعيد الإنساني في كل زمان ومكان.

لقد ظنّ بعض الناس أنّ حماية الوطن تكون فقط من خلال حماية حدوده بالقوّة العسكرية والسيف!، وجحد كثير منهم قدرة السنة النبوية الشريفة على إعطاء الواقع المعاصر أدوات وأساليب ومناهج علمية في مختلف ميادين الحياة، ولا سيما في باب قيام الدول وحماية الأوطان؛ بزعم كونها مثّلت - بالنسبة لهم - مرحلة زمنية غابرة، ناسبت وقتها ومجتمعاتها، وانقضت برجالها وأحوالها، في حين أن الحقيقة التي لا يجحدها منصفٌ -برأي الباحث- هي:

أولاً: أن السنة النبوية «صيدلية» كل عصر، وشفاء كل معضلة، وأنها في مجال حماية الوطن قد أعطت الدواء الناجع لكل زمان ومكان؛ حيث أتت بتراتيب إدارية مميزة، وقيادة منهجية فذّة، وجّهت بها أفراد المجتمع نحو الوحدة في مختلف المجالات، وجعلت من تكامل مجالات حماية الوطن مقصدًا شرعيًّا وضرورة مجتمعية، وأهّلتهم بذلك ليكونوا قادرين على حمايته ممّا يهدّده من أخطارٍ: داخليةٍ أو خارجيةٍ.

ثانياً: أنّ حماية الوطن في الجانب العسكري هو جزء من منظومة متكاملة من الجوانب والمجالات التي يجب تأسيسها وتوحيدها وتنظيمها وبناؤها على قاعدة وحدة المجتمع - قيميّاً وتطبيقياً - وأن أهم المجالات التي اعتبرتها السنّة مهمّة في حماية الوطن، فقامت ببنائها وفق منهجية مدروسة هي المجالات: الدينية، والتشريعية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والعسكرية، وأنها دأبت على إخراجها وحدةً واحدةً متكاملةً، تعمل بتراتبية تكاملية وتنسيق في تحصين المجتمع وحماية الوطن.

ومن المسلّمة المنطقية القاضية بكون مكنونات السنة النبوية المطهّرة تحتوي على كنوز المعرفة الإنسانية التي جمعت بين: المثالية القيمية، وقابلية التطبيق، وأنها تحوي نماذج حلول المعضلات الإنسانية في كل مجال، وأنها قادرة على تكييف مشاكل الزمان والمكان والتعامل معها بإيجابية تخدم البشرية؛ لأنها وحي ممن

خلق الزمان والإنسان، وأنها في مجال حماية الأوطان أعطت الوصفة المنهجية المتكاملة في: توحيده، وتحصينه، وحمايته في مختلف المجالات، فنجدها -أي: السنة النبوية الشريفة -في المجال الديني قد اتخذت تراتيب منهجية أسست من خلالها قواعدّ التقبّل في وجدان المسلم على صعيد العقيدة والعبادة والأخلاق، فأدارت توجيه أفراد المجتمع المسلم على أصول مرعيّة؛ لضرورات مقصودة، يتحقّق باجتماعها مقصد الوحدة المجتمعية، والحماية للجماعة المسلمة في أوطانها، وذلك من خلال التأصيل لوحدة المجتمع في المجال الديني: عقيدةً، وعبادةً، وأخلاقاً على أنها أصل في حماية الوطن.

ولأنّ إيجاد أيّ مجتمع موحّد متماسك يستطيع القيام بواجباته في حماية وطنه لا يمكن أن ينشأ وينمو ويستمر من غير دستور موحّد يشترك في الخضوع لقوانينه ومقرراته جميع شرائح المجتمع وطبقاته؛ نلحظ أن الإدارة النبوية - وفور وصوله ﷺ إلى المدينة المنوّرة- قد قام بخطوات تشريعية وسياسية توحيدية؛ لتكون سبباً في تنظيم المجتمع وانتظام أفراده في قانون يوحّد بينهم، ويعرّف كل شريحة منهم حقوقها وواجباتها تجاه الجماعة وتجاه الوطن، فجعل بذلك من إقرار المجالين: التشريعي والسياسي سبيلاً في حماية الوطن.

كما اتضح نهج الإدارة النبويّة في حماية الوطن من خلال تفعيل الجانب الاجتماعي، وبرز ذلك جلياً في مسلكين متوازيين على الصعيدين التأصيلي والتطبيقي، فاستوعب التأصيلُ المجالَ القيمي الذي سعى من خلاله النبي ﷺ إلى إرساء قيم اجتماعية توحيدية تكون دافعاً معنوياً نحو الجدّ والعمل على حماية الوطن؛ واستوعب التطبيق ترسيخ تلك القيم من خلال التطبيق العملي، وسبق بقرون في التأصيل لقضية «المواطنة» على أساس: وحدة الأصل البشري، والمصالح المشتركة، ودعوة الإسلام للعدل والإنصاف، وضرورة الاجتماع البشري، وتمثّل وثيقة المدينة القاعدة الأساسية لمبادئ المواطنة في الإسلام،

باعتبارها أول دستور مدنيّ شامل في الإسلام.

وكأي قيادة مسؤولة للمجتمع، ومن إدراكها لقيمة ومكانة وأثر الاقتصاد في استقلال وحماية الوطن: اتخذ سلسلة من الإجراءات العملية المنهجية بقصد توحيد المجتمع واستقلاله في المجال الاقتصادي؛ ليقينه بأن قوة الاقتصاد واستقلاله وتوحيد المجتمع فيه فكراً وعملاً هو أحد أسباب وسبل الدفاع الأساسية عن الوطن، لتنطلق بعدها الإدارة النبويّة مكملة حلقات حماية الوطن بتركيزها واهتمامها بالجانب العسكري، إذ نهجت في ذلك منهجاً منطقيّاً مميزاً، حيث اهتمت بالإعداد الذي شمل التدريب على مهارات الدفاع عن الوطن، والاهتمام بتصنيع أدوات وأسلحة الدفاع والهجوم العسكري، وذلك بعد التأسيس المعنوي الذي شمل العقيدة والعبادة والأخلاق، وقبل الزجّ بفلذات الأكباد في أتون المواجهة التي قد تفرضها سنة التدافع ومقتضيات الدعوة.

إنّ الغوص في بحر السنّة النبويّ في مجال حماية الوطن أوصل الباحث إلى نتائج عديدة، كان أهمّها:

١- أنّ حماية الوطن والذود عنه لا يمكن أن تكون بالشعارات، ولا بالصورة التقليدية والمتمثلة بالجيش الذي يرابط على الحدود وحسب، بل لابدّ أن تتعدّى حماية الوطن تلك الصورة النمطية إلى مفهوم أوسع وأشمل، لتغطّي التأسيس القيمي للمجتمع، ولتهتمّ بالتشريع والسياسة، وبالروابط الاجتماعية الموحّدة للمجتمع، وبتحسين الأوضاع الاقتصادية للمواطنين، وتقوية الجانب العسكري إعداداً وتأسيساً؛ ليتكتّل بذلك مجتمع موحّد متجانس فكرياً وثقافياً وماديّاً، فيكون قادراً فعلاً على حماية الوطن في كل حين، وضدّ كل ما يدهمه من أخطار.

٢- أن كلمة السرّ والأساس الأول والقاعدة الأقوى في منهج الإدارة النبوية في

بناء المجتمع وتأهيل أفراده على حماية الوطن هي في: تركيزه على الوحدة «الوطنية»، وإرساء مبدأ المواطنة، وتكتيل المجتمع بوصفه قوة موحّدة في مختلف المجالات، وتوحيد تلك المجالات في تكاملية ممنهجة في حماية الوطن.

٣- أنّ منهج الإدارة النبويّة في حماية الوطن في المجال الديني شمل توحيد المجتمع في مجال العقيدة، والعبادة، والأخلاق.

٤- أنّ منهج الإدارة النبويّة في حماية الوطن في المجال التشريعي والسياسي بدأ بوضع أول بذرة دستورية في تاريخ الدولة الإسلامية، من خلال: كتابة «الوثيقة»، ثمّ باعتماد القيم السياسية الإسلامية داخل المجتمع الإسلامي، ثمّ بمراسلة قادة الإمبراطوريات المحيطة بالدولة الإسلامية الوليدة.

٥- أنّ منهج الإدارة النبويّة في حماية الوطن في المجال الاجتماعي تعرّض لإرساء القيم الاجتماعية التوحيدية: كقيمتي العدل والمساواة، وبالقضاء على الطبقية، وبتطبيق مبدأ المؤاخاة بين المؤمنين في المرحلتين المكية والمدنية.

٦- أنّ الإدارة النبويّة نهجت في حماية الوطن في المجال الاقتصادي مبادئ تقوية المجتمع في مختلف المجالات الاقتصادية، فعمدت إلى الاستقلال الاقتصادي ونبذ التبعية للسيطرة اليهودية على التجارة ببناء السوق الخاصة بالمسلمين، ثم وسّعت الزراعة ودعمتها من خلال إحياء الأراضي الميتة واستغلالها، وشجّعت الصناعة باتباع أساليب جديدة حينها.

٧- أنّ منهج الإدارة النبويّة في حماية الوطن في المجال العسكري ركّز على الإعداد من خلال التشجيع على التدريب، وأسس للصناعة الحربية لتكون وسيلة في حماية الوطن، وطبّق حماية الوطن عند الحاجة باستخدام تقنيات لم تكن العرب تعرفها، كحفر الخندق يوم الأحزاب.

وفي الختام، وبناءً على ما سبق من نتائج، نلمس ضرورة التوصية بتكثيف الدراسة في السنة النبوية، والعمل على استنباط المناهج النبوية في مختلف مجالات العلوم الإنسانية، وتعميم النتائج على مختلف فروع الإدارات في المجتمع، واعتمادها في مناهج التربية والتعليم؛ لتربية الأجيال عليها، وتفعيل دورها المميّز في المجتمع.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

أحاديث العهود وأثرها في حماية الأوطان

د. عادل فائز

أستاذ العلوم الشرعية واللغوية بجامعة ابن زهر – أكادير (المغرب)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وبعد، ،

فإن لشرعة رب العالمين مقاصد تتغاياها، وكليات جامعة تتوخاها، تحقيقا لسكينة متَّبعيه، وسعادة معتنقيه. وإن من كبير مقاصده، وعظيم مآلاته؛ حمايةُ الأوطان وصيانتها، وحفظ تماسكها واستقرارها، وتحقيق أمنها وأمانها، وما إلى ذلك من أمرها، فكانت جملة من تشريعاته سائرة في ذا المضمار.

وإن من جملة التشريعات التي رامت تحقيق تلك البُغية المرجوة، والطِّلْبة المرغوبة ما شرعه الإسلام من أحكام العهود، وما أحاط به العهد من كريم العناية، وكبير الرعاية، حيث جعله من مقتضيات الدين ومن شعائره المثلى، التي لا يتحقق مسمى الدين إلا بها، فقال عليه السلام «**لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ**» وما ذاك إلا لأهميته البالغة في حياة الناس واستقرارهم، وحماية أوطانهم، روحيا وجسديا ودينيا.

ذلك أن من سنن الله في الوجود أن الناس على اختلاف نحلهم، وتباين مللهم ودياناتهم، يحتاجون إلى التعايش والتعاون والتآزر، فكانت أحكام العهود تنظيما للعلاقات بين المسلمين فيما بينهم، وفيما بينهم وبين غيرهم ممن ليس على دينهم لتتحقق للبشرية خَلة الاستقرار والاطمئنان.

ومن هنا كانت من الخطوات الأولى التي أقدم عليها النبي صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة - وهو يروم بناء دولة ووطن إسلامي - أن أبرم معاهدات مع من كان يسكن المدينة من اليهود، فلم يلجأ صلى الله عليه وسلم إلى الحرب والمواجهة، بل لجأ إلى الموادعة والمهادنة لأنها السبيل الأمثل والنهج الأقوم في بناء الأوطان واستقرار المجتمعات، وبذلك يكون قد نبه أمته عليه السلام إلى أن بناء الأوطان وصيانتها، والحفاظ عليها من أوكد مقتضياته: **الحفاظ على العهود وعدم نقضها**.

ولذلك عد الإسلام نقض العهد جرما خطيرا، وذنبا عظيما يستوجب به صاحبه كبير العقوبات وجسيمها، فقال عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهَدَةً بِغَيْرِ حِلِّهَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ أَنْ يَشُمَّ رِيحَهَا**»، وقال عليه السلام: «**أَيُّمَا رَجُلٍ أَمَّنَ رَجُلًا عَلَى دَمِهِ ثُمَّ قَتَلَهُ، فَأَنَا مِنَ الْقَاتِلِ بَرِيءٌ، وَإِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ كَافِرًا**».

لأن ضرر ناقض العهد لا يقتصر على نفسه، وإنما يعم الوطن بكامله، إذ غالبا ما يكون ذلك سببا في تخريب الأوطان وتشريد أهلها، والرمي بهم في أتون الويلات والمحن.

ولعل الواقع اليوم أكبر شاهد على ذلك فحين نقضت بعض الدول معاهداتها، وتم خفر العهود مع المعاهدين والمستأمنين كان ذلك سببا في شن الحروب عليها، مما أدى إلى تفكك الأوطان، وخراب البلاد والعباد.

ورعيا لهذه المسألة وتعظيما لها جعل الإسلام للمعاهدين والمستأمنين الذين يربطهم عهد مع الدول التي يدخلون إليها مجموعة من الحقوق تساوي بينهم وبين أفراد الدولة الإسلامية.

من ذلك أنه حرَّم دماءهم وأغلظ العقوبة لمن قتل معاهدا أو مستأمنا فقال عليه السلام: «**مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهَدَةً بِغَيْرِ حِلِّهَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ أَنْ يَشُمَّ رِيحَهَا**».

كما حرَّم أموالهم وشنع على من اعتدى على أموال المعاهدين، وجعل أخذها مقرونا بحقها، فقال عليه الصلاة والسلام: «**أَلَا لَا تَحِلُّ أَمْوَالُ الْمُعَاهَدِينَ إِلَّا بِحَقِّهَا**» وعموما فقد حرم إذاية المعاهدين بأي نوع من أنواع الإذاية بل جعل عليه السلام إذاية المعاهدين إذاية له، فقال عليه السلام: «من آذى ذميا فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله» ولا شك أن مثل هذا الوعيد لا يرتبه الشرع إلا على الكبائر العظمى من الذنوب.

وقد كانت حياة النبي صلى الله عليه تطبيقا عمليا لتلك التشريعات، فكان

صلى الله عليه شديد الحرص على الوفاء بالعهود التي يعقدها مع من ليس على دين الإسلام، وقد كان صلح الحديبية من أعظم النماذج على ذلك، فقد اختزلت كلمته الجامعة التي قالها في صلح الحديبية وهي قوله: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا**» كثيرا من المعاني، واكتنزت شتى الدلالات، والتي ما أحوج كثيرا من المسلمين اليوم إلى استحضارها وتطبيقها.

وقد سار الصحابة بعد النبي صلى الله عليه على خطاه وترسموا أثره في المحافظة على العهود، مما مكنهم من بناء دولة إسلامية قوية ينعم فيها أفرادها بالأمن والطمأنينة والاستقرار.

ولما كان بناء الأوطان وحمايتها يتجاوز ما هو مادي إلى ما هو قيمي مبدئي كانت أحكام العهود في أبعادها ترمي إلى تحقيق مجموعة من المبادئ والقيم التي تحقق للناس السعادة والتقدم والرقي، فمن ذلك:

قيمة المساواة والعدل: فالعدل والقسط ركيزة أساسية في بناء الأوطان والدول، وقد تجلت هذه القيمة كأوضح ما تكون في أحكام العهود فقد سوَّى الإسلام بين المسلمين وغيرهم من المعاهدين والمستأمنين في كثير من الحقوق، وقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلم أروع الأمثلة في ذا الأمر، فقد مرت عليه جنازة يهودي فقام لها، فقيل له إنها جنازة يهودي فقال عليه السلام أليست نفسا؟ وقد سلفت بعض الأحاديث التي حرَّم فيها الإسلام دماء المعاهدين وأموالهم.

ومن ذلك أيضا قيمة التسامح، وقد كانت المعاهدات التي أبرمها النبي صلى الله عليه وسلم مع المشركين وأهل الكتاب أروع نموذجين للتسامح، ففي صلح الحديبية كان المسلمون باستطاعتهم أن يدخلوا بلاد المشركين عنوة، لكن النبي صلى الله عليه آثر أن يحقن الدماء، بل رأى بعض الصحابة في بنود الاتفاق نوعا من الإجحاف حتى قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ففيم نعطي الدنية في ديننا؟

وقد جاءت أحاديث كثيرة تدعو إلى التسامح فقد جاء في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ أَرْضًا يُذْكَرُ فِيهَا الْقِيرَاطُ، فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْرًا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا**».

ومن ذلك قيمة التعايش والتعاون والرأفة...إذ من بين ما تقصده الإسلام بما شرعه من أحكام المعاهدين، جعل أهل الديانات المختلفة يتعايشون في بلد واحد يتمتع فيه المعاهد بكامل حقوقه السياسية والمدنية له ما للمسلمين وعليه ما عليهم.

إن هذه القيم التي تهدف إليها أحاديث العهود وترمي إلى تحقيقها هي الكفيلة ببناء الأوطان وحمايتها وازدهارها وتقدمها، فالبلد الذي يسود فيه التسامح والتعايش والحرية من شأنه أن يكون بلدا قويا اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وصناعيا وسياحيا.

إن فلسفة الإسلام فيما شرعه من العهود، وما أحاطها به من الأحكام والتشريعات يروم في أبعاده المقاصدية إلى بناء الأوطان وحمايتها، وجعل أهلها يتمتعون بالحياة السعيدة والعيش الرغيد.

وفي ذلك درس عظيم للأوطان الإسلامية اليوم فإذا أرادت أن تتقدم وتتطور في جميع المجالات اقتصاديا وثقافيا وسياسيا، فعليها استحضار مبادئ الإسلام في المعهود، لأن البلدان التي ينعم فيها المعاهدون والمستأمنون بالأمن والاستقرار، وتربطها بغيرها اتفاقيات ومعاهدات تلتزم بها، يزدهر اقتصادها، وتتقدم مجتمعاتها في شتى المجالات، مما يعود بالنفع العميم على الوطن وأهله، وبعكس ذلك الدول التي يُرَوَّع فيها المعاهدون، ولا تحترم المعاهدات التي تربطها بغيرها من الدول يكون ذلك سببا في عزلتها اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا، مما يعود بالضرر على الوطن وأهله.

النصيحة: أصالة المفهوم وتجديده
وأثرها في حماية الوطن

د. عبد الله بن عبد العزيز الباقي

عضو هيئة التدريس بكلية المعلمين بمنطقة الباحة (السعودية)

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد، فالأرض هي الوطن العام الذي امتن الله به على خلقه في، ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ (المرسلات: ٢٥)، ثم لكل جنس وطنهم المندرج في الوطن الأم، وهكذا يكون لكل قبيلة أو قرية وطنهم الخاص ومن واجبه عليهم النصح الصادق له وحمايته والعمل لرقيه نباهته.

ومن هنا فإن عقد ندوة خاصة لمناقشة واجب حماية الأوطان من خلال السنة النبوية خطوة رائدة في هذا الباب. وقد اخترت موضوعًا في صميم قضية حماية الوطن، وفي موضع القلب منها وهو: النصيحة للوطن ودورها الحمائي للأوطان من خلال سنة النبي صلى الله عليه وسلم. وعنونته بـ **(النصيحة – أصالة المفهوم وتجديده، وأثرها في حماية الوطن)**.

ومن خلال البحث يتبين المفهوم الأصيل لمفردة النصيحة؛ سواء في اللغة أو الاصطلاح، حيث إنهما يتفقان على أن النصيحة عمل قلبي في المقام الأول والنصيحة: خلاف الغش. ونصحته أنصحه. وهو ناصح الجيب لمثل، إذا وصف بخلوص العمل، والتوبة النصوح منه، كأنها صحيحة ليس فيها خرق ولا ثلمة، وناصح العسل: ماذيه، كأنه الخالص الذي لا يتخلله ما يشوبه. ونصحت له ونصحته بمعنى[1].

وفهم النصيحة بمجرد النصح باللسان أو اليد أو النفس إنما هي تمظهرات ناشئة عن رسوخ حقيقة النصح في قلب الناصح، والفرق بينهما كبير لا سيما من حيث إن النصح المنافي للغش يجمع الإخلاص والصدق للمنصوح، ويعتبر بهذا المعنى سدًا منيعًا، وحصنًا حصينًا يحول بينه وبين ما يضر المنصوح من الأخطار، فهو أعظم فائدة للمنصوح من بعض كلمات تواسي أو ترضي ثم تنتهي.

١- الخليل بن أحمد، معجم العين ٣/ ١١٩، ابن فارس، مقاييس اللغة ٥/ ٤٣٥، ابن منظور، لسان العرب ٢/ ٦١٥.

علاقة النصيحة بالوطن من خلال السنة النبوية: في حديث تميم بن أوس الداري رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ، قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: لِلهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**».[1] تتبين علاقة النصيحة بالوطن من حيث إن كل جهات النصيحة الواردة في هذا الحديث لها ارتباط وثيق بالوطن؛ فقوله عليه الصلاة والسلام: [النصيحة لله ولكتابه ولرسوله] يمثل الانتماء الديني والقيمي الذي على أساسه تبنى معايير الحياة في بقعة من الأرض. وقوله: [ولأئمة المسلمين وعامتهم] يمثل الجانب الوطن في بعده الإنساني الملازم للبعد المكاني؛ وبالتالي الحديث أصل في الدلالة على هذا المعنى.

النصيحة للوطن والنصيحة للنفس: فالنصيحة للوطن هي نصيحة للذات في الحقيقة، لأن العناصر المشتركة بين أفراد الوطن الواحد تجعل منهم كيانًا واحدًا متعدد الأجساد، متّحد السمات والأهداف.

والسنة النبوية تؤكد على مبدأ الاتحاد بين الهوية الشخصية والهوية الوطنية؛ فكما يجب بحكم الفطرة أن ينصح لذاته ونفسه ويحفظها من كل سوء كذلك يجب عليه أن يحفظ وطنه الإنساني والمكاني.

أما حفظ الوطن الإنساني فعن ابن شهاب أن سالما أخبره أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أخبره: أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[2].

وأما حماية الوطن المكاني فيشهد له حديث سَعِيد بْنِ زَيْد، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ، أَوْ دُونَ**

١- أخرجه: مسلم في الإيمان، حديث رقم: ٥٥.
٢- أخرجه: البخاري في صحيحه (٣/ ١٢٨)، مسلم (٤/ ١٩٩٦).

دَمِهِ، أَوْ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»[1].

النصيحة لولاة الأمر أصل حماية الأوطان وعمرانها، وغشهم بوابة دمارها وفنائها: تتبين قيمة التنبيه على حقيقة دلالة النصيحة ومفهومها؛ حيث إن بعض الأشخاص عندما يفهم النصيحة بمفهوم النصح القولي، قد يتوهم أنه يجب عليه ذلك، ويجب على ولي الأمر الاستجابة له، وأنه إذا فعل ولم يستجب ولي الأمر ربما يعتقد أن فريضة الوفاء بالبيعة أنها غير لازمة، وهذا خطر عظيم ينفيه اعتقاد النصيحة بمعناها الشرعي الصحيح.

وقد نبه ابن عبد البر في هذا الموضع إلى أن العجز الاختيار أو الاضطراري عن مناصحة ولي الأمر لا يلغي حقه في النصيحة، وصدق البيعة، والكينونة معه على السمع والطاعة. قال رحمه الله: «قال أبو عمر إن لم يكن يتمكن نصح السلطان فالصبر والدعاء فإنهم كانوا ينهون عن سب الأمراء»[2].

وتنبيه ابن عبد البر إلى هذه المسألة يدل على فقه عميق بدقائق النصوص النبوية، فإنه ربما تطرق إلى بعض الأفهام شيء من الوهم حيال هذه المسألة فنبه إلى **أن النصح للإمام أس راسخ من أسس الشريعة لا يسوغ تجاهله ولا مخالفته بسبب تعذر فرع من فروعه مثل بذل النصيحة القولية لولي الأمر لأي سبب.**

ويظهر أثر هذا التلازم بين النصيحة والبيعة للإمام في بقاء العلاقة بين الإمام والرعية على الوفاق المحقق للوحدة والصلابة للأمة في وجه كل الأعداء، وهذا من شأنه ضمان مساحة آمنة للرعية من مخاوف النوازل الحربية أو الاقتصادية؛ بقوة الجبهة الداخلية للوطن التي تمثل الحماية الداخلية الأكثر فعالية.

وواقع الأمة الإسلامية يحكي ضبابية في مسألة النصيحة لولاة الأمر وعلاقته بحماية الأوطان، ويعاني تشويشًا على دلالته، ومن مؤشرات ذلك:

١- أخرجه: أبو داود (٤ / ٢٣٦)، والترمذي (٤ / ٢٧).

٢- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٢١ / ٢٨٧) مع حذف أسانيد الروايات.

أولًا: الغياب الكلي - بحسب اطلاع الباحث- لمصطلح النصيحة الوطنية أو النصيحة للوطن، ولعل السبب في ذلك عدم وجود هذا المصطلح في التراث الإسلامي، ولكننا وإن لم نجده بلفظه فهو مقرر بمعناه - كما سبق في المبحث السابق-، ولعل الله تعالى جعل ما نراه من أحداث وحوادث سببًا في تنشيط هذا المعنى في حسنا الذاتي والشعبي.

ثانيًا: الجرأة على ثوابت الأوطان ومقدساتها من داخل الصف الوطني، واستخدام وسائل معاصرة نافذة في المجتمع المحلي وربما الدولي، وهذا يسبب أذى للوطن من خلال زعزعة استقراره الثقافي والقيمي، ومن خلال تشويه صورته أمام الرأي العام العالمي حيث يظهره مجتمعًا غير راسخ في مبادئه وثوابته.

ثالثًا: ومن أخطر أنواع الجرأة على ثوابت الأوطان الجرأة على ولاة الأمر في وسائل التواصل الاجتماعي، بنشر الشائعات عنهم، أو القوادح فيهم، وتضخيم أخطائهم، وتحقير إنجازاتهم، وهذه خطيئة كبرى حذر منها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «من أهان سلطان الله في الأرض أهانه الله»[1].

رابعًا: التحريض على التكتلات المعارضة التي تهدف إلى إسقاط ولاة الأمر الشرعيين، وهذا مخالفة صريحة لكل الأحاديث النبوية التي تؤكد وجوب الصبر على الإمام.

خامسًا: وجود بعض الخيانات المدنية والعسكرية في بعض الأحيان إيثارًا للمال على الوطن، استجابة لداعي الأنانية الشخصية على حساب الفريضة الوطنية.

سادسًا: التقصير في واجب التعليم وتخريج أجيال من الطلاب يحملون الشهادات العلمية ويمثلون الخواء المعرفي والمهني بشكل مزر بهم وبالأمة، لا سيما

١- رواه الترمذي في السنن، حديث رقم: ٢٢٢٤.

في التخصصات الشرعية والعسكرية والطبية والهندسية. وأصدق دليل على ذلك استمرار الحاجة في قضايا الأمة الجوهرية إلى خبراء من الخارج مع إمكانية منافسة القوى البشرية المحلية في كل مجالات المعرفة المدنية الأدبية والعسكرية. وهذا الخلل مخالف لمقتضى النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم، وقد ورد عن ابن عباس، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «تناصحوا في العلم، فإن خيانة أحدكم في علمه أشد من خيانته في ماله، وإن الله عز وجل سائلكم يوم القيامة».[1]

وذلك كله يحتم على مؤسسات صناعة الرأي العام القيام بدورها في نشر الوعي بهذا المعنى، وتعزيز حضوره في حياة الناس من خلال تأليف الكتب فيه، وتضمينه في المقررات الدراسية في المراحل الدراسية كافة، وفي كافة المجالات المعرفية المدنية والعسكرية، وصولا إلى التوظيف الإعلامي الرشيد لهذا المبدأ المحوري في حفظ أمن الوطن لا من داخله فقط بل أعمق من ذلك من داخل أفراده.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

١- المعجم الكبير للطبراني (١١ / ٢٧٠).

المنهج النبوي في حماية الوطن والدفاع عنه

د. أنس سليمان المصري

الأستاذ المساعد في الحديث النبوي الشريف وعلومه (الأردن)

الحمد لله خالق الإنسان، ومعلم القرآن، وموطِّن الأوطان، والصلاة على النبي العدنان، سيد الهداية والبيان، وعلى صحابته أكمل الرضا ومسك الختام، ومن تبع سمتهم فآمن ثم استقام، ونشر دعوتهم من العلماء والأعلام، وبعد، ،

فإن المنهج النبوي في حماية الوطن يقوم على موقف وسطي متوازن بين ترسيخ حقيقة الدفاع عنه من جهة، وعدم اتخاذه ذريعة للاعتداء على الآخر من جهة أخرى؛ ذلك أن المنهج النبوي تميز عن كافة المناهج الأخرى؛ القديمة منها والمعاصرة- بكمال توازنه ووسطيته في اتباع كافة الوسائل الشرعية والعملية وتعزيزها وتوظيفها لحماية الوطن فكريّا واقتصاديّا واجتماعيّا وعسكريّا، واتخاذ كافة التدابر والإجراءات؛ ومع ذلك فإنه قيّد المسلم بعدم اتخاذ ذلك ذريعة للتجاوز في حقوق الآخر، وربط ذلك بأساس عقيدته وإيمانه، الأمر الذي حافظ على انضباطية المسلم في أعتى مواقف الدفاع الفكرية أو العسكرية.

ومن هنا جاء دور المنهج النبوي، والشريعة الإسلامية التي قامت على ترسيخ مبادئ المسلم لتغرس في النفوس مبدأ حماية الأوطان، وتؤطره بالمنهج الرباني بعيدًا على الإفراط أو التفريط، وتوظيف ذلك المبدأ لنشر دين الله وتطبيق شرعه في تعامل المسلمين فيما بينهم، وعلاقتهم مع الآخرين، وتوطيد صلتهم بالله ﷻ، ومن ثم نشر الدعوة الإسلامية إلى الناس كافة؛ لتكون الدعوة الإسلامية هي دعوة الحق.

ولا شك أن ما تنادي به الأنظمة المعاصرة، والقوانين الوضعية ومنظمات الحقوق الدولية من حماية الشعوب، واحترام الآخرين، وعدم الاعتداء عليهم، وإقامة العدالة الدولية، والبعد عن العنف والعصبية والغلو والتطرف ما هي إلا مصطلحات أخرى تحاكي الجوانب البشرية، غير أنها - في حقيقة الأمر- لم تضف إلى المنهج النبوي في بناء القيم الخلقية والإنسانية إلا تسميات جديدة، توصّل

واضعوها إلى جزء من منظومة هذا المنهج الرباني، إضافة إلى ما ترجمه النبي ﷺ وأمر باتباعه من المنهج والقيم الإسلامية.

ولذلك نرى أن المنهج النبوي عالج مفهوم حماية الوطن من إشكاليتين؛ أولاهما: اتخاذه من البعض ذريعة للعدوان واستباحة الأرواح والأعراض والأموال، وثانيهما: إهماله والتقاعس عنه بسبب انفصاله عن المفهوم العقدي والجزاء الأخروي، ولضعف مناهج ترسيخه، وآليات تعزيزه وتوظيفه.

ومن هنا فقد عمل المنهج النبوي - لتعزيز مبدأ حماية الأوطان- على عدد من الخطوات المتسلسلة منطقيًا، يتصدرها الكشف عن مبدأ حماية الوطن ودرجته في نفس المسلم كخطوة تمهيدية أولى تساعد على غرسه عقديًا، وتعزيزه مهاريًا ومعالجة المفاهيم المنافية له ليُعمد إلى توظيفه لخدمة الدين وعمارة الأوطان.

فقام المنهج النبوي باتباع طرائق عدة لذلك منها: السؤال المباشر (العصف الذهني)، باعتباره مؤشرًا مباشرًا لتحديد الدرجة التي يتمتع بها المؤمن من التضحية والفداء وحماية الوطن وهو أحد أقصر الوسائل المؤدية لذلك، كما إنه يُساعد على اكتشاف مواضع الخلل أو النقص ومن ثم العمل على تصويبها وتطويرها.

ومنها -كذلك- المراقبة والمتابعة للدلالة المصاحبة للمواقف المختلفة، واستخراج المؤشّرات القابلة للملاحظة؛ سواء أكانت مؤشرات سلبية أم إيجابية؛ ليُعمد إلى تقويم السلبية منها، ويُكشف عن المؤشرات الإيجابية لتعزيزها بناءً على ما ينتج عنها من المعرفة المتراكمة.

وآخرها أسلوب الحث والمنافسة باعتباره أشد الأساليب تأثيرًا واستخراجًا للمهارات المختلفة؛ سواءً العقلية منها أو الجسدية، الأمر الذي يدفع الشخص إلى بذل أقصى جهده لإبراز قدراته.

وبعد الكشف عن مبدأ حماية الوطن فقد عمد المنهج النبوي إلى غرس وترسيخ هذا المبدأ من خلال ربطه بعقيدة المؤمن ليكون واحدًا من الثوابت الشرعية غير الخاضعة إلى مصلحة شخصية أو هوى متبع ، حتى تؤدي مهمتها في عمارة الأرض ومصلحة البشرية.

كذلك علّق المنهج النبوي المسلم بوطنه نفسيّا وعاطفيّا إضافة إلى عقيدته؛ ليجعل حمايته فطرة وهاجسًا، بعيدًا عن المادة والمكاسب الدنيوية، وهو أمر موافق للعقيدة باعتبارها أمر فطري كذلك.

ثم أطر المنهج النبوي ذلك المبدأ بمنهج رباني قويم، يجعله هدفًا ساميًا يُبذل فيه المال والدم، ويمنع اتخاذه مطية للعدوان، والعصبية والشعوبية، وينظم أولوياته في إطارها الشرعي الصحيح؛ فيحفظ توازنه ووسطيته.

الأمر الذي يتطلب تعليق العمل به بجزاء أخروي يتناسب مع التضحية السامية من المال والنفس والعرض والفكر الذي لا يعوّضه أي مردود دنيوي أو ثمن مادي زائل.

هذا الترسيخ العقدي لمبدأ حماية الوطن لا بد له من أساليب تعززه وتصقله سواء على المستوى الفكري، أو المهاري، الأمر الذي يتطلب حماية المسلم وبنائه فكريًا وأخلاقيًا، وتعزيزه مهاريًا وحمايته من أية موجات فكرية منحرفة أو ممارسات عملية فاسدة.

الأمر الذي يعاضده إبراز القدوات سواء من شخص النبي ﷺ باعتباره موسوعة متكاملة من الأخلاق والأقوال والأفعال، أو من صحابته الكرام أو حتى أبطال التاريخ الإسلامي القديم أو المعاصر.

كما تقتضي حماية الوطن المحافظة على وحدته الداخلية ومحاربة الفئوية

حتى لا يقع النزاع والفشل وتذهب ريح الإسلام، وليحمل كل فرد مسلم مسؤولية تلك الحماية بعيدًا عن مستواه المادي أو العلمي أو الاجتماعي، أو أصوله النسبية أو العرقية.

وبناءً عليه تتعمق الحماية من خلال المجتمعات المسلمة بغض النظر عن بعد مسافاتها الجغرافية أو اختلاف لغاتها، مما يؤمن عمقًا سياسيًا واستراتيجيًا، وتضافرًا على مستوى العالمية، تتحكم من خلاله بالعلاقات مع الدول الأخرى والمنظمات غير المسلمة على أساس الولاء والبراء.

هذا كله يتطلب تعزيزًا عسكريًا وتحصينًا ضد اعتداء خارجي، مما يوجد هيبة تحفظ أمن الدول الإسلامية من أية جهات تحاول الإساءة إليها سواء من خلال درع علمي أو فكري أو عسكري جهادي، الأمر الذي يوجِد سيادة تحمي العقيدة والدين والأخلاق وما يترتب عليها من عمارة الأرض ونشر الدعوة.

ولا شك أن تعزيز مبدأ حماية الوطن يحتاج إلى مراقبة دائمة ووقاية مكملة تحفظ من وقوع أي خطأ في الفهم أو خلل في التطبيق لهذا المبدأ عن طريق إنكار أية أفكار سلبية أو ممارسات منافية للمنهج الرباني وتصحيحها بشكل مستمر، وذلك على المستوى العقدي أو الاقتصادي أو السياسي أو غير ذلك.

وقد امتاز المنهج النبوي في تعزيز مبدأ حماية الوطن بالبعد الروحي ليكون مبدأ متوازنًا هدفه أخروي رباني وذلك من خلال الدعاء وطلب الإعانة من الله ﷻ لتحقيق الأمن والسلامة والبركة والمحبة، والدعاء على المفسدين في مقدرات الأمة والمهددين لاستقرار الأوطان.

كل ما سبق إعداد لهذا المبدأ في كل مسلم ليكون مهيئًا لتوظيف ذلك في خدمة الدين وعمارة الأرض، وذلك من خلال تحقيق العدالة بين أفراد المجتمع المسلم في خدمة وأمان أوطانهم كلٌّ حسب إمكاناته وتخصصه، فكل من يعيش

على أرض مسلمة مطالب بحمايتها بطريقة أو بأخرى، ومن هنا كان المجتمع الإسلامي مجتمعًا راقيًا متقدمًا يحفظ لجميع أفراده حق الأمن والحماية ولا يسمح لأصحاب السلطة أو المال التلاعب بهذه العدالة.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.